المركز القومى للترجمة

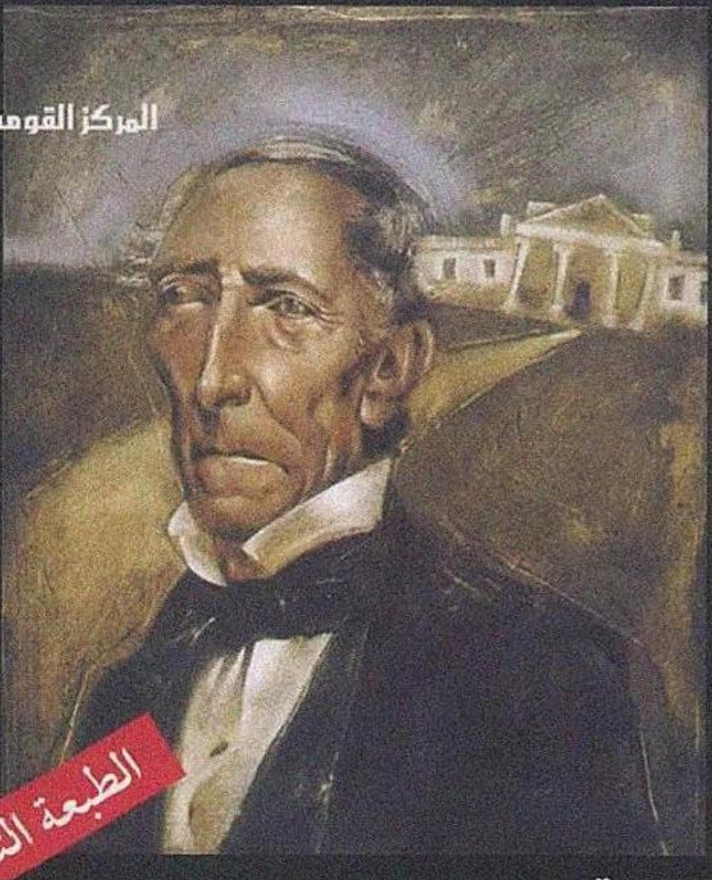

الطبعة الثانية

رواية

بقايا اليوم

الرواية الفائزة بجائزة « بوكر » البريطانية عام ١٩٨٩

تأليف : كازو إيشيجورو

ترجمة : طلعت الشايب

2/219

المشروع القومى للترجمة

بقايا اليوم

الرواية الفائزة بجائزة "بوكر" البريطانية عام ١٩٨٩

تأليـــــــف: كازو إيشيجورو
ترجمـــــــة: طلعت الشايب

٢٠٠٩

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٢١٩ / ٢
- بقايا اليوم
- كازو إيشيجورو
- طلعت الشايب
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية:
The Remains of the Day
by: Kazuo Ishiguro
Copyright© Kazuo Ishiguro 2000

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.
شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

رقم الإيداع: ١٠٣٨٤ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 0 - 265 - 479 - 977 - 978
طبع بمطابع مصر للطيران

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المترجم :

طلعت الشايب

- كاتب ومترجم مصرى من مواليد١٩٤٢
- حاصل على ليسانس فى الأدب الإنجليزى والتربية عام ١٩٦٢.
- يترجم من وإلى العربية والإنجليزية والروسية.
- عمل بالتدريس والترجمة والإعلام فى الفترة من ١٩٦٢ ـ ١٩٩٢.
- كاتب ومترجم حر منذ ١٩٩٢.
- **من ترجماته :**

دراسات :

ـ حدود حرية التعبير. ـ مارينا ستاغ ـ ١٩٩٥
ـ المثقفـــون . ـ پول چونسون ـ ١٩٩٧
ـ صدام الحضارات . ـ صمويل هنتنجتون ـ ١٩٩٨
ـ فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى. ـ أ. هيرمان ـ ٢٠٠٠

روايات :

ـ البطء ـ ميلان كونديرا ـ ١٩٩٦
ـ الملاك الصامت ـ هينرش بول ـ ١٩٩٧
ـ فتاة عادية ـ أرثر ميللر ـ ١٩٩٧
ـ عاريا أمام الآلهة ـ شيڤ كومار ـ ١٩٩٨
ـ الحرير ـ اليساندرو باريكو ـ ١٩٩٨
ـ الحمامة ـ پاتريك زوسكيند ـ ١٩٩٩
ـ اتبعى قلبك ـ سوزانا تامارو ـ ٢٠٠٠
ـ الخوف من المرايا ـ طارق على ـ ٢٠٠٠

شعر:

ـ أصوات الضمير : قصائد للإنسان والحرية.
(مختارات لشعراء من العالم ـ ١٩٩٩)

قصص قصيرة :

ـ أنا القمر .
(مختارات من الخرافة الصينية ـ ١٩٩٩)

مقدمة المترجم

«هذا الكاتب وعالمه»

«كازو إيشيجورو» كاتب إنجليزى من أصل ياباني، فهو من مواليد «ناجازاكى» - ١٩٥٤ - ، رحلت عائلته إلى بريطانيا فى عام ١٩٦٠، كانت العائلة تنوى العودة إلى الوطن الأصلى بعد سنوات قليلة، ومن هنا كان الحرص على تمهيده لتلك العودة والعيش في ظل الثقافة اليابانية. هكذا نشأ الابن على حافة عالمين ولكنه اكتشف بعد نمو مداركه أن بينهما من التشابه أكثر مما كان يتصور. بدأ يرى الأشياء والآخرين من حوله من منظور شخص غريب دفعه للتفكير بشكل أكثر عمومية، فى الصفات المشتركة بين الناس. وبالرغم من أن تلك النشأة مكنته من معرفة أنوا ع كثيرة من البشر، إلا أنه لم يشعر أبدا بأنه جزء من أى من الثقافتين : اليابانية أو الإنجليزية.

ربما تكون الأسرة قد استقرت فى إنجلترا بسبب الحرية التى وجدتها هناك كأجانب لا يواجهون توقعات ثقافية كبيرة كما هو الحال فى الوطن الأم، ولذلك كانت أفكار «إيشيجورو» عن اليابان مستمدة من الثقافة الإنجليزية، ومن الوالدين وليست وليدة احتكاك مباشر مع مجتمع يابانى واسع. والثابت أن الابن لم يذهب لزيارة اليابان إلا فى عام

١٩٨٧ وبعد أن كان قد أصدر روايتين ، كلتاهما عن اليابان.

هذه النشأة بعيدا عن الوطن، جعلته يرى أن كتابته أقل تعقيدا لأنه يخترع قصصه معتمدا على الانطباعات أكثر منه على حقائق وواقع معاش.

درس «إيشيجورو» في جامعتي «كنت» و «إيست انجليا» وبدأ حياته بالعمل في مجال الخدمة الاجتماعية، الأمر الذى هيأ له فرصة جديدة واسعة للمشاهدة والملاحظة والاستماع إلى معاناة الكثيرين. فهل كان ذلك هو سبب سيطرة موضوع واحد على معظم كتاباته، وهو «مايتمناه الناس» وكيفية تعاملهم مع فوضى أحداث الحياة اليومية التى تسير بهم بعكس أمانيهم؟

لم يبدأ «إيشيجورو» الكتابة إلا بعد أن تراجعت أحلامه الأخرى، كأن يكون موسيقيا مثلاً ، وإن كان قد استخدم تلك الخلفية أيضا بعد ذلك في كتابة رواية تتمحور حول عازف بيانو.

بعد مجموعة قصص قصيرة، أصدر روايته الأولى «منظر شاحب للتلال» في عام ١٩٨٢ ، ثم جاءت الثانية «فنان من العالم الطليق» في ١٩٨٦ والروايتان عن اليابان المتخيلة وعن هموم البشر الذين يعيشون مع المأساة. في الرواية الأولى يسبر الكاتب أغوار، مشاعر الفقد الشخصي، وفي الثانية يتناول حياة معاشة دفاعا عن القضية السياسية

الخطأ. الأفكار الأساسية فى العملين هى التطور الطبيعى الذى راح يتبناه «إيشيجورو» بعد ذلك عن طبيعة البشر ومساراتهم المتشعبة على مسرح الحياة.

الخلفية الثقافية الفريدة للكاتب خلقت لديه حساسية خاصة جعلته يتأمل الحياة العريضة وأفكار الناس من حوله. كلاهما: الإنجليز واليابانيون، يتميزون بطبائع متحفظة، ولذلك لم يكن غريبا أن تميل شخصياته إلى الجوانب الأكثر رزانة واتزانا فى السلوك. وهى شخصات شديدة التهذيب، تكبح مشاعرها وعواطفها الخاصة، غير واضحة أحيانا، تظل مدافعة عن أخطاء ـ خطايا ـ ارتكبتها، وتحرص كل الحرص على السير مع التيار العام، كما تولى اهتماما كبيرا لمعانى الشرف والكرامة.

فى الرواية الأولى «منظر شاحب للتلال» يستخدم الكاتب الغرب كعنصر للتحرر والهرب من ضغوط الحياة. ففى محاولة لنسيان الماضى ـ مأساة «ناجازاكى» وماتبعها من كوارث ـ تذهب الشخصيتان الرئيسيتان إلى الغرب لكى تبدآ حياة جديدة . «ايتسوكو» تترك زوجها اليابانى وتتزوج صحفيا إنجليزيا، وهو قرار سيكون سببا فى انتحار ابنتها بعد ذلك. و «ساشيكو» أرملة من ضحايا الحرب، ترتبط بعاشق أمريكى، يعدها بأن يأخذها معه إلى الولايات المتحدة، وهو سلوك

سيكون سببا فى معاناة ابنتها «ماريكو» بعد ذلك، وإصابتها بصدمة تفقدها توازنها.

خيارات الشخصيات فى الرواية، وما تتمخض عنه من نتائج، تعكس موضوعا عاما فى روايات «إيشيجورو»، وهو افتقاد الغرب للإحساس بالعمق والتاريخ والتواصل، ولذلك فإن الكاتب يعترف فى أحاديثه بأن حيرة شخصياته الرئيسية هى فى غالب الأمر انعكاس لصراعاته الخاصة. هو يعرف أن هناك أشياء كثيرة فى الحياة لايمكن السيطرة عليها، ولذلك يظل هائما بين أكثر من نهاية متطرفة. هل يستطيع المرء أن يسيطر على الأمور؟ إلى أى مدى؟ وماهى الأشياء التى يعتبر مسئولا عنها؟ ومتى يمكنه أن يتخلى عن تلك السيطرة التى يتوهم أنه يمتلكها؟ قصص «إيشيجورو» تبدو قريبة الشبه بحياتنا، وشخصياته تبدو وكأنها تخوض تجاربنا ذاتها، لذلك يحقق نجاحاً كبيراً فى إصابتنا بالقلق الدائم فلا نشعر بالراحة، لأنه يجتذبنا بمهارة ــ وخبث ــ لكى نعيش نيابة عنهم... وفى النهاية يخيبون أملنا. ولأننا نمتلك القدرة على رؤية الأشياء التى يغفلون عنها، نبدو مأسورين فى شراك من صنعهم. القرارات المهمة فى حياتهم لا تُتَّخذ، بينما تتواصل القضايا التافهة وغير المؤثرة التى يشغلون أنفسهم بها، يعطونها أولوية. فنحن نرثى لهم وفى الوقت نفسه نشعر بالخذلان ، لأنهم يفتقرون للشجاعة الكافية لفعل

شيء ضروري في حياتهم.

«إيشيجورو» يكتب بأسلوب شديد الاقتصاد، لايقدم إلا التفاصيل الضرورية ، بل إنه كثيرا ما يقول شيئا، وهو يعني شيئا آخر. كتاباته خليط من الاستعارات المنفصلة والتلميحات والتشبيهات والتداخلات الغامضة بين الشخصيات . وهو كاتب مدهش في تقديم شخصيات ثانوية تحيط بأبطاله فتبرزهم عن طريق العلاقة التي تربطهم معا. كاتب يتقافز بأفكاره جيئة وذهابا في الزمن، ويستخدم الذكريات وتداعياتها وردود الفعل ليصور الظروف التي تجسد شخصياته. يخدعنا في كثير من الأحيان ويتركنا مرتبكين بسبب نقص في القص أو عدم وضوح، ولكنه يعتبر ذلك استراتيجية في كتاباته، فالمعلومات الشحيحة يريد بها أن يجعلنا نشحذ الذهن والخيال في أمور البشر. يضعنا في عالم ضبابي وملتبس لكي نستخلص صفاتنا الخاصة من الحكاية. لايصف لنا بدقة أو تحديد ذلك المشهد الذي نهم بتصوره، لذلك يشبهه بعض النقاد بـ «كافكا» عندما يستخدم أساليب معقدة تشبه الحلم وهو يصف شخصياته. وهو تكنيك يجبر القارئ على المزيد من إعمال الخيال وشخصنة القصة والاشتراك في كتابتها إن جاز التعبير...

يقول «إيشيجورو»: «عندما يخرج الكاتب عن التقليدي والواقعي في الكتابة، يكون لزاما عليه أن يبتكر، أن يخلق عالما جديدا، وأن يلتزم به.

هنا يصبح للفوضى وللمنطق الداخلى الخاص هدف».

حتى عناوين أعمال «إيشيجورو» توحى بالتردد والحيرة وعدم اليقين وبالواقعية الخشنة التى تصدم القارئ بعد الانتهاء من العمل، فيدرك أهمية العنوان ومغزاه.

بعد «منظر شاحب للتلال» و«فنان من العالم الطليق»، جاءت هذه الرواية التى بين أيدينا، «بقايا اليوم» (١٩٨٩)، وهى تداخل وتقاطع بين الذاكرة الفردية والتاريخ الوطنى من خلال عقل رئيس خدم إنجليزى نموذجى «ستيفنس» الذى يعتقد أنه خدم الإنسانية، لا لشىء، إلا لأنه سخر كل كفاءته وخبرته المهنية لخدمة رجل عظيم (اللورد دارلنجتون).

«إيشيجورو» يرى أن التاريخ وذاكرة الفرد عرضة للانتقاء والكبح والمراجعة بشكل دائم. الذاكرة بالنسبة للفرد، هى بالضبط كالتاريخ بالنسبة للدولة. نحن الآن فى عام ١٩٥٦، وقصر «دارلنجتون» ـ أو «دار لنجتون هول» ـ يستأجره الآن رجل أعمال أمريكى. وعندما يبدأ «ستيفنس» رحلته بالسيارة (سيارة المالك الجديد) إلى الريف الغربى، فإنه يبدأ فى الوقت نفسه رحلة معذبة فى الذاكرة.

هنا سيكتشف ما يجعله يضع كل شىء موضع المساءلة: عظمة «اللورد» الذى خدمه بإخلاص، وكذلك معنى حياته التى عاشها فى عزلة عن كل شىء مهم باستثناء وظيفته. أما فكرة الرحلة ذاتها فهى بنية

ذكية اتخذها «إيشيجورو» ليقول لنا إن البطل كلما كان يبتعد عن قصر «دارلنجتون»، إنما كان يقترب من فهم حياته التي قضاها هناك.

ولكن تفاصيل الرحلة تكشف للقارئ أشياء أكثر عمقا من تلك التي تتكشف لـ «ستيفنس» . رئيس الخدم يعتقد مثلا أنه يقوم بتلك الرحلة لأسباب مهنية، أو لكي يقنع مدبرة شئون القصر السابقة «مس كنتون» بالعودة للعمل في «دارلنجتون هول».

ومن خلال عمليات «الفلاش باك» واعترافات «ستيفنس» الساذجة، سرعان ما يدرك القارئ أن الأمر شخصي جدا: «ستيفنس» كان يحب «مس كنتون» ولكنه تركها تتزوج رجلا آخر، وهو الآن يريد أن يستعيد بعضا من الزمن المفقود، أن يصحح خطأ الماضي. والأهم من قصة الحب المقنَّعة هذه ـ وعلى صلة بها أيضا ـ هناك قضية «قصر دار لنجتون» ورأي «ستيفنس» في نفسه، ذلك الرأي الذي يستند فيه إلى اعتقاده بعظمة «اللورد» وسعيه لخدمة الإنسانية. القارئ يكتشف أنه يتأخر في الاعتراف بالخطأ. كان «اللورد» مجرد «عسكري شطرنج» في يد النازي، كان غبياً ربما، ضالا لاشك، ولكنه لم يكن أبدا ذلك الرجل العظيم الذي خدع «ستيفنس» نفسه به. هذه الاعترافات تتم من خلال بنية محبوكة ، حيث تتنقل رحلة «ستيفنس» بين السفر والتذكر والتفكير في المهنة ومعنى الكرامة وحاضر «دارلنجتون» البائس ونفوذ «اللورد»

فى العشرينيات وتوترات وقلق الثلاثينيات قبل الحرب.

«ستيفنس» فى هذه الرواية يعكس أفكار وتأملات «إيشيجورو» الخاصة وعدم وضوح الرؤية لديه والتمادى فى السير فى الاتجاه الخطأ. وشخصيته مرسومة بعناية فائقة تبرز مزايا وعيوب الطبيعة المتحفظة. فهو شخص رزين، محترف ، يحاول أن يحافظ على النظام والانضباط ومستوى الخدمة الممتاز فى قصر مخدومه. هذه الجهود كلها تفيض على حياته الشخصية وتطغى عليها مخلفة رجلا غامضا بقلب أجوف. والكاتب يقدم لنا فى الرواية أيضا رجل سياسة أمريكيا وهو «مستر فاراداى» ويرسم شخصيته بمعالم واضحة لكى يظهر التناقض بين الثقافتين. هذا الدبلوماسى، المالك الجديد للقصر، يأتى بعد صاحبه الإنجليزى الذى لطخ وجه إنجلترا بالعار بتأييده للنازى . لكن «ستيفنس» مخلص للمالك الجديد أيضا بالرغم من أنهما على طرفى نقيض.

كل تركيز «ستيفنس» منصب على أداء وظيفته، القضايا الجادة والخطيرة لاتشغله، يحيط حياته بنظام صارم لكى يسير كل شىء فى القصر على ما يرام. والحقيقة أنه قد رهن حياته وهويته لشخص آخر، ووضع نفسه فى فخ ما يراه ضمانا لأداء دوره فى العمل والحياة. وفى نهاية الرواية، يصل «ستيفنس» إلى درجة من ترويض النفس، درجة من الخمود فى تفكيره عن «دارلنجتون هول» وعن نفسه. مصدر كبريائه هو

نفسه مصدر شعوره بالعار. كان على استعداد لأن يلمع فى أوج عظمة «دارلنجتون هول» ، والآن لابد أن يتحمل نصيبه من العار.

«بقايا اليوم» مثل كل الأعمال الإبداعية الكبرى، عمل عضوى متماسك ، متكامل الأجزاء . كل مشهد وكل شخصية تضيف إلى الصورة الكلية وتبرزها، وأسلوب الكاتب المحكم يناسب موضوعه تماما، كما هو مناسب لشخصية الراوى الذى يسافر بسهولة بين المراحل الزمنية المختلفة. وباستدعائه الساحر للفكاهة والسخرية، يبدو «إيشيجورو» سيدا فى استخدام أدواته. تلك كلها عناصر تجمعت فى الرواية لكى ترسم صورة نفسية وثقافية واضحة المعالم تعبر عن فكرة «إيشيجورو» الدائمة: الفن وخداع الذاكرة.

فى عمله الرابع، «الذى لاعزاء له» ــ ١٩٩٥ــ نحن أمام بشر يبنون حياتهم فوق أطلال. جراح لاتلتئم، أخطاء وقعت فى الماضى لكن تداعياتها وتوابعها مستمرة وحاضرة دائما، ومنذ بداية الرواية ونحن مع بطلها «رايدر» تلك الشخصية القلقة المقلقة لأنها تعيش خدعة. «رايدر» عازف بيانو شهير وصل إلى مدينة أوروبية (غير مسماة) ليقدم حفلا موسيقيا. ومع تقدم القصة يتضح أنه لايتذكر شيئا كثيرا عن سبب زيارته ويكتشف أن المنتظر منه أن يقدم معجزة، وليس مجرد حفل موسيقى ، معجزة لاتقل عن استعادة الوجود الجمالى والروحى للمدينة.

وعلى مدى الأيام الثلاثة السابقة على ذلك المساء المرتقب، يجد «رايدر» نفسه واقعا في شرك حياة، ومتطلبات، وشروط عدد من الغرباء: مدير فندق وأسرته المختلة، حمال وابنته البعيدة عنه ـ نفسيا ـ وحفيده، وقائد أوركسترا سكير وزوجته المنفرة، وضيوف مهمين وغيرهم، إلى جانب شخصيات من ماضيه... كل أولئك يظهرون فجأة مثل أشباح غرائبية في كرنفال. ووسط كل هذه التجارب والممارسات السريالية يقدم «إيشيجورو» حياة الفنان العامة متشابكة مع نسيج حلم بلا أمل، وفي مكان ما بين السطور، وفي الهوامش، وفي ثنايا الصفحات نفسها تكمن قصة أخرى تنتظر أن تروى، قصة معروفة، قاتلة في واقعيتها، قصة طفل مهمل غير محبوب، فشل في أن يحقق توقعات والديه. في عملية الكشف السحرية، تصبح الشخصيات انعكاسا مشوها لـ «رايدر» نفسه ولأمه ولوالده ولمخاوف ورغبات طفولته المحبطة، بينما متاهة المدينة وروح المكان القلقة لا تعبر إلا عن عقله الباطن. أولئك الأغراب المستحيلون هم أشباح لنفس «رايدر»، وروح المدينة التي يحاولون أن يجعلوه ينقذها هي روحه.

يقول «إيشيجورو» : «إن ذلك استعادة لمعظم أصوات الناس»، فهو يستخدم أفكارا مثل خداع النفس وتباعد أفراد الأسرة وخيبات الأمل في العلاقات والتوترات الناجمة عن عدم التوافق والمثل الهابطة

والكلمات التى لاتقال... يستخدم ذلك كله لكى يجعل الناس يرون أنفسهم فى ماضيهم. صحيح أنهم مدانون بسبب ما ارتكبوه من أخطاء ، لكن من الصحيح أيضا أنهم يحاولون نسيان ذلك لكى يعيشوا مع أنفسهم فى المستقبل . يقول الكاتب:

«أنت تحتاج أحيانا لقدر من خداع الذات، وذلك يعطيك الشجاعة على مواصلة الحياة، يحدث ذلك عندما تكتشف أنك ارتكبت أخطاء كثيرة وهو ليس أمرا سيئا. لاشىء يمكن أن تفعله فى هذه الحال سوى أن تخفف عن نفسك بعض الشىء. فالناس يبحثون عن العزاء والسلوى فى العلاقات، فى الفن، فى العمل الذى يقومون به. العزاء لا وجود له، لكن «رايدر» بطل الرواية يواصل البحث عنه ويستمر فى البحث».

«إيشيجورو» ينفر من كل ما هو تقليدى ، خطوط القص وأسلوب الحكى و المعتقد الشائع والموروث السائد والمسيطر... وذلك يجعل بعض النقاد يشبهونه بفنانين مثل «وودى آلن» و «هيمنجواى» و «سبلبيرج». فهو متأمل ذكى شديد الحساسية، مهووس بما يكتشفه من حقائق رغم أنه لايفهمها. وهو فنان يجيد تصوير الفرص الضائعة والأخطار الناجمة عن الفشل فى التواصل، وغربة الشخصيات فى الحياة.. كل ذلك لكى يثبت أن الحياة ليست جديرة بأن تعاش بدون تلك العلاقات المهتزة . ومن هنا فإن كل أبطاله يعيشون حالة نكران للذات،

لايؤثرون فى ظروفهم المعاشة لأن نظراتهم إلى الماضى مشوهة. «رايدر» هو البطل الوحيد الذى يشعر بأهميته، وبأنه مركزى لأن الأحداث كلها تتمحور حوله، ومتاهته هى متاهة أى بطل أخر من أبطال رواياته.

فى منتصف هذا العام (٢٠٠٠)، أصدر «إيشيجورو» روايته الخامسة بعنوان «عندما كنا يتامى»، وهى تتناول الماضى أيضا، وفيها نقف مع بطلها «كريستوفر بانكس» أمام لغز اختفاء والديه وهو طفل. «كريستوفر» يعتقد أن حل ذلك اللغز من شأنه أن يعيد التماسك إلى عالم طفولته المهتز، وبالتالى يمنع العالم نفسه من السقوط. شخصيات الرواية إنجليزية ويابانية من «شانغهاى».

عندما أصدر «إيشيجورو» روايته الأولى عام ١٩٨٢، قالت صحيفة «التيمز» إنها إنجاز كبير، وإن رشاقة اللغة المكتوبة بها تعكس ذكاء الكاتب وحدة ذهنه. بينما قالت «الأوبزرفر» إنها رواية يابانية ذكية، وقد حصلت تلك الرواية الأولى على جائزة «وينفرد هولتباى» . وعندما صدرت روايته الثانية عام ١٩٨٦ احتفلت الصحافة الأدبية بظهور واحد من أساتذة الكتابة الإنجليزية المعاصرة. كما حصلت الرواية على جائزة «ويتبرد» ووصلت إلى القائمة المختصرة لجائزة «بوكر» فى العام نفسه.

أما روايته الثالثة «بقايا اليوم» ــ ١٩٨٩ ــ فقد حصلت على جائزة «بوكر» وترجمت إلى لغات عدة، وكانت من أكثر الكتب مبيعا على مدى

خمس سنوات (أكثر من مليون نسخة من الطبعة الإنجليزية وحدها فى العام الأول)، كما حولت إلى فيلم ناجح من بطولة «انتونى هوپكنز» و«إيما طومسون» حصل على ٧ جوائز أوسكار. أما روايته الرابعة «الذى لا عزاء له» ـ ١٩٩٥ ـ فحصلت على جائزة «شلتنهام».

بقى أن نقول إن أكثر ما يضايق «كازو إيشيجورو» هو الاهتمام به لكونه كاتبا يابانيا، وفى ذلك يقول : «إن استخدامى الدقيق والمحدد للغة ليس خاصية يابانية، فقد كانت چين أوستن» و«هنرى چيمس» تستخدمان الأسلوب نفسه بنجاح كبير، وأنا بطبيعتى أكره الإسهاب والتطويل والتضخيم كما فى مسرح الكابوكى وأفلام «كيروساوا» الملحمية. إنها أعمال يابانية حتى العظم وبعيدة عن الاقتصاد. وبالرغم من أن المؤسسة الثقافية الإنجليزية تعتبر «إيشيجورو» كاتبا غير بريطانى ، إلا أنه على خلاف الكتاب الآخرين المهاجرين من الهند وبقية دول القارة الآسيوية لا يجد لزاما عليه أن يعكس اهتمامات التجمع اليابانى فى «لندن» أو أن يعبر عن قضاياه أو يخاطبه فى أعماله.

«لا أعتقد أننى أشارك الكتاب الآسيويين فى بريطانيا هموم الهوية، وأذكر أننى عندما جئت إلى هنا كنت أنا الطفل اليابانى الوحيد فى المنطقة ، ولم يكن هناك من يسألنى من أى مجتمع أنت. وأنا حتى الآن لا أشعر بروابط مع المجتمع اليابانى الذى يعيش هنا، فهو مجتمع

عابر، يتكون من مجموعة من رجال الأعمال فى شركات متعددة الجنسية، يرسلون أبناءهم إلى مدارس يابانية ويأكلون فى مطاعم يابانية، وأنا لا أفهم ثقافتهم، ولا أتكلم نفس اللغة، ولا أعيش حياتى بنفس أسلوبهم. ليس هناك ما يربطنى بهم سوى أصلى، وأعيش هنا كما يعيش أى روائى إنجليزى، وليس هناك أى ضغوط سياسية تجعلنى أفكر أن أكون متحدثا رسميا باسم مجتمع أو جمهور معين..»

طلعت الشايب

القاهرة ـ يوليو ٢٠٠٠

بقـــايـــا اليــــــوم

مقدمة : يوليو ١٩٥٦
«دارلنجتــون هــول»

يبدو أننى سأقوم بالرحلة التى تشغل بالى منذ أيام. سأقوم بها وحدى مستخدما السيارة الفورد الفاخرة الخاصة بـ «مستر فاراداى»، والتى ستحملنى ـ كما أتوقع ـ عبر الريف الإنجليزى إلى المناطق الغربية، وتبعدنى عن «دارلنجتون هول » لمدة خمسة أو ستة أسابيع. لابد أن أقول إن فكرة هذه الرحلة كانت نتيجة اقتراح لطيف من «مستر فاراداى» نفسه، عندما كنت أزيل الغبار عن بعض الصور فى المكتبة ، بعد ظهر أحد الأيام منذ أسبوعين تقريبا.

كنت ــ على ما أذكر ـ واقفا على درجة السلم العليا، أنظف صورة «الفيكونت ويذربى» عندما دخل صاحب القصر حاملا بعض المجلدات التى كان من المفترض أن أعيدها إلى أماكنها على الأرفف. عندما رآنى أمامه، وجدها فرصة ليخبرنى بأنه كان قد انتهى لتوه من برنامجه، حيث سيعود إلى الولايات المتحدة لمدة خمسة أسابيع بين شهرى أغسطس وسبتمبر.

وبعد أن أعلن ذلك، وضع المجلدات على الطاولة وجلس على الأريكة وفرد ساقيه. كان «مستر فاراداى» يحدق فىَّ وهو يقول : «تعرف يا ستيفنس... لا أتصور أنك يمكن أن تظل حبيس هذا القصر طيلة فترة غيابى. لماذا لا تأخذ سيارتى وتذهب إلى مكان ما لبضعة أيام ؟ يبدو أنك من النوع الذى يمكنه أن يفيد جيدا من إجازة قصيرة..» ولأن الأمر كان مفاجأة غير متوقعة، لم أعرف كيف أرد على اقتراح من هذا النوع .

أذكر أننى شكرت له اهتمامه، ولكن يبدو أننى لم أقل شيئا محددا، لأنه واصل كلامه : «أنا جاد يا ستيڤنس. لابد أن تأخذ إجازة وسوف أتحمل وقود السيارة. أمثالك يحبسون أنفسهم دائما فى العمل فى هذه القصور الكبيرة، متى إذن يتسنى لكم الخروج لمشاهدة ريفكم الجميل ؟»

لم تكن تلك المرة الأولى التى يسأل فيها مستخدمى مثل هذا السؤال، ويبدو أن الأمر كان يشغله بالفعل. فى تلك المناسبة، دارت برأسى إجابة ـ رديئة ـ بينما أنا واقف على السلم، مفادها أن أمثالنا نحن العاملين بهذه المهنة قد «رأينا» الكثير وعرفنا الكثير عن انجلترا، نتيجة وجودنا فى مثل هذه القصور الكبيرة التى يتجمع فيها علية القوم. رأينا الكثير وعرفنا الكثير بالرغم من أننا لم نر بلادنا بمعنى التنزه فى الريف وزيارة الأماكن الجميلة. وبالطبع ، ما كان بإمكانى أن أعبر عن ذلك للسيد «فاراداى»، دون أن يكون فى كلامى قدر كبير من الجراءة. لذلك اكتفيت بالقول، وببساطة شديدة:

«كان من المزايا التى أتاحها لى عملى أننى رأيت أفضل ما فى انجلترا بين هذه الجدران وعلى مر السنوات».

ويبدو أن السيد «فاراداى» لم يفهم قولى لأنه واصل حديثه: «أنا أقصد ذلك يا ستيڤنس! من الخطأ ألا يخرج إنسان ما؛ لكى يتعرف على بلاده. اعمل بنصيحتى... اخرج من هذا القصر لبضعة أيام».

وكما يمكن أن تتوقع ، لم أخذ اقتراح «مستر فاراداى» بجدية فى ذلك المساء ، واعتبرته دليلا آخر على جهل رجل أمريكى بما يحدث، أو بما لا يحدث ، عادة فى إنجلترا.

والحقيقة، أن موقفى من هذا الاقتراح نفسه، قد مر بتطورات على مدى الأيام التالية ـ وبدأت فعلا فكرة القيام برحلة إلى الريف الغربى تسيطر علىّ ـ وذلك راجع بلا شك ـ ولماذا أخفى ذلك ؟ ـ إلى وصول رسالة من «مس كنتون»، هى رسالتها الأولى منذ سبع سنوات، هذا باستثناء بطاقات الكريسماس بالطبع.

ولسوف أوضح فورا ما أقصده. ما أريد أن أقوله هو أن رسالة «مس كنتون» أطلقت برأسى العنان لعدد من الأفكار المتعلقة بأمور مهنية هنا فى «دارلنجتون هول»، ولابد أن أؤكد أيضا على أن ذلك كان انشغالا بالأمور المهنية ذاتها التى جعلتنى أعيد التفكير فى الاقتراح الطيب لـ «مستر فاراداى». ودعنى أوضح المسألة أكثر من ذلك. على مدى الأشهر القليلة الماضية، كنت سببا فى وقوع عدد من الأخطاء الصغيرة فى تنفيذ واجباتى. ولابد أن أقول إن تلك الأخطاء كانت كلها ـ وبلا استثناء ـ تافهة فى حد ذاتها . لكننى أعتقد أنك تدرك أن تلك الأخطاء بالنسبة لشخص لم يعتد الوقوع فيها، لابد أن تكون أمرا مزعجا. وقد بدأت بالفعل البحث عن أسبابها. وكما يحدث غالبا فى مثل

تلك المواقف كنت قد أصبحت عَمِيًّا عن الأشياء البسيطة الواضحة، وأصبح تفكيرى منصبا على الأشياء العميقة. مضمون رسالة «مس كنتون» ، هو الذى فتح عينى أخيرا على هذه الحقيقة البسيطة: الأخطاء التافهة التى حدثت فى الأشهر الأخيرة لم تكن سوى نتيجة لخطة العمل فى القصر. إنها بالطبع مسئولية أى رئيس خدم أن يضع خطة عمل.. متقنة.. لا تسمح بحدوث أى خلل فى الخدمة. ولكن فى مرحلة وضع الخطة، من ذا الذى يمكنه أن يتوقع عدد المشاحنات أو الاتهامات الزائفة أو الاستغناءات، لكى تكون خطة شديدة الإتقان؟ ومع ذلك أنا أتفق فى الرأى مع من يرون أن القدرة على وضع خطة عمل جيدة ، هى حجر الزاوية فى مهارات رئيس الخدم الجيد. أنا شخصيا وضعت عدة خطط على مدار السنوات، وأستطيع أن أقول بكل فخر، إن القليل.. القليل.. منها هو الذى كان فى حاجة إلى تعديل. أما إذا كانت الخطة الموجودة حاليا قاصرة، فالمسئولية لن تكون إلا علىّ وحدى. وفى الوقت نفسه، من الإنصاف أن أقول إن مهامى فى هذه الظروف كانت فى غاية الصعوبة.

ما حدث هو الآتى. بمجرد أن تمت الصفقة ـ الصفقة التى انتقلت بها ملكية هذا القصر من يد عائلة «دارلنجتون» بعد قرنين ـ، أعلن «مستر فاراداى» أنه لن يقيم هنا الآن، وأنه سيقضى أربعة أشهر فى الولايات المتحدة لإنجاز بعض الأعمال. وفى نفس الوقت ، كان حريصا على الإبقاء

على طاقم الخدمة الذى كان يعمل لدى المالك السابق، وهو فريق ـ سمع عنه كل خير ـ سيحتفظ به فى «دارلنجتون هول». المجموعة التى تعمل هنا، والتى أشار إليها مكونة من ستة أفراد، لا أكثر، احتفظ بهم أقارب «لورد دارلنجتون» لرعاية شئون القصر أثناء الصفقة وحتى الانتهاء من عملية البيع. ومن أسف أنه بعد انتهاء عملية البيع، لم يكن أمامى سوى القليل الذى يمكن أن أقوم به لكى أمنع كل العاملين من المغادرة لكى يعملوا فى أماكن أخرى باستثناء «مسز كليمنتس».

وعندما كتبت لمستخدمى الجديد معبرا عن أسفى لهذا الموقف، تلقيت منه ردا مع تعليمات بتوظيف مجموعة جديدة «جديرة ببيت إنجليزى عريق». شرعت على الفور فى تنفيذ رغبة «مستر فاراداى»، ولكن إيجاد مرشحين أكفاء وعلى مستوى لائق، ليس أمرا سهلا هذه الأيام ــ كما تعلم ــ، وبالرغم من أننى كنت سعيدا لتوظيف «روزمارى» و«آجنس» عملا بتوصية «مسز كليمنتس»، إلا أن ذلك كان هو كل ما فعلت ، عندما حان أول لقاء عمل مع «مستر فاراداى» أثناء زيارته الأولية القصيرة لشواطئنا فى ربيع العام الماضى.

حدث ذلك فى المكتبة فى «دارلنجتون هول» وكانت المكتبة خالية. كانت أول مرة يصافحنى فيها «مستر فاراداى» ، كنا غرباء بصرف النظر عن موضوع العاملين الذين طلب تعيينهم، وكان مستخدمى

الجديد يجد الفرصة فى مناسبات مختلفة ليذكرنى بصفات معينة، كان من حسن حظى أننى أمتلكها، ويرى أنها لابد أن تؤخذ بالاعتبار. ولذلك، أعتقد أنه شعر على الفور بأنه يمكن أن يتحدث معى بطريقة عملية توحى بالثقة، وفى نهاية اللقاء ترك لى مبلغا لا بأس به لمواجهة نفقات الترتيبات الكثيرة لمجيئه بعد ذلك بغرض الإقامة. على أية حال، فإن ما أود أن أقوله هو أننى فى تلك المقابلة، أثرت موضوع صعوبة تعيين مجموعة مناسبة من العاملين فى هذه الظروف، لدرجة أن «مستر فاراداى» ـ وبعد تفكير ـ طلب أن أبذل قصارى جهدى لأضع خطة عمل «لطاقم الخدمة» ـ كما قال ـ لكى يستمر العمل فى القصر بنفس الفريق المكون من أربعة أفراد ـ أو مسز كليمنتس، والفتاتين، وأنا، وقال إن ذلك قد يتطلب إغلاق بعض أجزاء القصر وتغطيتها، وسألنى إن كان بإمكانى أن أستخدم كل ما لدى من خبرة حتى أضمن أن تكون الخسارة عند أقل حد ممكن. كانت فكرة وضع الخطط لطاقم مكون من أربعة أشخاص أمرا مروعا، وبخاصة عندما أتذكر أننى أشرفت ذات يوم على فريق من ١٧ شخصا، وأن فريقا من ٢٨ شخصا كان يعمل هنا فى «دارلنجتون هول» منذ وقت قريب.

بذلت جهدا خارقا لكى لايبدو علىّ الانزعاج، وبالرغم من ذلك لابد من أن يكون «مستر فاراداى» قد أدرك حيرتى، لأنه قال ـ وكأنه يؤكد لى ـ :

إن بإمكانى تعيين شخص آخر إن دعت الحاجة لذلك. إلا أنه سيكون شاكرا ـ وكرر ذلك ـ إن استطعت تسيير العمل بأربعة أفراد.

والآن ، من الطبيعى أن أكون مثل معظمنا، مترددا فى تغيير الكثير من عاداتى القديمة، وفى الوقت نفسه، فإن التشبث بالقديم من أجل القديم كما يفعل البعض، ليس فضيلة بالمرة. فى هذا العصر، عصر الكهرباء وأنظمة التدفئة الحديثة، ليس ثمة ما يدعو على الإطلاق ـ لاستخدام ذلك العدد من الأفراد كما كان يحدث فى الجيل الماضى. وكنت قد أصبحت مقتنعا بأن الاحتفاظ بعمالة غير ضرورية لمجرد الحفاظ على التقاليد ، هو أحد العوامل المهمة فى انهيار المستوى المهنى ، لأن العاملين يصبح لديهم الكثير من الوقت الفائض.. غير الصحى وغير الضرورى . هذا بالطبع بالإضافة إلى أن «مستر فاراداى» قد أوضح أنه يخطط لإحياء المناسبات القليلة والنادرة التى كانت تقام فى «دارلنجتون هول» فى الماضى.

وهكذا رحت بكل تفان، أنفذ المهمة التى أوكلها إلىّ «مستر فاراداى»، فأمضيت عدة ساعات فى وضع خطة عمل للطاقم الموجود، وأمضيت ساعات أخرى أراجعها وأنا أقوم بأعمال مختلفة أو بعد الانتهاء من العمل. كنت كلما تصورت أننى قد توصلت إلى شىء، أقلب الأمر على كل وجه، وأنظر إليه من جميع الزوايا. وفى النهاية خرجت

بخطة، ربما لا تكون الأفضل كما طلب «مستر فاراداى» بالضبط، ولكنها كانت ممكنة من الناحية الإنسانية كما أكد لى.

جميع الأجزاء الجذابة من القصر يمكن أن تظل فى حالة تشغيل: أماكن الخدم الواسعة ـ بما فى ذلك الممر الخلفى، والغرفتان الخاصتان بالتقطير والمغسلة القديمة ـ وممر صعود الضيوف إلى الطابق العلوى ، كلها يمكن تغطيتها لحمايتها من التراب، مع ترك غرف الدور الأرضى الرئيسية، وعدد كبير من غرف الضيوف.

وكما هو واضح فإن الفريق المكون من أربعة أفراد يمكن أن ينفذ هذا البرنامج بمساعدة عمال يشتغلون باليوم. وهكذا فإن خطة العمل عندى سوف تستعين بخدمات بستانى يجيء مرة فى الأسبوع. ومرتين فى الصيف، وعاملى نظافة مرتين فى الأسبوع، أما بالنسبة للأربعة الدائمين فإن جدول عملهم سيخضع لتغيرات جوهرية بالنسبة لأعمالهم المعتادة. وكما توقعت، فإن الفتاتين لن تجدا ذلك التغيير صعبا للتأقلم معه، وقد بذلت كل ما فى وسعى بحيث لا تكون التعديلات صعبة على «مسز كليمنتس»، كما تعهدت بأن أقوم بعدد من المهام التى قد ترى أن رئيس الخدم الواسع الأفق فقط، هو الذى يستطيع القيام بها. وحتى الآن، لايمكن القول بأنها خطة سيئة، حيث إنها تمكن فريقا من أربعة من تغطية مساحة غير متوقعة.

وبالرغم من ذلك، لا أشك فى أنك متفق معى على أن أفضل الخطط هى تلك التى تترك هامشا احتياطيا للطوارئ: تحسبا لمرض أحد العاملين فجأة، أو ضعف أداء عامل آخر لسبب ما غير متوقع. فى مثل تلك الأحوال بالطبع، كان علىَّ أن أقوم بأعمال غير معتادة - إلى حد ما - مدركا أن أى مقاومة من جانب «مسز كليمنتس» أو الفتاتين لتحملهن أعباء أكثر مما هو مطلوب منهن، لابد أن يكون سببها زيادة حجم العمل بالفعل.

لذا أثناء انشغالى بوضع الخطة، كنت حريصا على ألا تجد «مسز كليمنتس» ولا البنتان أنفسهن فى حالة إرهاق نتيجة تقسيم العمل . وأنا أخشى على أية حال أن أكون فى قلقى لكسب تأييد «مسز كليمنتس» والبنتين غير مقدر بشكل دقيق أوجه قصور الخطة. وبالرغم من حذرى المعتاد فى مثل هذه الأمور فقد أغفلت مسألة أن أترك لنفسى هامشا للحركة، ولم يكن مفاجئًا إذن أن يتبدى ذلك السهو على مدى عدة أشهر، فى شكل أخطاء صغيرة، ولكنها دالة فى الوقت نفسه. وفى النهاية، أعتقد أن الأمر ليس أعقد من ذلك: فقد خصصت لنفسى أشياء كثيرة، وأكثر مما ينبغى ، لكى أقوم بها. وقد يدهشك أن يغيب عن تفكيرى نقص كهذا فى وضع خطة عمل، ولكنك ستوافق معى على أن تلك غالبا هى طريقة سير الأمور التى يوليها المرء تفكيرا دائما على مدى فترة من الزمن، فالمرء لا يُوَاجَهُ بالحقيقة إلا عندما تجىء مصادفة بسبب حدث خارجى.

هذا ما حدث مثلا عندما وصلتنى رسالة «مس كنتون»، فبالإضافة، إلى ما فيها، كانت تنطوى أيضا على حنين واضح «لدارلنجتون هول»، وتلميح ملحوظ عن رغبتها فى العودة إلى هنا، وهذا ما جعلنى أعيد التفكير فى خطة العاملين من جديد.

حينذاك فقط، بدا واضحا لى أن هناك دورا يمكن أن يقوم به فرد آخر فى الفريق، وكان ذلك بالفعل هو النقص الذى سَبَّبَ كل المتاعب التى حدثت مؤخرا. وكلما أمعنت التفكير فى ذلك، أكتشف أن «مس كنتون»، بما تكنه من حب كبير لهذا القصر العريق، وبما تتمتع به من خبرة نموذجية ـ وهذا أمر من الصعب أن تجده هذه الأيام ـ هى العامل المطلوب الذى يمكننى من وضع خطة عمل مرضية لـ «دارلنجتون هول».

وبعد أن قمت بتحليل هذا الموقف، وجدت نفسى بسرعة أعيد النظر فى العرض الذى قدمه لى «مستر فاراداى» منذ أيام.

أدركت أن الرحلة المقترحة بالسيارة يمكن أن تكون مفيدة من الناحية المهنية، أى أننى يمكن أن أذهب إلى المناطق الريفية الغربية، وأمر فى طريقى على «مس كنتون» ، وأقف مباشرة على حقيقة رغبتها فى العودة للعمل هنا فى «دارلنجتون هول». ولابد أن أوضح أننى قمت بقراءة رسالة «مس كنتون» الأخيرة عدة مرات، وليس هناك أدنى احتمال أن تكون تلميحاتها بالرغبة فى العودة محض خيال.

لذلك كله، لم أتمكن على مدى عدة أيام من إثارة الموضوع مع «مستر فاراداى» مرة أخرى. كانت هناك جوانب كثيرة، رأيت من الضرورى أن أستوضحها لنفسى قبل المضى فى ذلك. تكاليف الرحلة مثلا. إذ بالرغم من العرض الكريم الذى قدمه إلى مستخدمى بتحمله ثمن الوقود، فإن رحلة كهذه لابد أن تتكلف كثيرا، إذا وضعنا فى الاعتبار الإقامة والطعام والوجبات السريعة فى الطريق، ناهيك عن ثمن ملابس ملائمة إن كان الأمر يستحق الإنفاق على مجموعة جديدة من الملابس . صحيح أن لدى عددا من الحلل الأنيقة التى تجمعت بمرور السنوات عن طريق «لورد دارلنجتون» نفسه وعن طريق ضيوف كثيرين نزلوا بهذا القصر وأعجبهم مستوى الخدمة هنا، لكن ربما قد يبدو معظم تلك الحلل رسميا جدا، أو قديما هذه الأيام. لدى بدلة حفلات أهداها إلىَّ فى عام ١٩٣١ أو ١٩٣٢ «سير إدوارد بلير»، كانت جديدة تماما فى ذلك الوقت كان وقياسها مناسبا، وهى قد تكون ملائمة بالنسبة للأمسيات الرسمية فى قاعات الاستقبال أو غرف الطعام فى أى نزل أقيم به. ما أحتاجه الآن هو الملابس التى تصلح للسفر، أى تلك التى يمكن أن أشاهد بها وأنا أقود السيارة، إلا إذا ارتديت البذلة التى أعطاها لى «لورد تشارلمرز» أثناء الحرب، وبالرغم من أنها قد تبدو صغيرة جدا على، إلا أنها يمكن أن تكون مناسبة جدا.

وفى النهاية، حسبت كل شىء فوجدت أن مدخراتى يمكن أن تفى بالتكاليف وتمكننى من شراء حلة جديدة. أرجو ألا تعتبرنى مغرورا بسبب هذا الأمر الأخير. فالمرء لايستطيع أن ينسى أنه ينتمى لـ «دارلنجتون هول» ولابد أن يكون دائما مرتديا لثياب تناسب وضعه. رحت أثناء التفكير فى ذلك أقلب صفحات أطلس الطرق وصفحات كتاب «مسز چان سيمونز»: «سحر انجلترا». وإذا لم يكن لديك فكرة عن كتب «مسز سيمونز» ـ وهى سلسلة من سبعة مجلدات ـ فأنا أوصيك بها، وبالرغم من أنها كتبت فى الثلاثينيات ، إلا أن ما جاء بها يظل حديثا ، وعلى أية حال أنا لا أعتقد أن القنابل الألمانية قد غيرت ريفنا كثيرا.

كانت «مسز سيمونز» فى الحقيقة من الزائرين الدائمين لهذا القصر قبل الحرب، كما كانت هى الأكثر شهرة بالنسبة للعاملين هنا، بسبب إعجابها الذى كانت تبديه دائما. فى تلك الأيام ، وبسبب إعجابى بها أيضا، أصبحت مهتما بكتبها كلما وجدت الفرصة لذلك، وأتذكر أننى بعد مغادرة «مس كنتون» إلى «كورنوول» فى عام ١٩٣٦، وهو جزء من البلاد لم يحدث أن زرته من قبل، أتذكر أننى تصفحت الجزء الثالث من كتاب «مسز سيمونز»، ذلك الجزء الذى يصف للقارئ مباهج «ديڤون» و «كورنوول» كاملة وبالصور، بالإضافة إلى مجموعة من الاسكتشات التى رسمها فنانون لتلك الأماكن. هكذا، أصبح لدى درجة من الإدراك

والإحساس بنوعية وطبيعة المكان الذى ذهبت إليه «مس كنتون» لتعيش حياتها الزوجية. ولكن ذلك ، كما قلت، كان فى الثلاثينيات، أيام كان هناك إعجاب شديد بكتب «مسز سيمونز» فى مختلف القصور والبيوت العريقة فى البلاد.

لم أكن قد فتحت تلك الكتب من سنوات ، إلى أن قادتنى التطورات الأخيرة لأن أتناول من على رف المكتبة مجلد «ديفون وكورنوول» مرة أخرى. قرأت الوصف الرائع وتفحصت الصور البديعة، ولربما أدركت مدى تلهفى على فكرة القيام بتلك الرحلة بالسيارة حول ذلك الجزء نفسه من الريف. وفى آخر الأمر ، بدا أن ليس هناك ما يجب عمله سوى إثارة الموضوع مرة أخرى مع «مستر فاراداى» . بالطبع، كان من المحتمل أن يكون اقتراح الأسبوعين الماضيين مجرد نزوة وليدة اللحظة، وأنه قد لا يوافق على الفكرة أو ربما يكون قد صرف النظر عنها . ولكن من ملاحظتى للسيد «فاراداى» على مدى الأشهر الأخيرة ، اكتشفت أنه ليس من ذلك النوع من الرجال أو أصحاب العمل المزعجين المتناقضين مع أنفسهم . لم يكن هناك أى سبب يجعلنى أتوقع أنه سيكون أقل حماسا عن ذى قبل بشأن الرحلة المقترحة، أى أنه لن يكرر عرضه بتحمل نفقات وقود السيارة، ولكننى فكرت جيدا فى اللحظة الأكثر مناسبة لإثارة الموضوع معه. وبالرغم من ثقتى فى أنه لن يغير موقفه ، إلا أنه

كان من المهم جدا ألا أقترب من الموضوع وهو مشغول البال أو مستغرقا فى أمر خاص. رفضه فى مثل تلك الظروف لن يكون معبرا عن مشاعره الحقيقية، ولكن تعليقه سيعنى أننى لن أستطيع أن أتكلم فيه مرة أخرى، كان من الواضح إذن بالنسبة لى، أن علىّ اختيار اللحظة المناسبة بكل حكمة.

وفى النهاية وجدت أن أنسب لحظة فى اليوم، هى أثناء تقديم شاى بعد الظهيرة فى غرفة الاستقبال. فى هذا الوقت، يكون «مستر فاراداى» قد عاد لتوه من نزهته القصيرة فى التلال، ولايكون مستغرقا فى قراءة أو كتابة ـ كما هو شأنه فى المساء ـ الحقيقة أننى عندما آتيه بالشاى بعد الظهيرة، أجده يغلق الكتاب أو الجريدة التى فى يده، ويقوم من مكانه ليتمطى أمام النافذة وكأنه يتوقع حديثا معى.

وكما توقعت ، يبدو أن اختيارى للتوقيت كان صائبا، أما سير الأمور فى الاتجاه الذى سارت فيه فذلك راجع لخطأ آخر فى التقدير بالنسبة لأمر آخر. أقصد أننى لم أراع جيدا أن «مستر فاراداى» لايفضل فى هذا الوقت من اليوم سوى الأحاديث الفكهة الخفيفة. ولأننى كنت أعرف أن تلك طبيعته، وأعرف ميله العام لأن يمزح معى فى مثل تلك الأوقات ، لذلك عندما جئت بالشاى بعد ظهيرة الأمس وجدت أنه من الحكمة ألا أذكر اسم «مس كنتون» بالمرة. ولكنك ربما تفهم أنه كان هناك ميل طبيعى من

جانبى وأنا أطلب معروفاً، أن ألمح إلى أن هناك دافعا مهنيا وراء ذلك الطلب . ولذلك، وأنا أشرح له سبب تفضيلى لزيارة المناطق الريفية الغربية فى رحلتى ، أخطأت وصرحت بأن مدبرة القصر السابقة تعيش فى تلك المنطقة، ولم أذكر له التفاصيل الخلابة فى كتاب «مسز سيمونز». أعتقد أننى كنت أريد أن أشرح لـ «مستر فاراداى» إمكانية اكتشاف خيار قد يكون هو الحل الأمثل لمشكلاتنا الصغيرة الحالية فى «دارلنجتون هول»، ولكنى لم أدرك أن ذلك ليس مناسبا إلا بعد أن ذكرت اسم «مس كنتون». لم أكن متأكدا من رغبة «مس كنتون» فى العودة للعمل هنا، ليس هذا فقط، بل إننى لم أكن قد ناقشت مع «مستر فاراداى» موضوع الاستعانة بعاملين إضافيين منذ ذلك اللقاء الأول بيننا قبل أكثر من عام. الاستمرار فى الإفصاح عن أفكارى بخصوص مستقبل «دارلنجتون هول» يمكن أن يكون وقاحة، على أقل تقدير.

أعتقد أننى توقفت فجأة، وبدا علىَّ الشعور بالحرج والارتباك. على أية حال، انتهز «مستر فاراداى» الفرصة وابتسم ابتسامة عريضة وهو يقول بترو: «يا عزيزى ستيفنس.... سيدة صديقة...! وفى مثل هذا العمر؟!»

كان ذلك موقفا محرجا بالنسبة لى. موقف، كان لايمكن أن يضع «لورد دارلنجتون» أحد مستخدميه فيه أبدا. فى ذلك الوقت ، لم أقصد

طبعا أن ألمح إلى شيء يمكن أن يقلل من قيمة «مستر فاراداى»، فهو بعد كل شيء رجل أمريكى وأسلوبه مختلف جدا . وليس هناك أى احتمال أنه يقصد أى ضرر، بيد أنك ، لابد ، مدرك كم كان الموقف مزعجا بالنسبة لى.

واصل «مستر فاراداى» كلامه: «لم أتخيل أبدا أنك زير نساء يا «مستر ستيفنس»، هذا على ما أعتقد يحفظ شباب الروح، ولكننى حقيقة لا أعرف إن كان من الصواب أن أساعدك على هذه اللقاءات الغرامية المريبة!».

شعرت ـ بالطبع ـ بالرغبة فى إنكار ذلك فورا وبوضوح، ولكننى أدركت أننى لو فعلت ذلك، فسوف أقع فى شرك «مستر فاراداى» ليصبح الموقف أكثر حرجا. وهكذا بقيت واقفا أمامه منتظرا أن يسمح لى بالقيام بتلك الرحلة بسيارته.

وبالرغم من شعورى بالحرج فى تلك اللحظات، إلا أننى لا أريد أن أبدو وكأننى ألوم «السيد فاراداى»، فالمؤكد أنه شخص طيب ولكنه كان يستمتع بذلك النوع من المزاح الذى يعتبرونه فى الولايات المتحدة ضربا من التفاهم الودى بين صاحب العمل ومستخدميه، ونوعا من التسلية! ما أريد أن أقوله هو أن ذلك النوع من المزاح من جانب مخدومى الجديد، كان هو الذى يميز علاقتنا على مدى تلك الأشهر، على أننى لابد من أن أعترف بأننى لا أستطيع أن أحدد درجة استجابتى

لذلك . مرة أو مرتين فى الأيام الأولى من عملى لديه، فاجأنى بأشياء يقولها دون توقع. سألته مرة إن كان الضيف الذى ننتظره قد يكون مصحوبا بزوجته فقال سيادته : «فليكن الله فى عوننا إن جاءت معه! ربما استطعت يا «مستر ستيفنس» أن تبعدها عنا .. ربما أمكنك أن تأخذها إلى أحد تلك الاسطبلات حول مزرعة مستر «مورجان» . استضفها هناك على القش... ربما كانت من النوع المناسب لك».

وقفت مذهولا لحظة أو لحظتين لا أعرف عم يتحدث... ثم أدركت بعد ذلك أنه كان نوعا من المزاح الذى يحب ، وحاولت أن ابتسم بالرغم من بقاء الحيرة أو آثار الصدمة على وجهى. فى الأيام التالية تعلمت ألا أدهش لمثل تلك التلميحات والتعليقات من سيادته، وأن أبتسم على النحو الصحيح كلما اكتشفت رنة المزاح فى صوته. وبالرغم من ذلك ، لم أكن متأكدا بالضبط من المطلوب منى أن أفعله فى مثل تلك الأحوال. ربما كان يتوقع أن أضحك من كل قلبى ، أو أن أبادله تلميحات وتعليقات من نفس النوع . وهذا الاحتمال الأخير هو الذى أقلقنى على مدى الأشهر الماضية، وهو الأمر الذى لم أتمكن من حسمه إلى الآن. ربما كانوا فى «أمريكا» يعتقدون أن قدرة الموظف على تبادل المزاح، ميزة ودليل كفاءة. والواقع أننى أتذكر «مستر سمپسون» صاحب فندق «بلومانز آرمز» الذى كان يقول إنه لو كان ساقيا أمريكيا فى حانة ، لما

تحدث معنا بذلك الأسلوب المهذب. كان سيمطرنا بملاحظاته الحادة عن مبـاذلنا وأخطائنا ويسـبنا وينادينا بالسكارى، وذلك لكى يؤدى الدور الذى يتوقعه منه زبائنه. وأتذكر أيضا «مستر راينى» الذى سافر إلى أمريكا خادما خاصا لـ «مستر رينالد موفيز» ،الذى كان يقول لنا إن سائق التاكسى فى «نيويورك» يخاطب الركاب بطريقة، لو حدثت فى لندن، لأدت إلى مشاجرة ، هذا إذا لم تؤد إلى اقتياد ذلك الشخص كالضفدعة إلى أقرب مخفر للشرطة. محتمل جدا ، إذن، أن يكون مخدومى ينتظر منى استجابة لمزاحه بطريقة مماثلة، وربما اعتبر فشلى فى ذلك نوعا من الإهمال. لابد أن أقول إن ذلك جعلنى قلقا، ومع ذلك لست متحمسا لهذا النوع من المزاح.

فى هذا الزمن المتقلب، يمكن أن يكيف المرء منا عمله ليقوم بأشياء ليست من صميم وظيفته... ولكن المزاح شىء آخر تماما. مثلا ... كيف يضمن المرء أن يكون مزاحه هو المتوقع بالفعل؟ لابد أن يتوقع المرء كارثة لكى يقتنع بعدم جدوى ذلك. إلا أننى استجمعت شجاعتى ذات مرة منذ وقت قريب، وحاولت أن أرد بشىء مناسب . كنت أقدم قهوة الصباح لـ «مستر فاراداى» فى غرفة الإفطار عندما قال :

«لا أعتقد يا «مستر ستيفنس» أنك كنت مصدر تلك الضوضاء الشبيهة بنعيق الغربان هذا الصباح».

فهمت أنه كان يشير إلى اثنين من الغجر كانا يسيران هذا الصباح في الشارع يجمعان الحديد الخردة ويناديان بطريقتهم المعتادة . في ذلك الصباح نفسه، كنت أعيد التفكير في المأزق الذي أنا فيه: هل عليّ أن أستجيب لمزاح مخدومي أم لا؟، وكنت أفكر: ماذا سيكون رأيه إن لم يجدني معه على نفس الموجة في مزاحه! فكرت في إجابة ذكية ، عبارة ليست مزعجة لا تثير غضبه إذا فشلت في تقدير الموقف. بعد لحظة أو لحظتين قلت : «ربما كانت أقرب إلى صوت السنونو منها إلى نعيق الغرباء يا سيدي ... هذا لو أخذنا بالاعتبار الطيور المهاجرة !»، قلت ذلك وتبعته بابتسامة هادئة.. مناسبة.. لكي أبين دون لبس أنني قد قلت نكتة أو دعابة. لم أكن أريد أن يكبح «مستر فاراداي» أي مزاح تلقائي قد يريده ، بسبب أي شبهة عدم احترام . فما كان من سيادته إلا أن نظر إليَّ ، وهو يقول : «عفوا يا «مستر ستيفنس»... ماذ قلت ؟» وبالطبع، أدركت حينذاك فقط أن دعابتي لن تصل، ولن تجد تذوقا ـ بسهولة ـ من شخص لايدرك أن الذين كانوا يمرون بالشارع جماعة من الغجر. لم أعرف كيف يمكن مواصلة الاستجابة لمزاحه، واكتشفت أنه قد يكون من الأفضل أن أكف عن ذلك، مدعيا أنني تذكرت فجأة شيئا لابد أن أفعله على وجه السرعة ، فاستأذنته. وتركته مشدوها مرتبكا.

كانت تلك إذن بداية غير مشجعة لما يمكن أن يكون واجبا جديدا

عليّ أن أؤديه، بداية غير مشجعة لدرجة تجعلنى أعترف بأننى لم أحاول الاستمرار أبعد من ذلك فى هذا المجال.

وفى الوقت نفسه لا يمكننى التخلص من الشعور بأن «مستر فاراداى» لم يكن راضيا عن استجابتى لمزاحه، أما مثابرته الأخيرة فربما كانت من ضمن أسلوبه الخاص لكى يحثنى على مبادلته نفس الروح. والحقيقة أننى منذ تلك المزحة الأولى عن الغجر، لم أستطع أن أفكر فى غيرها بسرعة.

مصاعب كهذه يمكن أن تشغل المرء هذه الأيام، حيث لم تعد وسيلة لتبادل الرأى والحوار مع زملاء محترفين، كما كان الأمر منذ زمن قريب. عندما كان الواحد منا يواجه مشكلات فى العمل، كان يجد الفرصة دائما ليناقشها مع زملاء مع من ذوى الرؤى الصائبة، الذين كانوا يحضرون مع مخدوميهم إلى هذا القصر.

وفى أيام «لورد دارلنجتون»، عندما كان كبار الزائرين يجيئون إلى هذا القصر، كان من الطبيعى أن ينمو التفاهم بيننا نحن العاملين هنا، وبين زملائنا الذين يجيئون معهم. فى تلك الأيام الحافلة، كان قاعة الخدم عندنا تشهد تجمعات أفضل المحترفين فى إنجلترا، الذين كانوا يتسامرون حول المدفأة حتى الهزيع الأخير من الليل. ودعنى أقول لك إنك لو كنت قد جئت إلى قاعة الخدم فى واحدة من تلك الأمسيات، لكان

من الممكن أن تستمع إلى سجال عن أهم القضايا التى تشغل بال مخدومينا، أو عن أشياء مهمة تظهر فى الصحف، وكنت ستستمع إلى محترفين مثلنا يناقشون مختلف جوانب المهنة. لم تكن ثرثرة فارغة أبدا. كانت هناك بطبيعة الحال خلافات بيننا ولكن الجو بشكل عام كان يسوده الاحترام المتبادل.

ولربما استطعت أن أعطيك فكرة أفضل عن تلك الأمسيات، لو قلت إن الزائرين الدائمين كان من بينهم شخصيات مثل «مستر جراهام هارى» رئيس الخدم فى بلاط «سير چيمس» ، و «مستر چون دونالدز»، الخادم الخاص بـ «مستر سيدنى دكنسون». وربما كان هناك أيضا من هم أقل منهم تميزا. ولكن حضورهم الحيوى كان كفيلا بأن يجعل أى زيارة، زيارة مهمة. على سبيل المثال كان يأتى مثلا «مستر ولكنسون» الخادم الخاص لـ «مستر چون كامبل» بقدرته على تقليد المشاهير ، ومستر «ديڤيدسون» من قصر «إيسترلى» بحماسه الذى يصل أحيانا لدرجة الإزعاج عند مناقشة أية مسألة، وفى الوقت نفسه تعاطفه مع الجميع فى ظروف أخرى، و«مستر هيرمان» خادم «مستر چون هنرى بيترز» الذى لايصبر أحد على الاستماع لآرائه المتطرفة. وبالرغم من ذلك لا يمكن أن تكرهه وذلك بسبب ضحكته التى تجعل جسده كله يهتز، وافتتانه بـ «يوركشير» الذى لايخفيه.

فى تلك الأيام كان يسود جو من الصداقة الحميمة بين أبناء مهنتنا ؛ مهما كانت الاختلافات فى أساليب العمل. كنا كلنا من قماشة واحدة إن جاز التعبير. الأمر اليوم مختلف ، فلو حدث مثلا فى مناسبة نادرة أن اصطحب أحد الضيوف الكبار خادمه معه إلى هنا، فإنه يبدو مثل الغريب الذى ليس لديه ما يقوله عن أى شىء غير اتحاد الكرة، ومنهم من لا يحبذ قضاء المساء بجوار المدفأة فى قاعة الخدم ويفضل الذهاب إلى الفنادق القريبة من أجل الشراب، وقد ذكرت لك منذ قليل اسم مستر «جراهام» الخادم الخاص فى بلاط «سير چيمس».

منذ شهرين تقريبا، سعدت بمعرفة أن «سيرچيمس» كان سيأتى لزيارة «قصر دارلنجتون هول». كنت أنتظر تلك الزيارة بفارغ الصبر، وذلك ليس لأن الزائرين منذ أيام «لورد دارلنجتون» قد أصبحوا نادرين، ـ فدائرة «مستر فاراداى» مختلفة عن دائرة فخامته ـ وإنما لأننى توقعت أن يأتى «مستر جراهام» بصحبة «سير چيمس»، ويمكن أن أعرف رأيه فى مسألة المزاح تلك. ولكنها كانت مفاجأة سيئة لى، وخيبة أمل كبيرة أن أكتشف قبل الزيارة بيوم واحد أن «سير چيمس» كان سيأتى بمفرده. وفوق ذلك، علمت أثناء الزيارة أن «مستر جراهام» قد ترك خدمة «سير چيمس»، وأن الأخير لم يعد لديه موظفون يعملون بشكل دائم وددت أن أعرف ما حدث لـ «مستر جراهام»، وبالرغم من عدم

وجود معرفة بيننا إلا أننا كنا نشعر بأننا منسجمين معا عندما تجمعنا الظروف. للأسف، لم تتح لى فرصة لمعرفة ماحدث له، ولابد أن أقول إن أملى قد خاب ، فقد كنت أود أن أناقش معه مسألة المزاح.

على أية حال، دعنى أعود إلى الخيط الأصلى. كنت مضطرا كما قلت لأن أقضى بعض دقائق غير مريحة، وأنا واقف بعد ظهيرة الأمس فى غرفة الاستقبال. بينما كان «مستر فاراداى» مستمرا فى مزاحه. كان ردّى ـ كالعادة ـ هو الابتسام، وكان ذلك يكفى على أية حال للدلالة على أننى كنت أشارك على نحو ما بنفس الروح المرحة التى كان يتحدث بها، وانتظرت لأرى إن كان مخدومى سيأذن لى بالقيام بالرحلة أم لا.

وكما توقعت ، لم يتأخر إذنه طويلا، بل إنه كان كريما وتذكر عرضه السابق بتحمل ثمن الوقود.

لذا لم يكن هناك سبب يجعلنى لا أقوم بهذه الرحلة إلى الريف الغربى ، وكان لابد إذن من أن أكتب إلى «مس كنتون» لكى أخبرها بأننى سأمر عليها، كما كان يجب أن أفكر فى موضوع الملابس.

كانت هناك أمور أخرى تتعلق بالعمل فى القصر لابد من اتخاذ قرار بشأنها، ولكن أهم شىء هو أنه لم يكن هناك أى سبب جوهرى يمنعنى من القيام بهذه الرحلة.

اليوم الأول ـ مساء
«ساليسبرى»

هأنذا أجد نفسى هنا هذه الليلة، هنا فى أحد بيوت الضيافة فى «ساليسبرى». انقضى اليوم الأول من رحلتى، وأقول إننى ـ بشكل عام ـ راض تماما. بَدَأت الرحلة هذا الصباح متأخرة ساعة عما قدرت، بالرغم من أننى كنت قد انتهيت من حزم متاعى ووضعت كل احتياجاتى الضرورية بالسيارة قبل الساعة الثامنة. وحيث إن «مسز كليمنتس» والفتاتين كن قد خرجن أيضا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، فقد كنت أشعر بأننى بمجرد رحيلى، سيصبح قصر «دارلنجتون» خاليا لأول مرة فى هذا القرن، وربما منذ تشييده. كان ذلك شعورا غريبا، وربما يفسر سبب تأخرى فى المغادرة لأننى رحت أجول فى أرجاء القصر عدة مرات ، لكى أتأكد للمرة الأخيرة من أن كل شىء كان فى مكانه. من الصعب بالفعل أن أصف مشاعرى عندما بدأت رحلتى.

وأنا أقود السيارة فى العشرين دقيقة الأولى لم أكن أشعر بأى إثارة ولم أكن أتوقع شيئا معينا. وكان سبب ذلك بالتأكيد هو أننى كنت أجد نفسى فى محيط ليس لدى إلمام به كلما حملتنى السيارة بعيدا. لم أسافر قبل ذلك كثيرا؛ لأننى كنت مقيدا بمسئولياتى، فى القصر ولكن هذا لايمنع من القول بأننى مع الوقت قمت برحلات قصيرة لسبب مهنى أو لآخر. وأنا أواصل قيادة السيارة باتجاه ضوء الشمس نحو حدود «بركشاير» كانت المناظر الريفية تبدو مألوفة لى شيئا فشيئا، ولكن هذه

الألفة تبددت فى النهاية فأدركت أننى قد تخطيت كل الحدود السابقة. كنت قد استمعت قبل ذلك إلى بعض الذين يصفون لحظة بدء الإبحار على سفينة عندما يختفى منظر اليابسة من أمامهم. وأعتقد أن تجربة القلق الممزوج بالبهجة والانتعاش فى مثل تلك اللحظات كانت مشابهة لمشاعرى فى السيارة الفورد، والأشياء من حولى تبدو غريبة غير مألوفة. حدث ذلك بمجرد أن انعطفت بالسيارة لأجد نفسى فى طريق ملتفة حول حافة الجبل. كنت أستشعر وجود منحدر عميق عن يسارى بالرغم من عدم رؤيتى له بسبب الأشجار الصغيرة والنباتات التى تغطى جانب الطريق. انتابنى شعور بأننى تركت قصر «دارلنجتون» ورائى، ولابد من أن أعترف بأننى انزعجت بعض الشىء، ثم ازداد هذا الشعور عمقا لتصورى أننى لست على الطريق الصحيحة، وأننى مسرع فى الاتجاه الخطأ نحو مناطق برية. كان ذلك شعورا لحظيا ولكنه جعلنى أهدئ من سرعتى ، وحتى عندما تأكد لى أنها الطريق الصحيحة، كنت مضطرا لإيقاف السيارة لكى أعيد تقييم الموقف.

قررت النزول من السيارة والسير على قدمى لمسافة قصيرة، وعندما فعلت ذلك صار لدى شعور أشد من ذى قبل بأننى جاثم فوق جانب التل .

على أحد جانبى الطريق أدغال وشجيرات على أرض شديدة

الانحدا، بينما أستطيع أن أرى من الجانب الآخر، الريف البعيد من خلال ورق الشجر الكثيف.

ويبدو أننى سرت بعض الوقت بحذاء جانب الطريق وأنا أدقق النظر من خلال ورق الشجر والعشب أحاول أن أرى جيدا، عندما سمعت صوتا خلفى. كنت حتى تلك اللحظة أعتقد بأننى هنا بمفردى فاستدرت مدهوشا. على مسافة قريبة، وفى الجانب العكسى الصاعد من الطريق رأيت ممر مشاة يتجه صعودا ويختفى بين الأدغال. وعلى صخرة كبيرة فى تلك البقعة، رأيت شخصا ناحلا أشيب الشعر يضع على رأسه قبعة من القماش ويدخن الغليون. نادانى، وبالرغم من أننى لم أتبين كلماته جيدا، أبصرته يومئ لى لكى أذهب إليه. ترددت لحظة، تصورته أحد المتشردين ولكننى أدركت أنه ليس سوى أحد سكان المنطقة يستمتع بالهواء المنعش وشمس الصيف، ولم أجد سببا يمنعنى من الاستجابة لدعوته. كان يقول و أنا أقترب منه: أتساءل فقط يا سيدى عن لياقة ساقيك!

«عفوا ! ماذا قلت؟»

أشار الرجل نحو الممر وقال: «لابد من أن تكون ساقاك قويتين ورئتاك جيدتين لكى تصعد إلى هناك، ولأننى لست هكذا، تجدنى جالسا هنا، ولو أن حالى أفضل لكنت هناك.

المكان هناك جميل... يوجد مقعد.. وكل شىء... لن تجد منظرا

أجمل من ذلك فى انجلترا كلها».

قلت : «إن كان ما تقوله صحيحا، يصبح من الأفضل إذن أن أبقى هنا. لقد قمت برحلة بالسيارة أتمنى أن أرى أثناءها مناظر كثيرة جميلة. فإذا كان أجمل المناظر قد جاء قبل أن أبدأ رحلتى ، فذلك شىء يجىء قبل أوانه...» ويبدو أن الرجل لم يفهمنى لأنه أجابنى قائلا:

«لن ترى منظرا أجمل من ذلك فى انجلترا كلها، ولكننى أقول لك.. لابد من أن تكون لك ساقان قويتان ورئتان جيدتان»، ثم أضاف «تبدو فى حالة جيدة بالنسبة لعمرك ياسيدى ... وأظنك يمكن أن تصعد دون متاعب... أقصد أنك يمكن أن تقضى هناك يوما طيبا»

نظرت بسرعة إلى الممر الذى كان يبدو صاعدا ووعرا.

«أقولها لك يا سيدى، ستندم إن لم تصعد إلى هناك. ولا أحد يعرف! ربما بعد عامين يكون الوقت قد مضى.»

ثم ضحك بخشونة... «من الأفضل أن تصعد وأنت قادر على ذلك... اصعد قبل فوات الأوان!»

يبدو لى الآن أن الرجل كان يحاول الاستظراف، أو لعله كان يمزح! وربما كان ذلك هو الذى دفعنى لأن أثبت له أن غمزه كان ساذجا، ولذا صعدت إلى الممر. على أية حال، أنا سعيد لأننى فعلت ذلك. كانت مسيرة شاقة بالتأكيد ـ بالرغم من أنها لم تسبب لى أية متاعب حقيقية

ـ فقد كان الممر يصعد متعرجا مسافة مائة ياردة تقريبا. بعد ذلك وجدت نفسي في بقعة صغيرة خالية، من المؤكد أنها كانت تلك المنطقة التي يقصدها الرجل. وجدت أمامي مقعدا، والمنظر بالفعل جميل جدا من هنا حيث يبدو الريف ممتدا على مرمى البصر من جميع الجهات.

رأيت أمامي حقلا وراء حقل، والأرض تصعد وتهبط بنعومة وانسياب، والمساحات المزروعة مسيجة بالأشجار والأعشاب. على البعد أرى أجساما صغيرة يبدو أنها أغنام وعلى يميني أرى في الأفق ما يشبه برج كنيسة مربعا. كان شعورا جميلا ـ في الواقع ـ أن يكون المرء هنا وسط بشائر الصيف والنسيم العليل يداعب وجهه. وأعتقد أنني حينذاك، وأنا أشاهد هذا المنظر الساحر، بدأت أستحضر الحالة الذهنية المناسبة للرحلة التي تنتظرني. شعرت بأول موجة من التوقعات الصحيحة والجيدة للتجارب الجديدة المثيرة والكثيرة، التي أعرف أن الأيام الماضية كانت تحملها لي. حينذاك أيضا شعرت بتحرر جديد من الخوف من أي شيء ما يتعلق بالواجب المهني الذي ألزمت نفسي به أثناء هذه الرحلة، أقصد ... يتعلق بـ «مس كنتون» وبمشكلة طاقم العاملين الحالية.

هذا ما كان في الصباح. أما في المساء، فهأنذا مستقر في بيت الضيافة المريح وفي شارع لايبعد كثيرا عن وسط «ساليسبري»، مكان متواضع ولكنه نظيف ويفي بكل احتياجاتي. صاحبته سيدة في الأربعين

تقريبا ويبدو أنها تظنني نزيلا مهما بسبب سيارة «مستر فاراداى» والبدلة الفاخرة التى أرتديها.

بعد ظهيرة هذا اليوم ـ وصلت إلى «ساليسبرى» فى الثالثة والنصف تقريبا ـ عندما سجلت لديها أن عنوانى الدائم هو «قصر دارلنجتون» رأيتها تنظر إلى مذعورة، يبدو أنها تصورتنى شخصا اعتاد النزول فى أماكن مثل «ريتز» أو «دورشستر» وأننى سوف أغادر هذا النزل الصغير بمجرد أن أرى غرفتى. أبلغتنى أن هناك غرفة مزدوجة تطل على الواجهة، وأنها تحت أمرى وبسعر الغرفة المفردة.

واصطحبتنى إلى الغرفة التى كان يغمرها ضوء الشمس فى ذلك الوقت من النهار ويلمع فوق ورق الحائط المزركش بالزهور. سريران صغيران ونافذتان متوسطتا الحجم تطلان على الشارع. سألت عن الحمام ، فقالت صاحبة البيت إنه أمام باب غرفتى مباشرة، إلا أنه لن يكون هناك ماء ساخن قبل العشاء. طلبت أن تحضر لى إبريقا من الشاى وبعد أن انصرفت رحت استكشف الغرفة.

الأسرَّة نظيفة جدا ومرتبة، وحوض الغسيل الموجود فى الركن نظيف جدا. نظرت من النافذة فرأيت فى الجانب المقابل من الشارع مخبزا يعرض مجموعة من الفطائر وصيدلية ومحل حلاقة. وعلى مسافة ما حيث يمتد الشارع، يبدو جسر مقنطر، ومنطقة أكثر ريفية. غسلت

وجهى ويدى بالماء البارد على الحوض، وجلست على كرسى خشبى بالقرب من النافذتين فى انتظار الشاى.

أعتقد أننا كنا بعد الرابعة بقليل عندما تركت بيت الضيافة، وخرجت إلى شوارع «ساليسبرى». الطبيعة المنعشة والجو المفتوح هنا فى المدينة يعطيك إحساسا بالاتساع، والشعور بالحرية، وكنت أجد متعة فى قضاء الساعات سائرا فى ضوء الشمس الدافئ. وإلى جانب اكتشاف أنها مدينة جميلة وساحرة، كنت أجد نفسى أكثر من مرة أمام صفوف رائعة من المنازل القديمة ذات الواجهات الخشبية، أو أعبر جسرا حجريا صغيرا فوق إحدى القنوات التى تنساب فى المدينة. ولم أغفل عن زيارة الكاتدرائية الرائعة التى امتدحتها كثيرا «مس سيمونز» فى كتابها. كان من الصعب أن أحدد مكان ذلك البناء الرهيب الذى كان يظهر برجه الكبير لى أينما جُلت فى «ساليسبرى». والحقيقة أننى وأنا أشق طريقى عائدا إلى بيت الضيافة هذا المساء، كنت أكرر النظر خلفى، وفى كل مرة كنت أرى الشمس وهى تغطس وراء ذلك البرج المهيب.

إلا أننى هذه الليلة ، وفى هدوء هذه الغرفة، أجد أن ما تبقى معى من اليوم الأول فى هذه الرحلة، ليس كاتدرائية «ساليسبرى»، ولا أى منظر جميل أخر من مناظر المدينة، ما تبقى معى هو ذلك المنظر البديع

منظر الريف الإنجليزى الممتد الذى طالعنى هذا الصباح . والآن أصبحت مستعدا لأن أصدق أن بلادا أخرى يمكن أن تقدم مناظر جميلة أخرى. كنت قد شاهدت فى الموسوعات، وفى مجلة «ناشنال جيوجرافيك» صورا أخَّاذة لأماكن من أربعة أركان المعمورة، رأيت صورا بديعة لوديان وشلالات وجبال. لم يحالفنى الحظ لكى أراها رأى العين إلا أننى بالرغم من ذلك أستطيع أن أقول – وبثقة – إن الريف الإنجليزى بجماله مثل الذى رأيت هذا الصباح، ينفرد بصفات لاتتوفر فى أى مناظر طبيعية أخرى فى أى مكان من العالم . وهى فى رأيى صفة تميز الطبيعة الإنجليزية فى نظر أى مراقب موضوعى، صفة تلخصها كلمة «العظمة» . لأننى – وبحق – عندما وقفت على تلك الربوة هذا الصباح ونظرت إلى الأرض المنبسطة أمامى، انتابنى ذلك الشعور النادر الذى لايخطئ، شعور بأن المرء فى حضرة العظمة. نحن نسمى بلادنا هذه بريطانيا العظمى، وربما كان هناك من يظن أن ذلك مبالغة وعدم تواضع . إلا أننى سأقول بكل جرأة إن المنظر الطبيعى فى ريفنا يبرر وحده استخدام هذه الصفة الشامخة. لكن، ماهى تلك العظمة بالضبط؟ وفيم توجد؟ أثق بأن إجابة هذا السؤال تحتاج إلى عقل أكثر حكمة من عقلى، ولكننى إذا اضطررت للكلام أقول إنها وجود المشهدية الواضحة، أو الدراما التى تعطى جمال أرضنا ميزة وتفردا . وهناك

شيء آخر وثيق الصلة بالموضوع، وهو هدوء ذلك الجمال وتحفظه. كأن الأرض تعرف جمالها الخاص، وتشعر بعظمتها الخاصة، ولا تجد حاجة لأن تظهرها. ولو قارنا مناظرنا بمناظر أخرى فى أماكن من أفريقيا وأمريكا – وهى لاشك مثيرة أيضا – فإن المشاهد أو المراقب الموضوعى سيجد الأماكن الأخرى أقل قيمة ومستوى وذلك بسبب وضوحها الفج والمباشر. كان ذلك له صلة بموضوع أثار جدلا كبيرا فى مهنتنا على سنوات:

ما هو رئيس الخدم «العظيم»؟ أتذكر أننا كنا نجلس حول المدفأة فى قاعة الخدم ونحن نتناقش حول ذلك بالساعات فى نهاية يوم العمل.

لاحظ أننى أقول «ماهو» وليس «من هو» رئيس الخدم العظيم، إذ لم يكن هناك فى واقع الأمر جدل كبير حول هوية الرجال الذين وضعوا تلك المقاييس فى جيلنا. أقصد أشخاصا مثل «مستر مارشال» من قصر «تشارل ڤيل» أو «مستر لين» من «برايدوود» . لو كان الحظ قد أسعدك والتقيت بأمثال أولئك الرجال لعرفت ما يتمتعون به من صفات وهى تلك التى أقصدها، ولكنك بلاشك سوف تفهم قصدى لو أننى قلت : إنه ليس من السهل أبدا تحديد تلك الصفات بالضبط.

وحيث إننى أفكر فى هذا الموضوع الآن، لابد من أن أقول : إنه كان هناك أحيانا اختلاف بسيط حول تعريف رئيس الخدم «العظيم» بين

من يعـرفـون تلك الأمـور. وبالطبع ، فـإن قـاعـة الخـدم فى «قـصـر دارلنجتون»، مثل أى قاعة خدم فى أى مكان آخر، كانت تستقبل خدما وعاملين من مستويات مختلفة فى الذكاء والإدراك، وأتذكر كيف كنت أعض شفتى ـ مرارا ـ عندما كان أحد الذين يعملون تحت إشرافى ـ ويؤسفنى أن أقول ذلك ـ يمتدح بإعجاب شديد رؤساء خدم مثل «مستر چاك نيبرز» مثلا. أنا لا أحمل أى ضغينة لـ «مستر چاك نيبرز»، الذى يؤسفنى أنه مات فى الحرب، ولكننى أذكره هنا لأنه حالة نموذجية. على مدى عامين أو ثلاثة فى منتصف الثلاثينيات، كان اسم «مستر نيبرز» يسيطر على المناقشات فى قاعات الخدم فى البلاد . وأقول إن كثيرا من العاملين الزائرين بقاعة «دارلنجتون» كانوا يجيئون بأحدث حكايات «مستر نيبرز» لدرجة أننى وأمثال «مستر جراهام» كان علينا أن نشارك فى تجربة الاستماع المحبطة للنوادر التى تروى عنه. والأكثر إحباطا هو أننا كان علينا أن نرى الخدم يهزون رؤوسهم بعد كل رواية عنه وهم يقولون... «نعم! «مستر نيبرز» هو الأفضل!»

أنا الآن ليس لدى شك فى أن «مستر نيبرز» كان يمتلك مهارات تنظيمية جيدة . فقد قام ـ فعلا ـ بتنظيم عدد من المناسبات وأدارها بأسلوب رائع، ولكنه لم يَرْقَ أبدا فى أى مرحلة إلى وضعية رئيس الخدم العظيم . كان يمكن أن أقول ذلك، وهو فى أوج شهرته، كما كنت أيضا

أتوقع سقوطه بعد سنوات قليلة. لقد سمعت كثيرا أسماء رؤساء خدم يجرى ذكرهم كأعظم أبناء جيلهم ، ثم يتضح بعد سنوات قليلة أنهم لاشيء من ذلك بالمرة. المستخدمون أنفسهم الذين كالوا لهم المديح، ينشغلون بمديح آخرين ، الأمر الذى يجعلك تتوقف متسائلا عن قدرة أولئك على إصدار الأحكام. موضوع هذا النوع من الحديث فى قاعات الخدم ، هو دائما رئيس خدم ما، يكون قد برز فى القيام بتنظيم مناسبتين أو ثلاث فى قصر أو بيت عريق. بعد ذلك سرعان ما تبدأ الثرثرة فى قاعات الخدم فى أنحاء البلاد عن الشخصيات المهمة التى تحاول الاقتراب منه والقصور والفنادق التى تتنافس عليه بأجر مرتفع. ولكن ماذا حدث قبل سنوات قليلة؟ هذا الشخص القوى نفسه ربما كان مسئولا عن خطأ فادح، وربما يكون قد فقد عطف ورضا مخدوميه فيترك المكان الذى حقق فيه شهرته ويدخل عالم النسيان فلا يسمع أحد عنه شيئا بعد ذلك.

وفى الوقت نفسه يكون هواة الثرثرة قد وجدوا قادما جديدا يتحمسون له. لقد اكتشفت أن مساعدى الخدم هم دائما الأسوأ والأكثر عدوانية بتطلعهم المتسرع لمنصب «رئيس خدم» ، يصممون على أن هذا الشخص أو ذاك هو الجدير بالمحاكاة، أو يرددون دون وعى مايقوله شخص مهم عن الأمور المهنية. على أننى لابد أن أضيف أن

هناك مساعدين كثيرين لا يفكرون فى الانسياق خلف تلك الحماقات، وأنهم محترفون على مستوى جيد. وعندما كان يجتمع شخصان أو ثلاثة فى قاعة الخدم عندنا ــ وأقصد أشخاصا من حجم «مستر جراهام» الذى فقدت صلتى به بكل أسف ــ كان يدور بينهم نقاش ذكى ومثير حول كل جوانب المهنة. إن تلك الأمسيات من أفضل ما بقى لدى من ذكريات عن تلك الأيام.

لكن، دعنى أعود للموضوع الأصلى المهم، ذلك الموضوع الذى كنا نجد متعة كبيرة فى مناقشته عندما لايكون هناك أحد من هواة الثرثرة الذين لا يقدرون المهنة حق قدرها، أقصد موضوع «ماهو رئيس الخدم العظيم؟»

على قدر ما لدى من معلومات ، وبالرغم من كل الكلام الذى دار على مدى السنوات، لم يكن هناك سوى محاولات قليلة داخل المهنة لوضع إجابة رسمية. والبادرة التى تحضرنى فى هذا المجال ، هى محاولة «جمعية هايز» وضع معايير للعضوية . ربما لا يكون لديك فكرة عن «جمعية هايز» هذه؛ لأن قلة هى التى تتكلم عنها هذه الأيام . لكن تلك الجمعية كان لها نفوذ كبير فى العشرينيات والثلاثينيات فى «لندن» وفى كثير من المناطق، والحقيقة أن كثيرين كانوا يشعرون أن نفوذها قد اتسع أكثر من اللازم، ولذلك لم يعتبروا إغلاق أبوابها أمرا سيئا، حدث

ذلك على ما أظن فى عام ١٩٣٢ أو ١٩٣٣.

«جمعية هايز» كانت تزعم أنها لاتقبل سوى رؤساء الخدم من المرتبة الأولى. أما معظم الهيبة والقوة التى كانت لها فكانت بسبب كونها على خلاف كثير من الهيئات التى نشأت وانتهت ، استطاعت أن تقصر عضويتها على عدد قليل ، مما أعطى ذلك الزعم قدرا من المصداقية. يقال إن عدد الأعضاء لم يزد فى أى وقت عن ثلاثين بل إنه كان فى معظم الأحيان حوالى تسعة أو عشرة. هذا، إلى جانب أن ظهورها بمظهر السرية، أعطاها كثيرا من الغموض لفترة مما يؤكد على أن الآراء التى كانت تصدر عنها من وقت لآخر، والخاصة بالأمور المهنية كانت تستقبل كأنها وصايا منحوتة على ألواح من الحجر.

ولكن أحد الأمور التى قاومت الجمعية البت فيها لبعض الوقت، كان معيار العضوية، بيد أن الضغوط عليها تزايدت لكى تعلن موقفها، واستجابة لسلسلة من الرسائل فى إحدى الصحف اعترفت الجمعية بأن أحد شروط العضوية هو أن يكون المتقدم لها يعمل فى قصر أو بيت عريق وأضافت «رغم أن ذلك فقط لا يكفى للوفاء بالشروط»، ثم أوضحوا أن الجمعية لاتعتبر قصور رجال الأعمال أو الأغنياء الجدد ـ محدثى الثروة ـ من البيوت العريقة المحترمة، وأنا أرى أن هذا الضرب من التفكير ـ والذى عفا عليه الزمن ـ قد قلل من قيمة أى سلطة جادة يمكن

أن تقوم بها الجمعية للتحكيم بشأن مستويات المهنة. واستجابة لرسائل أخرى من إحدى المجلات، بررت الجمعية موقفها قائلة: إنها في الوقت الذى تقبل فيه آراء بعض المراسلين بأن قصور رجال الأعمال تضم أحيانا رؤساء خدم من النوعية الممتازة، فإن الافتراض كان يجب أن يكون أن البيوت العريقة يجب ألا تحجم طويلا عن طلب خدمات أمثال أولئك الأشخاص . وقالت الجمعية : «إن المرء لابد من أن يسترشد بأحكام علية القوم من السيدات والسادة وإلا فإننا قد نتبع أساليب روسيا البلشفية».

وقد أثار ذلك جدلا طويلا وتواصل تدفق الرسائل مطالبة الجمعية بإعلان شروطها الكاملة للعضوية. وفى النهاية، أعلنت الجمعية أن أهم الشروط التى يجب توفرها فى المتقدم لعضويتها ـ وأنا أحاول هنا أن أتذكر بدقة ـ هو أن يكون لديه شعور تام بالكرامة لأنه يعمل فى هذه المهنة. وبدون ذلك الشعور فإنه لن يكون مستوفيا للشروط مهما كان إنجازه.

وبالرغم من عدم حماسى لجمعية «هايز» إلا أننى أعتقد أن هذا الإعلان تحديدا كان يعتمد ـ على الأقل ـ على حقيقة مهمة. فنحن إذا نظرنا إلى أولئك الأفراد الذين نتفق على أنهم رؤساء خدم «عظام» و إذا نظرنا مثلا إلى «مستر مارشال» أو «مستر لين» لوجدنا أن ما يميزهما

عن الآخرين الذين لايملكون سوى الكفاءة، هو أن «مستر مارشال» و «مستر لين» لديهما ذلك الشيء المطلوب... «الكرامة».

وهذا بالتأكيد يستدعي سؤالا آخر: مِمَّ تتكون هذه الكرامة؟ كانت تلك هي النقطة التي نتجادل حولها كثيرا أنا و «مستر جراهام». كان من رأيه دائما أن الكرامة شيء يشبه جمال المرأة، ولذا فإن تحليله لا يجدي . أما أنا فكان من رأيي أن تلك المقارنة تقلل من شأن كرامة أمثال «مستر مارشال» . بالإضافة إلى أن اعتراضي الرئيسي على تشبيه «مستر مارشال» هو أن تلك الكرامة شيء قد يمتلكه الفرد أو لايمتلكه نتيجة مصادفة من الطبيعة، وإذا كان الفرد لايمتلكها فإن السعي وراءها يكون بلا طائل، مثل المرأة التي تحاول أن تجعل نفسها جميلة بينما هي ليست كذلك.

والآن ، إذا كنت أقبل القول بأن معظم رؤساء الخدم قد يكتشفون في النهاية أنهم يستطيعون ذلك، إلا أنني أعتقد جازما أن تلك الكرامة شيء يمكن أن يسعى المرء جاهدا لاكتسابه من خلال عمله. أولئك الكبار الذين يتمتعون بها مثل «مستر مارشال»، أنا واثق من أنهم قد حققوها عن طريق التدريب الذاتي على مدى السنين، ومن التجربة والخبرة المكتسبة. وأرى أن قبول موقف مثل موقف «مستر جراهام» يعتبر هزيمة، من المنظور المهني. على أية حال، بالرغم من كل تشكك

«مستر جراهام»، وأستطيع أن أتذكر كم كنا نقضى معا الأمسيات الطويلة ونحن نحاول أن نضع أصابعنا على دستور تلك الكرامة. لم نصل إلى شيء محدد، ولكننى أستطيع أن أقول إننى ـ من جانبى ـ قد كونت بعض الأفكار الثابتة الخاصة بى فى هذا الشأن أثناء تلك المناقشات، وإن تلك الأفكار مازالت هى التى أؤمن بها إلى اليوم، وأود هنا أن أقول ما هى تلك «الكرامة» كما أعتقد.

أظنك لن تختلف معى إذا كنت أعتبر «مستر مارشال» من قصر «شارل ڤيل» و«مستر لين» من قصر «برايدوود» أعظم رؤساء الخدمْ فى الفترة الأخيرة. وربما تعتبر «مستر هندرسن» من فندق «برانبرى كاسل» من العظماء أيضا. وقد تعتبرنى منحازا إن قلت إن أبى شخصيا يمكن أن يكون على نفس المستوى فى كثير من الأمور وإن عمله كان هو الشيء الذى كنت أتأمله دائما من أجل تحديد معنى «الكرامة». وأعتقد جازما أن أبى عندما كان فى أوج عطائه فى «لاڤنبراو هاوس» كان هو التجسيد الحى لتلك الكرامة. و أنا مدرك أن المرء إذا نظر إلى الأمر بموضوعية فلابد من أن يعترف بأن أبى أيضا كانت تنقصه صفات مميزة عديدة من التى قد يتوقعها المرء من رئيس خدم جيد عادة. صفات تضفى جاذبية على الشخصية مثل الحلوى والألوان التى نزين بها وجه الكعكة، ولكنها، على أية حال، ليست شيئا جوهريا.

أقصد أشياء مثل اللكنة السليمة وإجادة اللغة وبعض المعلومات العامة حول بعض الموضوعات مثل الصيد بالصقور... أشياء لم يكن أبى ليفاخر بها. بالإضافة إلى ذلك، يجب التذكر أن أبى كان رئيس خدم من جيل أقدم، بدأ المهنة عندما كانت تلك الصفات لاتعتبر ملائمة، ناهيك عن أن تكون مطلوبة فى رئيس للخدم. ويبدو أن الهوس بالفصاحة والمعلومات العامة أشياء جديدة ظهرت مع جيلنا، وربما بعد «مستر مارشال»، عندما بدأ أناس أقل منه مستوى يحاولون تقليده فاهتموا بالسطحىً على حساب الجوهرى. وفى رأيى أن جيلنا كان مشغولا جدا، وأكثر من اللازم بالشكليات، ويعلم الله مقدار ما ضاع من جهد فى التدريب على اللكنة وإتقان اللغة، وكم أنفقنا من وقت فى دراسة الموسوعات ودوائر المعارف وكتب «اختبر معلوماتك» بينما كان يجب أن نهتم بإجادة الأشياء الأساسية.

ورغم أننا لا ينبغى أن نحاول إنكار المسئولية التى تقع علينا بالكامل، إلاً أنه لابد من أن نقول إن هناك عددا من العاملين الذين فعلوا الكثير لتشجيع تلك التوجهات. من أسف أننى أقول ذلك، ولكن يبدو أن هناك عددا من البيوتات العريقة والقصور، وبعضا من أكثرها عراقة، جنح فى الوقت الراهن إلى التنافس مع الآخرين، ومحاولة التباهى أمام الضيوف بإظهار تفوق رؤساء الخدم فى تلك الأمور التافهة. فقد سمعت

أكثر من مرة عن رئيس خدم كانوا يقدمونه على هيئة قرد يقوم بوظيفته في إحدى الحفلات في فندق ما. وقد شاهدت بنفسي حالة مؤسفة في فندق آخر عندما كانوا يدقون الجرس لرئيس الخدم ويوجهون إليه أسئلة عشوائية مثل : من الذي فاز بالسباق في «دربي» في عام كذا أو كذا، كما يفعل المرء مع جهاز الذاكرة في قاعة الموسيقى. أما والدي، فقد جاء ـ والحمد لله ـ من جيل متحرر من مثل هذه الارتباكات والتخبطات في قيمنا المهنية. وأستطيع القول إنه بالرغم من عدم إجادته للغة الإنجليزية، وبرغم معلوماته العامة المحدودة، إلاً أنه كان يعرف كل شيء عن إدارة القصر، بل إنه في شبابه استطاع أن يحقق تلك «الكرامة التي تتفق مع منصبه» كما وصفتها جمعية «هايز» . وإذا حاولت أن أصف لك ما جعله متميزا، فسيكون ذلك تعبيرا عن فهمي لمعنى تلك «الكرامة».

كان أبي مغرما بترديد قصة على مر السنين، وقد سمعته يرويها للضيوف وأنا طفل، وفيما بعد عندما بدأت عملي خادما تحت إشرافه. وأتذكر أنني سمعته يكررها عندما رجعت لزيارته أول مرة بعد أن شغلت وظيفة رئيس الخدم . كان يرويها لـ «مستر ومسز ماجردج» في بيتهما المتواضع في «أول شوت ـ أو كسفورد شاير» وواضح أن القصة كانت تعني الكثير بالنسبة له. لم يكن جيل والدي معتادا على المناقشة

والتحليل مثل جيلنا، وأعتقد أن روايته لتك القصة وتكرارها دليل على أنه كان يفكر دائما فى المهنة التى مارسها. هى إذن تقدم مفتاحا مهما لتفكيره. ويبدو أنها كانت قصة حقيقية عن رئيس خدم سافر مع مخدومه إلى الهند ليعمل هناك، واستطاع على مدى عدة سنوات أن يحافظ على نفس المستوى الذى كان له فى إنجلترا. وبعد ظهيرة أحد الأيام دخل رئيس الخدم هذا إلى غرفة الطعام لكى يتأكد أن كل شىء كان على أكمل وجه لتقديم العشاء، وهنا لاحظ أن هناك نمرا يتطلع إليه متأودا من تحت طاولة الطعام. ترك رئيس الخدم الغرفة مسرعا، لم ينس أن يغلق الباب وراءه وتقدم بهدوء إلى غرفة الاستقبال حيث كان مخدومه يتناول الشاى مع ضيوفه ثم لفت انتباه مخدومه بسعلة خفيفة وهمس فى أذنه «أسف ياسيدى، لكن هناك نمر فى غرفة الطعام. هل تسمح لى باستخدام البندقية؟»

وكما تقول الحكاية . بعد دقائق قليلة سمع الرجل وضيوفه ثلاث طلقات . وعندما ظهر رئيس الخدم بعد ذلك فى غرفة الطعام لكى يجدد أباريق الشاى، سأله مخدومه إن كان كل شىء على ما يرام وكانت إجابة رئيس الخدم : كل شىء على ما يرام، شكرا يا سيدى، والعشاء سوف يُقدم فى موعده ، كما يسرنى أن أقول إنه لن يكون هناك أى أثر لما حدث».

كان والدى يكرر العبارة الأخيرة «لن يكون هناك أى أثر لما حدث» ويهز رأسه فى إعجاب . لم يدَّع أنه كان يعرف اسم رئيس الخدم ذاك، ولا كان أحد يعرفه، ولكنه كان يجزم بأن الحدث وقع كما يرويه بالضبط.

على أية حال، ليس مهما جدا أن تكون القصة حقيقية، ولكن المهم بالطبع هو ما تكشفه القصة عن مُثُل والدى. وذلك لأننى عندما أنظر إلى أدائه فى عمله أستطيع أن أدرك أنه لابد من أن يكون قد حاول على مدى سنوات عمله أن يصبح ــ إلى حد ما ــ رئيس الخدم ذلك الذى تحكى عنه القصة. وأنا أعتقد أنه استطاع أن يحقق ذلك الطموح، وهو فى أوج نجاحه. وبالرغم من أننى متأكد من أنه لم يحدث أن واجه نمرا تحت الطاولة، إلا أننى عندما أفكر فى كل ما أعرف وما سمعت عنه، أجد أمثلة كثيرة أظهر فيها تلك الصفة التى كانت محل إعجابه فى قصة رئيس الخدم التى كان يرويها. مثال من تلك الأمثلة رواه لى شخص يدعى «سير ديڤيد تشارلز» من شركة «تشارلز و ريدنج» كان ينزل فى «قصر دارلنجتون» من وقت لآخر على أيام «لورد دارلنجتون». حدث ذلك فى المساء وكنت أقوم على خدمته. قال «مستر تشارلز» إنه كان قد التقى بوالدى قبل سنوات عندما نزل فى «لاڤنبراو هاوس» قصر مستر «چون سلڤرز» رجل الصناعة حيث عمل والدى هناك لمدة ١٥ عاما وهو فى أوج سنوات خدمته.

وكما يقول، فإنه لم ينس والدى أبدا بسبب حادث وقع أثناء تلك الزيارة.

بعد ظهيرة أحد الأيام ، كان «مستر تشارلز» ـ للأسف الشديد ـ قد أفرط في الشراب لدرجة السكر البين في صحبة زائرين، سأدعوهما بـ «مستر سميث» و «مستر چونز» حيث مازال الناس يذكرونهما في بعض الأوساط. بعد ساعة أو أكثر من مواصلة الشراب ، قال السيدان المرافقان إنهما كانا يريدان الخروج في نزهة مسائية بالسيارة في القرى المجاورة ، وكانت السيارة في مثل هذا الوقت شيئاً جديدا. وأقنعا «مستر تشارلز» بأن يصحبهما، ولأن السائق كان في إجازة آنذاك، فقد عهدوا لأبى بقيادة السيارة.

وبمجرد انطلاقهم، بدأ «مستر سيمث» و «مستر چونز» يتصرفان مثل تلاميذ المدارس بالرغم من أنهما كانا في منتصف العمر، راحا يغنيان أغنيات بذيئة، ويعلقان بعبارات أكثر بذاءة على كل مايقع عليه بصرهما من النافذة . نظر السيدان إلى الخريطة فوجدا ثلاث قرى محلية في المنطقة المحيطة وهى «مورڤى» و «سالاتش» و «بريچون». لست متأكدا الآن من الأسماء، ولكن المهم أن أسماء القرى ذكرت السيدين «سميث » و«چونز» بمسرحية «ميرڤى وسالتمان والقطة بريچيد» التي ربما تكون قد سمعت بها. وعندما لاحظا تلك المصادفة الغريبة، انتابتهما رغبة في زيارة تلك القرى تكريما لفناني الموسيقى

كما قالا. وكما يحكى مستر «تشارلز» فإن والدى وصل بالسيارة إلى إحدى القرى، وكان على وشك أن يدخل القرية الثانية عندما لاحظ «مستر سميث» أو لعله «مستر چونز» أنها كانت «بريچون»، أى القرية الثالثة وليست الثانية حسب التتابع. طلبا من والدى بغضب أن يعود بالسيارة فورا ليتمكنا من زيارة القرى «حسب الترتيب الصحيح» المبين على الخريطة. وكان ذلك يعنى الرجوع مسافة طويلة مضاعفة، ويؤكد «مستر تشارلز» أن أبى قبل الطلب وكأنه شىء معقول، واستمر فى تعامله معهما وتصرفه بأدب واضح.

ولكن تركيز مستر «سميث» ومستر «چونز» تحول الآن إلى والدى. ولأنهما كانا يشعران بالضجر من المناظر التى يرونها فى الطريق، راحا يسليان نفسيهما بإبداء ملاحظات وتعليقات سخيفة وبصوت عال عن «الخطأ» الذى ارتكبه والدى. ويتذكر مستر «تشارلز» كيف كان إعجابه بوالدى الذى لم يبد عليه الضيق أو الغضب، وأنه كان يواصل قيادة السيارة وهو يوازن بين الكرامة الشخصية والانصياع لهما . على أية حال، لم تستمر رباطة جأش والدى، لأنهما عندما تعبا من صب الإهانات وهما جالسان وراءه بدآ يتكلمان عن مضيفهما أى «مستر چون سيلفرز» مخدوم والدى». التعليقات تمادت فى وقاحتها وغلظتها لدرجة أن «مستر تشارلز» ــ كما يزعم على الأقل ــ اضطر للتدخل قائلا

إن حديثا من ذلك النوع كان رديئاً ومزعجا. وقد عارض الرجلان هذا الرأى بشدة لدرجة أن «مستر تشارلز» الذى لم يهتم به بعد ذلك، كان يخشى من اعتداء جسدى يقع عليه. ولكن والدى فجأة، وبعد غمز شديد ضد مخدومه أوقف السيارة، ولايستطيع أن ينسى مستر «تشارلز» ما حدث بعد ذلك. باب السيارة الخلفى المفتوح، ووالدى يقف وراءها ببضع خطوات يحدق فيها بتركيز. وكما يصف مستر «تشارلز» ، فقد كان الرجال الثلاثة مأخوذين تماما لقوة والدى الجسمانية البادية عليه.

كان رجلا طويل القامة، حوالى ستة أقدام وثلاث بوصات ـ وملامحه رغم أنها مطمئنة حينما تعلم أنه مطبوع على الطاعة، إلا أنها قد تبدو وعرة عندما تراها فى إطار آخر. وطبقا لرواية «مستر تشارلز» فإن والدى لم يقل شيئا ولم يبد أى غضب.

ولكن التأهب الذى بدا عليه جعل رفيقى «مستر تشارلز» السكرانين يتراجعان إلى الخلف وينكمشان كولدين أمسك بهما فلاح متلبسين بسرقة التفاح من حقله.

تقدم والدى قليلا ليقف أمامهما لحظات لايقول شيئا، ممسكا بباب السيارة المفتوح. وأخيرا قال «مستر سميث» أو لعله «مستر چونز» : «ألن نكمل الرحلة؟»

لم يرد والدى، ظل واقفا فى صمت، لم يطلب منهما النزول من

السيارة، لم تصدر منه أية علامة تعبر عن نية أو قصد. يمكنني أن أتخيل كيف كان يبدو في ذلك اليوم وهو واقف وباب السيارة حوله مثل الإطار حول الصورة.، وهيئته السمراء الفارعة تسد عليهم المنظر الطبيعي لمنطقة «هيرت فورد شاير» من خلفه. كانت تلك لحظات مثيرة كما يتذكر «مستر تشارلز» وبالرغم من أنه لم يشاركهما السلوك الذي أدى إلى ذلك ، إلا أنه كان يشعر بالذنب.

وساد صمت، قبل أن يستطيع أيّ من «مستر سميث» أو «مستر جونز» أن يجد في نفسه القدرة على القول متلعثما: «يبدو أننا تكلمنا على نحو غير لائق إلى حد ما... لن يحدث ذلك مرة أخرى».

وبعد لحظة تفكير، أغلق والدي السيارة برفق وعاد إلى عجلة القيادة ليواصل الجولة في القرى الثلاث، الجولة التي أكد لي مستر «تشارلز» أنها تمت بعد ذلك في صمت كامل تقريبا.

والآن بعد تذكري ذلك الحدث ، يحضرني حدث أخر في عمل والدي، يعود إلى الفترة نفسها تقريبا، ولعله يوضح بشكل أكثر جلاء تلك الخاصية التي كانت تميزه.

وهنا لابد من أن أشير إلى أنني أحد شقيقين، وأن شقيقي الأكبر «ليونارد» قتل في الحرب في جنوب أفريقيا وكنت حينذاك صبيا. كان من الطبيعي أن يشعر والدي بفقده، ولكن ما يجعل الأمور أكثر سوءا

من العزاء الذى قد يجده الأب فى مثل تلك المواقف وهى فكرة أنه قد بذل حياته بشرف فى سبيل الملك والوطن ـ كون أخى قد هلك فى مناورة شائنة. وليس فقط لأن المناورة كانت هجوما غير بريطانى على بعض مستوطنات «البوير» ، وإنما لظهور دلائل قاطعة على أنها تمت بلا مسئولية ومع قدر كبير من الاستهانة بالتدابير العسكرية الأولية تجعل من ماتوا ـ ومن بينهم أخى ـ يموتون ميتة مجانية لامبرر لها.

وعلى ضوء ما أنا بصدد روايته، فلن يكون من اللائق بالنسبة لى أن أحدد تلك المناورة بدقة أكثر من ذلك، رغم أنك تستطيع أن تخمن جيدا ما أقصده لوقلت إنها أثارت قدرا من اللغط فى حينها، وهو الأمر الذى أضاف الكثير إلى الجدل حول الموضوع. فقد تعالت الأصوات المطالبة بإقالة «الجنرال» المسئول بل وتقديمه لمحاكمة عسكرية، ولكن الجيش دافع عنه وسمح له بمواصلة الحملة. أما غير المعروف على نحو كاف، فهو أن ذلك «الجنرال» قد تقاعد فى تكتم وسرية بالقرب من نهاية الصراع فى جنوب أفريقيا واشتغل بتجارة الشحن من هناك. وأنا أقول ذلك، لأنه بعد عشر سنوات من الصراع ، أو بمعنى أدق بعد أن التأمت جراح فقد الابن ولو سطحيا ، تم استدعاء والدى إلى مكتب «مستر چون سيلڤرز» ليبلغه بأن ذلك الشخص نفسه ـ وسأدعوه بالچنرال ـ كان سيصل فى زيارة لحضور حفل فى القصر، وأن مخدوم والدى

يتطلع إلى وضع أسس صفقة تجارية مربحة معه.

كان «مستر سيلفرز» يفكر فى مغزى تلك الزيارة بالنسبة لوالدى ولذا استدعاه ليعرض عليه أن يقوم بإجازة عدة أيام أثناء وجود «الچنرال» فى القصر.

كانت مشاعر والدى تجاه «الچنرال» ـ بالطبع ـ كلها نفور، بيد أنه كان يدرك أن الطموحات التجارية لمخدومه تتوقف على الإدارة السلسة للحفل، ولن يكون ذلك أمرا سهلا فى مناسبة يحضرها قرابة ثمانية عشر شخصا . وكان رد والدى هو أنه فى الوقت الذى يشعر فيه بالامتنان لمراعاة شعوره ، إلا أن «مستر سيلفرز» لابد من أن يطمئن تماما، ويثق بأن الخدمة سوف تتم على المستوى المعهود دائما.

والذى حدث هو أن محنة والدى أصبحت أصعب مما كان متوقعا. أحد الأسباب هو أن آماله تبددت فى أن تثير مقابلة «الچنرال» أى احترام أو تعاطف . كان «الچنرال» رجلا بدينا قبيحا سوقيا فى سلوكه، أسلوبه فى الكلام صادم للذوق، يصف كل شىء بتشبيهات عسكرية. والأسوأ من ذلك أن الأخبار جاءت لتقول إنه قادم بدون خادمه الخاص لأنه كان مريضا. وكانت تلك مشكلة صعبة لأن أحد الضيوف الآخرين كان أيضا بدون خادمه، ولأن والدى كان يقدر موقف مخدومه، فقد تطوع فى الحال ليكون فى خدمة «الچنرال» وهكذا كان مضطرا للتعامل

مع الرجل الذى يكرهه لمدة أربعة أيام. وفى الوقت نفسه فإن «الچنرال» الذى لم يكن يعرف شيئاً عن مشاعر والدى تجاهه وجدها فرصة سانحة ليحكى له عن إنجازاته العسكرية كغيره من القادة العسكريين الذين يميلون للكلام مع خدمهم فى غرفهم الخاصة. لكن والدى نجح فى إخفاء مشاعره، وقام بواجبه بكفاءة عالية، لدرجة أن «الچنرال» شكر «مستر چون سيلڤرز» على تميز رئيس الخدم الذى يعمل لديه، وترك له بقشيشا كبيرا، وقد طلب والدى من مخدومه دون تردد أن يتبرع به للمؤسسات الخيرية.

بعد هاتين الحادثتين اللتين رويتهما عن عمل والدى، وكلاهما موثق ومنقول بكل دقة، أعتقد أنك ستوافق معى على أن والدى لايمثل الكرامة فقط كما تصفها جمعية «هايز»، وإنما هو أيضا تجسيد حى لكل ذلك. وإذا قارن شخص ما بين سلوك والدى فى هاتين المناسبتين، وبين واحد مثل «مستر چاك نيبورز» بالرغم من كل تأنقه الفنى، فأغلب الظن أنه سيقف على الفرق بين رئيس الخدم العظيم، ورئيس الخدم الكفء ليس إلا. والآن، ربما نكون قد فهمنا على نحو أفضل سر غرام أبى بقصة رئيس الخدم الذى لم يهتز عندما اكتشف وجود نمر تحت طاولة العشاء، ذلك لأنه كان يعرف بالغريزة أن فى موضع ما فى تلك القصة يوجد الجوهر الحقيقى لمعنى «الكرامة».

والآن دعنى أفترض الآتى: الكرامة أمر وثيق الصلة بقدرة رئيس الخدم على عدم التخلى عن كيانه المهنى الذى يسكنه. رؤساء الخدم الأقل شأنا سيتخلون عن وجودهم المهنى عند أقل استثارة أو استفزاز. عند أمثال هؤلاء، أن تكون رئيس خدم معناه أن تقوم بدور تمثيلى صامت، دفعة خفيفة، زلة بسيطة ثم تنهار الواجهة لتكشف عن الممثل تحتها. رؤساء الخدم العظام عظام لأنهم قادرون على البقاء فى دورهم المهنى ، الإقامة فيه برسوخ ، الأحداث الخارجية لا تهزهم مهما كانت مزعجة أو منغصة، إنهم يرتدون مهنيتهم كما يرتدى رجل أنيق حلته، لايترك الظروف تخلعها عنه فى العلن، سوف يتخلى هو عنها عندما يريد ذلك فقط، وذلك لن يحدث إلا عندما يكون بمفرده. إنها «مسألة كرامة » كما أقول.

يقال أحيانا إن رؤساء الخدم موجودون فى إنجلترا بالفعل. ومهما كان اللقب المستخدم فى البلاد الأخرى فإنه لايوجد لديهم سوى خدم من الرجال فقط، وأنا أكثر ميلا لتصديق ذلك. الأخرون لايمكنهم أن يكونوا رؤساء خدم، فهم كسلالة ليسوا قادرين على التحفظ العاطفى، والتحكم فى النفس الذى يتحلى به الجنس الإنجليزى فقط. أبناء القارة الآخرون والسلت بخاصة ـ وأعتقد أنك ستوافقنى ـ لايمكنهم السيطرة على أنفسهم فى لحظات الجيشان العاطفى ولذلك لايمكنهم الاحتفاظ

بتوازنهم المهنى إلا فى المواقف الأقل تحديا.

ولو عدت إلى استعارتى السابقة، دعنى أصف الأمر على نحو قد يبدو خشنا، وأسف لذلك. إنهم مثل الرجل الذى سيمزق حلته وقميصه عند أول استثاره ويجرى ويصرخ. وباختصار، فإن «الكرامة» ليست فى متناول مثل أولئك الأشخاص. نحن الإنجليز نمتاز عن الأجانب فى هذا المجال، ولهذا السبب فإنك عندما تفكر فى رئيس خدم عظيم فإنه لابد ـ حسب التعريف ـ من أن يكون إنجليزيا. بالطبع قد ترد على كما كان يفعل «مستر جراهام» عندما كنت أقول له ذلك ونحن جالسون بجوار المدفأة، ستقول إننى إذا كنت محقا فى قولى، فإن المرء لايمكنه التعرف على رئيس خدم عظيم إلا بعد رؤيته وهو يقوم بعمله فى ظل اختبار صعب. بينما نحن فى الواقع نقول إن أشخاصا مثل «مستر مارشال» أو «مستر لين» عظماء بالرغم من أن معظمنا لايستطيع أن يدعى أنه قد راقبهم فى ظروف كتلك. ولابد من أن أعترف بأن «مستر جراهام» محق فى هذه النقطة ولكن كل ما أستطيع أن أقوله هو أن المرء بعد أن عمل فى هذه المهنة، فإنه يستطيع أن يحكم بالبديهة على الكفاءة المهنية والاحترافية العالية لشخص ما، دون أن يرى ذلك تحت ظروف ضاغطة.

والواقع أن ذلك إذا حدث، وكان المرء محظوظا، وقابل رئيس خدم عظيم ، بصرف النظر عن أى دوافع لطلب «اختبار»، فإن المرء يكون فى

حيرة لكى يتخيل موقفا يمكن أن يتخلى فيه رئيس الخدم عن مهنيته. وأعتقد أن شيئا من ذلك هو الذى اخترق الضباب الكثيف الذى صنعه الشراب ، وهو الذى جعل المسافرين مع والدى يلونون بالصمت الخجول بعد ظهيرة ذلك الأحد منذ عدة سنوات. مع رجال كهؤلاء يعرف المرء بسهولة أنه فى حضرة العظمة، نفس الشىء الذى يحدث عندما نلتقى بالمناظر الطبيعة فى الريف الإنجليزى. وأنا أعرف أنه سيكون هناك دائما من يقول : إن محاولة تحليل العظمة بالطريقة التى أقوم بها، أمر لاطائل من ورائه.

وسيكون رد «مستر چراهام» دائما: «أنت تعرف إن كانت موجودة عند شخص، وإن كانت مفتقدة عند آخر».

ولكننى أعتقد أننا لاينبغى أن نكون انهزاميين فى هذا الشأن. والمؤكد أنها مسئوليتنا المهنية جميعا، وأن نفكر بعمق فى هذه الأشياء لكى يحاول كل منا تحقيق هذه «الكرامة» لنفسه.

اليوم الثانى ـ صباحا

«ساليسبرى»

الأسرةُ الغريبة لاتناسبنى فى العادة. بعد فترة وجيزة من نوم خفيف مضطرب استيقظت منذ ساعة أو أكثر قليلا، كان الجو لا يزال مظلما، ولأننى أعرف أن أمامى رحلة طويلة بالسيارة قد تستغرق يوما كاملا، حاولت أن أعود للنوم. لم أستطع. وعندما قررت فى النهاية أن أقوم كان الظلام ما زال مخيما فاضطررت إلى إضاءة النور الكهربائى لأحلق ذقنى على الحوض فى ركن الغرفة.

وبعد أن انتهيت ، أطفأته حيث كان ضوء النهار الباكر قد ظهر على حواف الستائر.

عندما أزحتها منذ لحظة، كان ضوء النهار مازال شاحباً والضباب يعوق الرؤية، فلا أرى محل الحلاقة والصيدلية فى الجانب المقابل من الشارع. وعندما تتبعت بنظرى الشارع الممتد عبر الجسر المقنطر رأيت الضباب يتصاعد من النهر ويكاد يخفى أعمدة الجسر. ليس هناك بشر، وباستثناء جلبة آتية من مكان بعيد وسعال متقطع من غرفة فى نهاية الفندق لم يكن هناك أى صوت. يبدو أن صاحبة الفندق لم تستيقظ بعد، وهذا معناه أنه لن تكون هناك فرصة لتناول الإفطار قبل الوقت المحدد وهو السابعة والنصف.

الآن، وفى لحظات الهدوء هذه وأنا أنتظر أن يستيقظ العالم من حولى، أجد نفسى مرة أخرى أستعيد بذاكرتى فقرات من رسالة «مس كنتون».

وبالمناسبة، كان ينبغى أن أفسر معنى إشارتى إليها دائما باسم «مس كنتون» . «مس كنتون» هى على وجه الدقة «مسز بن»، وهكذا هى منذ عشرين عاما تقريبا.

ولكن ، لأننى عرفتها عن قرب قبل أن تتزوج، ولم أرها بالمرة منذ أن غادرتنا إلى الريف الغربى لتصبح «مسز بن» ، فقد تلتمس لى العذر فى عدم صحة الإشارة إليها كما عرفتها، وبقيت فى عقلى أدعوها بذلك على مدى تلك السنوات.

وبالطبع، فإن رسالتها قد أعطتنى سببا إضافيا لكى أواصل التفكير فيها باعتبارها «مس كنتون»، ما دام زواجها ـ للأسف الشديد ـ سوف ينتهى. الرسالة لم تتناول هذا الأمر بالتحديد كما قد يتوقع المرء وإن كانت «مس كنتون» تقول بشكل لا لبس فيه إنها قد اتخذت قرارا بترك منزل «مستر بن» فى «هلستون»، وإنها الآن مقيمة مع أحد المعارف فى قرية «ليتل-كومتون» القريبة من هنا.

وهى مأساة ـ بالفعل ـ أن ينتهى زواجها بالفشل. ولاشك فى أنها فى هذه اللحظة تحديدا تفكر بأسى فى القرارات التى جعلتها الآن حزينة ووحيدة فى منتصف العمر. ومن السهل أن يدرك المرء كيف تكون فكرة العودة إلى «دارلنجتون هول» وهى فى تلك الحالة، مصدر راحة نفسية كبيرة بالنسبة لها. «مس كنتون» لم تفصح عن رغبتها فى العودة، ولكن

المعنى العام المتضمن في رسالتها وعبارات أخرى كثيرة ، كلها تعكس حنينا عميقا لأيام «دارلنجتون هول». «مس كنتون» ــ بالطبع ــ لاتأمل في استعادة تلك السنوات الضائعة ولذا سيكون أول شيء أفعله عندما نلتقي هو أن أوضح لها ذلك. سأشرح لها كيف أن الأمور قد تغيرت كثيرا، وأن الزمن قد مضى، عندما كان العمل مع فريق ممتاز وإدارة جيدة أمرا ممكنا . ولكن «مس كنتون» ذكية ولابد من أنها ستفهم جيدا. على أية حال، لا أجد سببا يمنع من أن يكون خيار عودتها إلى «دارلنجتون هول» ونجاحها هناك، سببا لراحتها الحقيقية في حياة يملؤها الشعور بالضياع.

وأنا ، ومن وجهة نظر مهنية، رأى أن «مس كنتون»، ولو بعد فترة انقطاع لمدة سنوات، يمكن أن تكون هي الحل الأمثل لمشكلة «دارلنجتون هول » الحالية. وعندما أقول إنها مشكلة ، ربما أكون مبالغا. أنا أشير ــ على أية حال ــ إلى مجموعة من الأخطاء البسيطة من جانبي ، والنهج الذي أسلكه الآن ما هو إلا وسيلة لتلافي أية مشكلة قبل حدوثها. صحيح أن تلك الأخطاء التافهة نفسها قد سببت لي بعض القلق في البداية، ولكن بمجرد أن تيسر الوقت لتشخيصها جيدا كأعراض لا تزيد عن كونها نقص في عدد العاملين، لم أعد أوليها كبير اهتمام. ووصول «مس كنتون»، كما أقول، سيضع نهاية دائمة لها.

•ولكن فلنعد إلى رسالتها. أحياناً تعبر عن يأس من وضعها الحالي،

وهذه حقيقة مقلقة إلى حد ما. فهى تبدأ جزءا منها بقولها: «بالرغم من عدم وجود أية فكرة لدى عن كيفية ملء بقية حياتى بشكل مفيد .....»، وفى موضع آخر تكتب: «حياتى الباقية ممتدة أمامى كفرا غ». لكن معظم الرسالة ــ كما قلت ــ يعكس حنينا شديدا.

فى جزء آخر كتبت: «هذه الحادثة كلها ذكرتنى بـ «آليس وايت». هل تذكرها؟ والحقيقة أننى لا أتصور أنك تكون قد نسيتها. أما أنا، فما زالت تطاردنى مثل شبح تلك الأصوات والعبارات الركيكة التى تنطقها. هل لديك فكرة عن كيف وأين هى الآن؟»

الحقيقة أننى لا أعرف شيئا عنها، رغم أننى لابد من أن أقول إننى قد ضحكت عندما تذكرت تلك الخادمة المزعجة التى أصبحت فى النهاية من أكثر العاملين كفاءة وإخلاصا.

وفى جزء آخر من رسالتها كتبت «مس كنتون»:

«كنت مغرمة دائما بتأمل ذلك المنظر من غرف الطابق الثانى المطلة على المرج والتلال المعشبة. هل مازال على حاله؟ كان لذلك المنظر سحره الخاص فى أمسيات الصيف، ودعنى أعترف لك الآن أننى قد أمضيت أوقاتا كثيرة وثمينة وأنا، واقفة فى إحدى النوافذ مأخوذة به. وتضيف «ولتعذرنى إن كانت تلك ذكرى مؤلمة. ولكننى لن أنسى مرة كنا أنا وأنت نراقب والدك وهو يروح جيئة وذهابا أمام السقيفة الصيفية

وهو ينظر إلى الأرض كأنه يبحث عن جوهرة ثمينة وقعت منه هناك.»

مفاجأة مثيرة أن تكون هذه الذكرى التى مضى عليها أكثر من ثلاثين عاما، قد ظلت باقية مع «مس كنتون» كما هى باقية معى.

والحقيقة أنها لابد من أن تكون قد حدثت فى إحدى أمسيات الصيف التى ذكرتها، لأننى أتذكر بوضوح يوم أن صعدت إلى منبسط السلم فى الطابق الثانى ، وأمامى حزمة من الأشعة البرتقالية المنبعثة من شمس الغروب تكسر كآبة الممر، بينما كانت أبواب غرف النوم مغلقة. وأثناء مرورى أمام الغرف، رأيت «مس كنتون» أمام إحدى النوافذ عندما التفتت ونادت بصوت ناعم:

«لحظة من فضلك يا مستر ستيفنس...»

وعندما دخلت عادت هى إلى النافذة. تحتنا ، كانت ظلال أشجار الحور مستلقية على الأرض المعشبة ، وإلى اليمين، كانت الأرض مرتفعة قليلا في اتجاه السقيفة الصيفية... ، وهناك كان والدى ينقل الخطى ببطء وهو يبدو عليه الانشغال. كان كما قالت «مس كنتون» تماما... كأنه يبحث عن جوهرة ثمينة وقعت منه هناك.

هناك بعض الأسباب التى، تجعل تلك الذكرى باقية فى ذهنى كما أود أن أوضح. هذا ، إلى جانب أننى عندما أفكر فيها، قد لايبدو الأمر مفاجئا أو مدهشا أن يكون لدى «مس كنتون» ذكرى ما تتعلق بوالدى منذ أيامها

الأولى في «دارلنجتون هول».

«مس كنتون» ووالدي كانا قد جاءا إلى القصر في نفس الوقت تقريبا، أي في ربيع عام ١٩٢٢، وكان مجيئهما نتيجة لفقداني - بضربة واحدة - مدبرة القصر السابقة ومساعد رئيس الخدم. وكان ذلك قد حدث نتيجة أن الشخصين الأخيرين قررا الزواج وتركا المهنة.

لقد كنت دائما أرى ذلك النوع من العلاقات تهديدا حقيقيا لنظام العمل في القصر... منذ ذلك الحين فقدت كثيرا من العاملين في ظروف مشابهة. لابد من أن يتوقع المرء بالطبع حدوث أشياء كتلك بين الخادمات والخدم ، ولابد من أن يراعي رئيس الخدم الجيد مثل تلك الأمور في تخطيطه . إلا أن زيجات مثل هذه بين كبار العاملين، لابد من أن يكون لها أثر شديد السوء على سير العمل، وربما يكون مدمرا. بالطبع، إذا وقع اثنان من العاملين في الحب وقررا الزواج فمن الظلم توزيع اللوم عليهما. ولكن الأكثر مدعاة للقلق والإزعاج هم أولئك الأشخاص - ومدبرات البيوت والقصور هن المذنبات هنا على نحو خاص - الذين ليس لديهم أي التزام حقيقي بالمهنة، والذين يتنقلون من مكان لآخر بحثا عن القصص الغرامية.

إن إنسانا من هذا النوع لابد من أن يكون وبالا على المهنة. ولكن دعني أقول بداية، إنني لا أضع «مس كنتون» بالمرة في ذهني عندما

أقول ذلك، فهى فى النهاية قد تركت فريق العمل عندى لكى تتزوج، وأستطيع أن أشهد أنها أثناء الفترة التى عملت فيها مدبرة للقصر تحت إشرافى كانت شديدة الإخلاص، ولم تسمح أبدا لأى شىء بأن يصرفها عن أولويات المهنة.

ولكن يبدو أننى قد شردت عن الموضوع الأساسى. كنت أوضح أننا أصبحنا فى حاجة إلى مدبرة ومساعد لرئيس الخدم، وجاءت «مس كنتون» لتشغل الوظيفة الأولى، وكانت شهاداتها جيدة، وتنم عن خبرة ممتازة. وحدث أن جاء والدى فى الوقت نفسه بعد أن كانت خدمته الممتازة قد انتهت لدى «لاڤنبراو هاوس» بعد وفاة مخدومة «مستر چون سيلڤرز»، وكان فى حاجة ماسة للعمل ومكان للإقامة.

وبالرغم من أنه كان لايزال حرَفِياً من أعلى مستوى ، إلا أنه كان فى السبعين من عمره ويعانى بشدة من التهاب فى المفاصل وأوجاع أخرى. لم نكن حينذاك نعرف كيف سيكون وصفه مقارنة بالمتقدمين الآخرين لوظيفة مساعد رئيس الخدم ممن هم أصغر منه سنا وكفاءة . وعلى ضوء ذلك، كان حلا معقولا أن نطلب من والدى أن يأتى بخبرته الكبيرة وتميزه إلى «دارلنجتون هول».

وبعد أن التحق والدى و«مس كنتون» بالعمل هنا بوقت قصير، أذكر أننى كنت جالساً فى غرفتى ذات صباح أراجع بعض الأوراق الخاصة

بالعمل، عندما سمعت طرقة على الباب. وفوجئت بـ «مس كنتون» تفتح الباب وتدخل قبل أن أطلب منها ذلك. كانت ممسكة بمزهرية مليئة بالزهور وهي تقول مبتسمة: «أعتقد أن هذا سيضفي بعض البهجة على غرفتك يا «مستر ستيفنس».

عفوا يا «مس كنتون!».

«من أسف أن غرفتك تبدو هكذا مظلمة وباردة يا «مستر ستيفنس» بينما الشمس مشرقة في الخارج. أعتقد أن هذا سوف يبعث الحياة قليلاً هنا».

«هذا جميل منك يا «مس كنتون».

«مؤسف ألا يدخل كثير من ضوء الشمس غرفتك كما أن الجدران رطبة نوعا ما.. أليس كذلك يا مستر ستيفنس؟!».

عدت إلى أوراقي، وأنا أقول:

«من أثر الرطوبة فقط يا مس كنتون على ما أعتقد». وضعت المزهرية أمامي على الطاولة، ثم نظرت حولها وقالت:

«يمكنني أن أحضر لك المزيد من النباتات يا «مستر ستيفنس» إن كنت تريد ذلك»

«مس كنتون» ، أشكر لك اهتمامك ولكنها ليست غرفة للترفيه، وأنا سعيد لأنها ليست مكتظة بأشياء كثيرة قد تشتت انتباهي.»

«ولكن ليس هناك ما يدعو يا «مستر ستيفنس» لأن تترك غرفتك جرداء هكذا .. خالية من أى لون!»

«إنها تناسبنى تماما .. هكذا .. يا «مس كنتون»، مع فائق تقديرى لاهتمامك . وبما أنك هنا ، فإننى أريد أن أناقش معك موضوعا».

«حقا يا «مستر ستيفنس»؟»

«حقا يا «مس كنتون» . موضوع صغير.

حدث أن كنت أمر بالأمس بالمصادفة أمام المطبخ عندما سمعتك تنادين شخصا باسم «وليم».

«هل حدث ذلك يا «مستر ستيفنس»؟»

«نعم يا «مس كنتون». سمعتك عدة مرات تنادين« وليم»... هل لى أن أسأل: من كنت تنادين بهذا الاسم؟»

«لماذا يا «مستر ستيفنس»؟ لابد من أننى كنت أخاطب والدك . ليس هناك شخص آخر بهذا الاسم على ما أظن»

قلت بابتسامة صغيرة:

«هذا خطأ بسيط على أية حال. هل أطلب منك أن تخاطبى والدى فى المرات القادمة بـ «مستر ستيفنس»؟ أما إذا كنت تذكرين اسمه أمام طرف ثالث فيمكن أن تقولى «مستر ستيفنس الكبير»، وذلك تمييزا له عنى . شكرا يا «مس كنتون».»

وعدت لأوراقى . ولدهشتى فإن «مس كنتون» لم تنصرف.

وبعد لحظة قالت : «عفوا يا «مستر ستيفنس»..»

«نعم يا مس كنتون»

«أخشى ألا أكون قد فهمت ما تقول. كان من عادتى فى الماضى أن أنادى صغار الخدم بأسمائهم الأولى، ولا أجد سبا لأن أفعل غير ذلك هنا.»

«هذا خطأ واضح يا «مس كنتون» . ولو أنك فكرت فى الأمر لحظة، فقد تدركين أنه ليس من اللباقة من شخص مثلك أن يتكلم بمثل هذا الاستعلاء عن شخص مثل والدى.»

«مازلت لا أفهم قصدك يا «مستر ستيفنس» . تقول شخصا مثلى، ولكننى على قدر ما أفهم، مدبرة هذا القصر، بينما والدك ليس سوى مساعد رئيس الخدم»

«هو طبعا مساعد رئيس الخدم بحكم المسمى الوظيفى كما تقولين، ولكن يدهشنى أن قوة ملاحظتك لم تمكنك من إدراك أنه فى الحقيقة أكثر من ذلك.... أكثر بكثير».

«لاشك فى أننى لم أدرك.. غفلت عن ذلك يا «مستر ستيفنس». لقد لاحظت فقط أن والدك مساعد رئيس خدم جيد، وخاطبته بما يناسب ذلك. ولابد من أن يكون مدعاة فرح له أن يخاطبه شخص مثلى بمثل ما خاطبته به.»

«واضح من أسلوبك يا «مس كنتون» أنك لم تفهمي والدى. ولوحدث، لأدركت أنها فعلا عدم لباقة بأن يناديه شخص فى مثل عمرك ومركزك باسم «وليم».

«ربما لا أكون قد عملت كمدبرة قصر لفترة طويلة يا «مستر ستيفنس»، ولكننى أستطيع أن أقول إن كفاءتى كانت محل تقدير على مدى الفترة التى عملتها.»

«أنا لم أشكك فى كفاءتك لحظة يا «مس كنتون». ولكن لابد من أنه كان هناك مائة شيء يمكن أن تدلك على أن والدى شخص متميز ، واستثنائى، ويمكنك أن تتعلمى منه أشياء كثيرة لو أنك أكثر قدرة على الملاحظة.»

«شكرا لنصيحتك الغالية يا «مستر ستيفنس».. والآن تفضل ... خبرنى.. ما هى الأشياء الرائعة التى يمكن أن أتعلمها من السيد والدك؟»

«كنت أعتقد أن ذلك واضح لكل ذى عينين يا «مس كنتون».

«ولكننا اتفقنا على أننى قاصرة فى هذا الأمر .. أليس كذلك».

«يا «مس كنتون»، إن كنت تعتقدين أنك فى هذه السن قد وصلت إلى الكمال، فلن تصلى أبدا إلى المستوى الذى يليق بك. ولابد من أن أشير مثلا إلى أنك عادة غير ملمة على نحو كاف بما يحدث وأين يحدث وما هو ضرورى».

ويبدو أن ذلك جرد «مس كنتون» من أسلحتها إلى حدما، فبدا عليها الضيق وقالت: «عندما جئت إلى هنا واجهت مصاعب قليلة.. ولكن هذا شيء عادى فى البداية».

«هكذا إذن يا «مس كنتون». ولو أنك راقبت والدى الذى جاء إلى هذا القصر بعدك بأسبوع لأدركت أن معرفته كاملة.. وشاملة.. وكانت هكذا منذ أن وضع قدمه للمرة الأولى فى «دارلنجتون هول».

بدا عليها أنها كانت تفكر فى ذلك قبل أن تقول وهى مقطبة : «أنا أعرف تماماً أن «مستر ستيفنس» الكبير ماهر جدا فى عمله، ولكن المؤكد أيضاً أننى أنا الأخرى ماهرة جدا فى عملى يا «مستر ستيفنس». ولسوف أتذكر أن أخاطب والدك بلقبه كاملا فى المستقبل . والآن أستأذنك فى الانصراف.»

بعد هذه المواجهة، لم تحاول «مس كنتون» أن تأتى بزهور بعد ذلك إلى غرفتى، وبشكل عام فقد كنت سعيدا بملاحظة أنها كانت هادئة ومتزنة فى عملها. كان واضحا أيضا أنها من مدبرات البيوت اللائى يأخذن عملهن بجدية شديدة، وبالرغم من صغر سنها كان من السهل أن تكتسب احترام من يعملون تحت إشرافها.

كما لاحظت أنها بدأت تخاطب والدى بـ «مستر ستيفنس»، إلا أنها جاءت بعد ظهيرة أحد الأيام، ربما بعد أسبوعين من حوارنا، وكنت أقوم

بعمل ما فى المكتبة عندما قال :

«معذرة يا «مستر ستيفنس»، إن كنت تبحث عن لقاطة الكناسة، فهى هناك فى الردهة»

«عفوا يا «مس كنتون»....»

« لقاطة الكناسة يا «مستر ستيفنس» . لقد تركتها أنت هناك . هل تريد أن أحضرها لك؟»

«أنا لا أستخدم لقاطة الكناسة يا «مس كنتون».»

«معذرة إذن يا «مستر ستيفنس». تصورت أنك كنت تستخدمها وتركتها هناك. على أية حال أنا متأسفة لإزعاجك.»

همت بالانصراف ولكنها استدارت عند الباب وقالت :

«كان بودى أن أحضرها بنفسى يا «مستر ستيفنس»، إلا أننى لابد من أن أذهب إلى الطابق الثانى الآن.. أرجو أن تتذكرها.»

«طبعا.. طبعا.. يا«مس كنتون»، وشكرا لأنك نبهتنى»

«لابأس يا مستر ستيفنس»

كنت أسمع وقع أقدامها وهى تعبر الردهة وتصعد درجات السلم وتقدمت أنا فى اتجاه المدخل و كانت بوابة القصر الرئيسية واضحة لى وأنا عند باب المكتبة. فى وسط المسافة بالضبط وبشكل واضح مناف للذوق، كانت لقاطة الكناسة التى أشارت إليها «مس كنتون» ملقاة.

صدمنى ذلك بالطبع لخطأ بسيط ولكنه يبعث على الضيق والإزعاج : كانت لقاطة الكناسة واضحة للعيان وبشكل غير لائق من مداخل الطابق الأرضى الخمسة التى تفتح على الردهة. ومن مدخل السلم وشرفات الطابق الأول.

عبرت الردهة، وتناولت ذلك الشىء المزعج قبل أن أفهم مغزى كلام «مس كنتون». وتذكرت أن والدى كان يقو ; بتنظيف ردهة المدخل قبل حوالى نصف الساعة. فى البداية كان من الصعب أن أنسب ذلك الخطأ له ، ولكن سرعان ما ذكرت نفسى بأن مثل تلك الهفوات البسيطة يمكن أن تحدث من أى شخص أحيانا، وتحول غضبى إلى «مس كنتون» التى حاولت افتعال تلك الضجة الجوفاء حول الحدث.

بعد أقل من أسبوع، وكنت عائدا من المطبخ من الممر الخلفى، رأيت «مس كنتون» تخرج من غرفتها وتنطق بعبارة يبدو أنها كانت تتدرب عليها، بما معناه أنها بالرغم من شعورها بعدم الارتياح لأنها لفتت نظرى إلى أخطاء يقع فيها العاملون تحتى، إلا أننا ـ أنا وهى ـ لابد من أن نعمل معا كفريق، وأنها تتمنى ألا أتردد فى أن أفعل الشىء نفسه إذا لاحظت أى خطأ من جانب العاملين تحت إشرافها. وواصلت كلامها لتشير إلى أن بعض القطع الفضية المعدة لغرفة الطعام تحمل آثار الملمع. وإلى أن هناك شوكة حافتها سوداء. شكرتها وانصرفت هى إلى

غرفتها. لم يكن من الضرورى بالطبع الإشارة إلى أن الفضيات كانت إحدى مسئوليات والدى، وأحد المهام التى يفخر بها. ومن الممكن أن تكون هناك أشياء أخرى من هذا القبيل، ولكنى نسيتها. على أية حال، أذكر أن الأمور وصلت إلى ذروتها ذات يوم بعد الظهر، كان المطر يتساقط خفيفا والجو رمادى، وكنت فى قاعة البليارد و أعتنى بتذكارات «لورد دارلنجتون» الرياضية.

دخلت «مس كنتون» وقالت وهى على عتبة الباب:

« لقد لاحظت شيئا فى الخارج الآن، وهو يحيرنى يامستر ستيفنس»

«ماذا يامس كنتون؟»

«هل هى رغبة سيادته فى أن يستبدل تمثال الرجل الصينى على منبسط السلم بذلك الموجود أمام الباب؟»

«أى تمثال يا مس كنتون؟»

«تمثال الرجل الصينى يا «مستر ستيفنس»، التمثال الذى كان على المنبسط ستجده الآن هنا أمام هذا الباب.»

«أخشى أن يكون الأمر قد اختلط عليك يا مس كنتون».

«لا أظن أن الأمر قد اختلط علىّ، ومن صميم عملى أن أعرف مكان كل شىء . التماثيل فيما أعتقد قد قام شخص ما بتلميعها، ثم وضعت فى الأماكن الخطأ. وإن كنت فى شك مما أقول يا «مستر ستيفنس»،

يمكنك أن تخرج لكى ترى بنفسك.»

«أنا مشغول الآن يا مس كنتون»

«ولكن لايبدو عليك يا «مستر ستيفنس» أنك تصدق ما أقول، ولذا أطلب منك أن تخرج لكى تتأكد بنفسك.»

«الأمر ليس عاجلا ، وسوف أرى ذلك بعد قليل»

«أنت معترف إذن بأننى لست مخطئة يا «مستر ستيفنس» فى هذه النقطة.»

«أنا لا أوافق على شىء من هذا القبيل يا «مس كنتون» حتى أجد فرصة لفهم الأمر. على أية حال أنا الآن مشغول.»

وعدت إلى عملى ولكن «مس كنتون» ظلت واقفة تراقبنى. وأخيرا قالت: «أرى أنك سوف تنتهى مما فى يدك بعد قليل يا «مستر ستيفنس»، وسأنتظرك فى الخارج لكى تحسم الموضوع عندما تخرج.»

«أنت تعطين الموضوع أهمية وإلحاحا لايستحقهما يا مس كنتون.»

ذهبت «مس كنتون»، ولكن وقع أقدام أو صوتا آخر جعلنى أشعر عندما عدت لمواصلة عملى أنها كانت هناك أمام الباب. قررت أن أشغل نفسى بأعمال أخرى فى قاعة البلياردو، متصوراً أنها سوف تكتشف سخف موقفها بعد فترة وتنصرف. على أنه بعد مرور بعض الوقت، وبعد أن انتهيت مما كان بيدى من أعمال ، وما كان يمكن أن أشغل نفسى به ،

كانت «مس كنتون» لا تزال واقفة فى الخارج . عقدت العزم على ألا أضيع وقتا أكثر من ذلك فى هذه القضية التافهة وهذا السلوك الطفولى. فكرت فى أن أخرج من النافذة، ولكن الطقس هو الذى منعنى من تنفيذ هذه الفكرة. كانت هناك تجمعات مائية صغيرة وبقع من الطين ظاهرة، وكان معنى ذلك أيضا أن أعود مرة أخرى إلى قاعة البليارد لكى أغلق النوافذ من الداخل. وفى النهاية وجدت أن أفضل خطة هى أن أخرج من الغرفة فجأة... مرة واحدة وباندفاع. وهكذا سرت بهدوء وحذر شديدين إلى مكان يمكن أن أنفذ منه بسرعة، ونجحت فى الاندفاع من الباب والسير عدة خطوات فى الممر، قبل أن تتمكن «مس كنتون» التى أذهلتها المفاجأة من أن تستعيد انتباهها. ولكنها فعلت ذلك بسرعة مذهلة ، وفى لحظة وجدتها أمامى تسد علىَّ الطريق.

«هذا هو التمثال الصينى الموضوع فى المكان الخطأ يا «مستر ستيفنس». ألا توافقنى؟»

«أنا مشغول جدا يا «مس كنتون»» ، ويحيرنى ألا يكون لديك شىء أفضل من الوقوف فى الممرات طيلة اليوم!»

«يامستر ستيفنس... هل هذا هو مكان التمثال الصحيح أم لا؟»

«يا «مس كنتون» أنا أطلب منك «أن تخفضى صوتك.»

«وأنا أطلب منك يا «مستر ستيفنس» أن تلتفت وتنظر إلى التمثال.»

«مس كنتون... أرجوك.... اخفضي صوتك. ماذا سيظن العاملون في الدور الأرضي وهم يستمعون إلى صياحنا هكذا بأعلى صوت عن مكان التمثال الصحيح أو غير الصحيح؟»

«الحقيقة يا «مستر ستيفنس» أن كل التماثيل في هذا القصر قذرة منذ فترة. والآن ها هي ذي توضع في الأماكن الخطأ.»

«أنت غريبة جدا يا «مس كنتون».. أرجوك دعيني أمر»

«هلا نظرت من فضلك إلى التمثال الموجود خلفك يا مستر ستيفنس؟»

«إن كان الأمر مهما لك إلى هذا الحد يا «مس كنتون» ، فأنا سوف أسمح بأن يوضع التمثال الموجود خلفي في المكان الخطأ. ولكن لابد من أن أقول إنني في حيرة شديدة من هذا الأمر . لماذا أنت مشغولة جدا بهذه الأخطاء؟»

«قد تكون أخطاء تافهة بحد ذاتها يا «مستر ستيفنس»، ولكن لابد من أنك شخصيا ، مدرك لأهميتها.»

«مس كنتون، أنا لا أفهمك ... والآن أرجوك دعيني أمر.»

الواقع يا «مستر ستيفنس» أن والدك قد عهد إليه بما لا يستطيع القيام به رجل في مثل عمره».

«واضح يا «مس كنتون» أن فكرتك ضحلة عما تقولين...»

«بصرف النظر عما كان عليه والدك في الماضي يا «مستر ستيفنس» .. إلا أن قواه الآن قد قلت . هذا معنى ما تظنه أخطاء تافهة. وإذا لم تنتبه لذلك فسوف يقع والدك في أخطاء فادحة قبل أن يمر وقت طويل.»

«أنت تدللين على غبائك يامس كنتون.»

«أنا متأسفة يا «مستر ستيفنس» ولكني لابد من أن أكمل: أعتقد أن هناك واجبات كثيرة يجب إعفاء والدك منها.

أولا: لاينبغي أن يستمر في حمل الصواني المحملة بأشياء كثيرة وثقيلة. ارتعاشة يديه وهو يدخل بها إلى قاعة العشاء ليست إنذاراً هينا. والمؤكد أنها مسألة وقت، قبل أن تقع منه صينية في حجر واحد أو واحدة من الضيوف.

والأكثر من ذلك يا «مستر ستيفنس» ـ ويؤسفني جدا أن أقول ذلك ـ أن أنف والدك قد لفت نظري.»

«هل حدث ذلك يا مس كنتون؟»

«حدث للأسف ! مساء أول أمس كنت أراقب والدك وهو يتقدم ببطء نحو قاعة العشاء حاملا الصينية، ويؤسفني القول إنني رأيت نقطة كبيرة تتدلى من أرنبة أنفه على أوعية الحساء. ولا أظن أن هذا المستوى من الخدمة يمكن أن يفتح شهية أحد!»

والآن ، عندما أفكر فيما حدث بعمق، لا أظن أن «مس كنتون» كانت

تتكلم بوقاحة في ذلك اليوم. كنا على مدى سنوات عملنا معا، نتبادل الملاحظات الحادة أحيانا، ولكن ذلك المساء الذى أتذكره كان فى وقت باكر في علاقتنا، ولا أظن أن «مس كنتون» كانت اقتحامية هكذا. لا أعتقد أنها كانت من الممكن أن تتمادى لتقول عبارة مثل : «قد تكون أخطاء تافهة بحد ذاتها ، ولكن لابد من أنك شخصيا مدرك لأهميتها.»

والحقيقة أننى عندما أفكر فى ذلك الآن ينتابنى شعور بأنه ربما يكون «لورد دارلنجتون» نفسه، هو الذى أبدى تلك الملاحظة لى عندما استدعانى إلى مكتبته بعد مرور شهرين تقريبا على هذا الحوار مع «مس كنتون» أمام قاعة البلياردو.

في ذلك الوقت ، كان الموقف بالنسبة لوالدى قد تغير تماماً بعد سقوطه على الأرض.

أثناء نزولك على السلم الكبير تكون أبواب المكتبة فى مواجهتك. واليوم ، يوجد خارج المكتبة خزانة زجاجية يعرض فيها عدد من أوسمة ونياشين «مستر فاراداى». فى أيام «لورد دارلنجتون»، كان يوجد فى هذا المكان نفسه رف كتب عليه عدة مجلدات من بينها أجزاء الموسوعة البريطانية كاملة. واضح أنها كانت خطة من «لورد دارلنجتون» أن يقف أمام ذلك الرف ليقرأ عناوين الأجزاء ، لكى يجعل المسألة وكأنها حدثت مصادفة وهو مستغرق فى القراءة، فيوقفنى وأنا نازل على السلم عندما مررت من

أمامه قال: «مستر ستيفنس» ... كنت أود أن أقول لك شيئاً» ثم يعود مرة أخرى يجول فى مكتبته مواصلا تظاهره بأنه مستغرق فى القراءة.

كان هناك شعور بالحرج بسبب الموضوع الذى سيتكلم فيه، الأمر الذى جعله يلجأ إلى هذا الأسلوب، وبمجرد أن أغلق الباب علينا، وقف بجوار النافذة متظاهرا بأنه يبحث عن شيء ما فى الموسوعة أثناء حوارنا.

إن ما أصفه الآن ـ عرَضاً ـ هو مجرد موقف من المواقف الكثيرة التى يمكن أن أرويها لتصوير طبيعة «لورد دارلنچتون» الخجولة والمتواضعة. فى السنوات الأخيرة، تَردَّد ونُشِرَ هراء كثير عن سيادته، وعن الدور المهم الذى لعبه فى القضايا الكبرى، كما ظهر كثير من التقارير الجاهلة عن أنه مدفوع بالأنانية أو الغطرسة. دعنى أقول هنا إن ذلك كله عار عن الحقيقة تماما. المواقف العامة التى اتخذها كانت تتنافى تماما مع طبيعته وميوله، وأستطيع أن أقول بكل ثقة إن سيادته كان مقتنعا بأن يتغلب على الجانب الأكثر انسحابا فى نفسه من خلال شعور بالواجب الأخلاقى. وأيًّا كان ما يقال عن سيادته هذه الأيام ـ ومعظمه فى رأيى هراء ـ أستطيع أن أقول إنه فعلا رجل طيب القلب وإنسان محترم وشخص أفخر بأننى أنفقت أجمل سنوات عمرى فى خدمته.

فى ذلك المساء الذى أتحدث عنه كان سيادته لا يزال فى منتصف

الخمسينيات، ولكن على ما أذكر، كان رأسه قد اشتعل شيبا، والقوام الرشيق انحنى قليلا... الأمر الذى زاد فى أواخر العمر.

رفع بصره عن المجلد الذى كان يمسك به وسألنى:

«هل والدك الآن أفضل يا ستيفنس؟»

«يسرنى أن أقول إنه قد شفى تماما يا سيدى»

«وأنا سعيد لسماع ذلك... سعيد جدا...»

«شكرا يا سيدى»

«اسمع يا ستيفنس... هل كانت هناك علامات من أى نوع؟ أقصد علامات تدل على أن والدك يريد أن يتخفف من بعض الأعباء الواقعة عليه؟ أقصد بصرف النظر عن حكاية وقوعه على الأرض.»

«كما قلت يا سيدى ، والدى يبدو عليه أنه قد شفى تماما... وأنه شخص يعتمد عليه الآن. صحيح أنه قد لوحظ خطأ أو خطأين فى أدائه مؤخرا أثناء قيامه بعمله، ولكنها على أية حال أخطاء تافهة.»

«لكن أحدا منا لا يريد أن يرى شيئا كذلك ثانية... أليس كذلك؟ أقصد أن نرى والدك يقع ... مثلا»

«بالتأكيد يا سيدى»

«وطبعا إذا كان ذلك قد حدث فى الحديقة فمعناه أنه يمكن أن يحدث فى أى مكان آخر... وفى أى وقت...»

«نعم يا سيدى»

«يمكن أن يحدث مثلا أثناء العشاء، وهو يقوم بالخدمة على المائدة»

«ممكن يا سيدى»

«أسمع يا ستيفنس... الوفد الأول سيصل قبل أقل من أسبوعين»

«نحن جميعا مستعدون يا سيدى»

« إن ما يحدث داخل جدران هذا القصر ربما يكون له بعد ذلك أصداء واسعة ومهمة»

«نعم يا سيدى»

«أنا أعنى ما أقول ، أصداء واسعة ومهمة. وعلى كل المسار الذى تتخذه أوروبا. وبناء على أسماء من سيحضرون لا أعتقد أن هناك مبالغة فيما أقول»

«ليس هناك مبالغة يا سيدى»

«ولايجب أن نعرض أنفسنا لمخاطر يمكن تلافيها مسبقا»

«بالتأكيد يا سيدى»

«أسمع يا ستيفنس ليس هناك نية للاستغناء عن والدك. المطلوب منك فقط هو أن تعيد النظر في المهام المسندة إليه.»

وأظن أن «لورد دارلنجتون» قال حينذاك وهو ينظر مرة أخرى فى المجلد الذى يحمله عندما أشار إلى أحد العناوين:

«هذه الأخطاء قد تكون تافهة بحد ذاتها يا ستيفنس، ولكن لابد من أنك شخصيا مدرك لأهميتها. أيام الاعتماد على والدك قد انقضت. يجب ألا يكلف بأعمال فى مجال يمكن أن يؤدى أى خطأ فيه إلى إفشال مؤتمرنا القادم».

«بالتأكيد يا سيدى ، وأنا أفهم ذلك جيدا»

«حسنا! سأتركك تفكر فى الأمر إذن يا ستيفنس»

أن استطيع أن أؤكد أن «لورد دارلنجتون» قد لاحظ بالفعل وقوع والدى منذ أسبوع أو أكثر قليلا. كان سيادته يستضيف شخصيتين ـ سيدة ورجل ـ فى السقيفة الصيفية ورأى والدى بينما كان يقترب من المكان حاملا صينية محملة بمشروبات للترحيب بالضيفين. الأرض أمام السقيفة مرتفعة قليلا. وفى تلك الأيام، كانت توجد أربع درجات الآن حجرية مغطاة بالحشائش مستخدمة كسلم كما هى الآن. فى هذه المسافة البسيطة وقع والدى وتبعثر ما كان يحمله ـ إبريق الشاى والفناجين والأطباق والسانوتشات والكعك ـ على الحشيش ودرجات السلم. عندما تلقيت الخبر وهرعت إلى هناك كان سيادته وضيفاه قد أرقدا والدى على جنبه وجاؤوا بوسادة وسجادة خفيفة من السقيفة وغطوه بها.

كان أبى قد فقد الوعى واستحال لون وجهه رماديا بشكل غريب. أرسلوا يستدعون الدكتور «ميرديث»، ولكن كان من رأى سيادة «اللورد»

أن ينقلوا والدى من الشمس قبل وصول الطبيب. وأخيرا جاءوا بكرسى حمام ونقلوه بصعوبه إلى داخل القصر، عندما وصل الطبيب كان والدى قد أفاق إلى حد كبير وانصرف الطبيب بعد أن أبدى بعض الملاحظات العامة عن احتمال أن يكون قد أصيب بالإرهاق من كثرة العمل.

كانت القصة كلها مصدر إزعاج وحرج لوالدى، وعندما كنت أتحدث مع «لورد دارلنجتون» فى المكتبة كان يعود لكى يشغل نفسه... لم يكن أمرا سهلا أن أفتح مع سيادته موضوع تخفيف مسئوليات والدى. وضاعف من صعوبة الموقف أننى ووالدى كنا قد أصبحنا لا نتحاور كثيرا... ولا أعرف سببا لذلك. حتى عندما جاء للعمل فى «دارلنجتون هول» كانت العبارات الضرورية المتبادلة بيننا والمتعلقة بالعمل، تتم فى جو من التحفظ والضيق المشترك من الجانبين. وفى النهاية، وجدت أن أفضل خيار هو أن نتكلم على انفراد فى غرفته، وبذلك أعطيته فرصة لكى يفكر فى وضعه الجديد بعد أن أنصرف.

الأوقات الوحيدة التى يمكن أن يوجد فيها والدى فى غرفته هى أول الصباح وآخر الليل. اخترت أول الصباح، فصعدت إلى غرفته الصغيرة على السطح فى جناح الخدم، فى وقت باكر، وطرقت الباب برفق. وقبل تلك المناسبة كنت نادرا ما أدخل غرفته لأى سبب. وصدمنى من جديد فقرها، وحجمها الصغير. أتذكر شعورى فى ذلك الوقت وكأننى دخلت

زنزانة سجن، ولكن لعل ذلك كان بسبب الضوء الشحيح أو حجم الغرفة وجدرانها الجرداء . كان والدى قد أزاح الستائر وجلس حليقا بكامل لباسه الرسمى على حافة سريره، من حيث يمكنه أن يرقب السماء وهى تنشق عن فجر جديد.

كان لابد من أن أفترض على الأقل أنه كان يرقب السماء لأنه لم يكن هناك شيء آخر يمكن رؤيته من تلك النافذة الصغيرة سوى بلاط السطح وقنوات المزاريب. كان المصباح الزيتى بجوار سريره مطفأ، وعندما رأيته يحدق منزعجا فى المصباح الذى جئت به ليرشدنى على السلم المتداعى، خفضت نوره بسرعة. عندما فعلت ذلك لاحظت بشكل أكثر وضوحا أثر الضوء الشحيح الداخل إلى الغرفة، وكيف يبرز ملامح والدى الصخرية المتغضنة والتى كانت لا تزال مثيرة للخوف.

قلت وأنا أتنهد : «نعم.. كان لابد من أن أعرف أن والدى مستيقظ ومستعد لاستقبال اليوم».

قال وهو ينظر إلى من أعلى لأسفل متأملا:

«أنا مستيقظ منذ ثلاث ساعات»

«أرجو ألا يكون ذلك بسبب آلام المفاصل.»

«أنا أنام جيدا»

مد والدى يديه نحو الكرسى الوحيد الموجود فى الغرفة، وهو كرسى

خشبي، ثم وضع كلتا يديه على ظهره ووقف على قدميه. لم أعرف إن كان سبب انحناءة ظهره الضعف العام الذي اعتراه، أم طول الإقامة في هذه الغرفة ذات السقف المنحدر.

«جئت لأبلغك بشيء يا أبي»

«قله إذن.. فورا وبإيجاز، فلن أضيع الصباح في الاستماع إلى ثرثرتك»

«سأدخل مباشرة في الموضوع»

«ادخل في الموضوع وانته منه، بعضنا لديه أعمال لابد من أن يذهب لإنجازها»

«حسن . مادمت تريدني أن أوجز فسوف أحاول ذلك. الحقيقة أن صحة أبي قد وهنت... وبشكل متزايد، لدرجة أن مهام مساعد رئيس الخدم قد أصبحت أكبر من طاقته.

وسيادة "اللورد" يرى، كما أرى أنا أيضا - في الحقيقة - أن السماح لوالدي بالاستمرار في القيام بواجباته يمثل تهديدا دائما لسير العمل بسلاسة في القصر ، وبخاصة بالنسبة للمؤتمر الذي سيعقد في الأسبوع القادم». لم يبد على وجهه أي نوع من الانفعال أو رد الفعل في هذا الضوء الشحيح. واصلت كلامي: «بوجه عام، هناك شعور بأن والدي لايجب أن يكلف بعد اليوم بالخدمة على مائدة الطعام سواء في

وجود ضيوف أم لا.»

قال والدى بصوت هادئ غير متعجل: «لقد خدمت على المائدة على مدى أيام الخمس والأربعين سنة الأخيرة.»

قلت : «ثم إنه قد تقرر ألا يحمل أى صينية محملة بأى شىء ولو حتى لمسافة قصيرة، وعلى ضوء هذه التحديدات ومرعاة لاحترام والدى للدقة فقد كتبت هنا قائمة بالمهام التى سوف يقوم بها اعتبارا من اليوم.»

لم أكن فى الواقع راغبا فى إعطائه الورقة التى كانت بيدى فوضعتها على حافة السرير. نظر إليها بسرعة ثم حدق فىّ. حتى الآن ، كان وجهه خاليا من الانفعال ويداه مسترخيتين تماما على ظهر الكرسى. وسواء أكان فى جسمه انحناءة أم لا، كان من المستحيل ألا يشعر المرء بحضوره الجسدى ، ذلك الحضور الذى أعاد رجلين مخمورين إلى وعيهما داخل السيارة. وأخيرا قال: «أنا وقعت فى تلك المرة بسبب الدرجات ليس إلا ، فهى ليست مستوية.

لابد من أن يطلب أحد من «شيموس» أن يقوم بإصلاحها لكى لايحدث الشىء نفسه لشخص آخر.»

«صحيح . على أية حال ، هل أطمئن إلى أن والدى سيدرس ما فى هذه الورقة؟»

«لابد من أن يطلب من «شيموس» إصلاح الدرجات، وبالذات قبل أن يبدأ أولئك السادة الوصول من أوروبا.»

«فعلا يا والدى. حسن. نهارك سعيد»

ذلك المساء الصيفى الذى أشارت إليه «مس كنتون» فى رسالتها جاء سريعا بعد تلك المواجهة ـ وربما كان مساء ذلك اليوم نفسه. لا أستطيع أن أتذكر سبب ذهابى إلى الطابق العلوى حيث توجد غرف نوم الضيوف على امتداد الممر. وإن كنت أتذكر جيدا ـ كما قلت ـ كيف كان آخر ضوء للنهار يتسلل من الأبواب المفتوحة ويلقى بأشعته البرتقالية على أرضية الممر. وبينما كنت أمر أمام غرف النوم غير المستخدمة، تذكرت منظر «مس كنتون» واقفة وخلفها إطار نافذة كبيرة.

عندما أفكر فى ذلك وأتذكر الطريقة التى تكلمت بها مراراً عن والدى أثناء أيام عملها الأولى فى «دارلنجتون هول»، أستغرب كيف ظلت معها ذكرى ذلك المساء كل تلك السنوات. لاشك فى أنها كانت تشعر بشىء من الذنب ونحن ننظر إلى والدى أسفل القصر، كانت أشجار الحور تلقى بظلالها على معظم المساحة الخضراء ولكن الشمس كانت تضىء الزاوية البعيدة حيث ترتفع الحشائش صاعدة إلى السقيفة. وكان والدى يقف إلى جوار تلك الدرجات الحجرية الأربع مستغرقا فى التفكير ونسمة من الهواء تطير شعره.

وكما لاحظنا، تقدم ببطء شديد فوق الدرجات وعند أخرها استدار ونزل بسرعة أكبر. ثم استدار مرة أخرى وبقى ساكنا بضع ثوان يتأمل الدرجات أمامه. وفى النهاية صعد مرة أخرى بتأن شديد. فى هذه المرة، استمر فى سيره عبر المساحة المعشبة إلى أن وصل إلى السقيفة، ثم استدار ليسير ببطء وعيناه لاترتفعان عن الأرض . الحقيقة أننى لا أستطيع أن أصف سلوكه فى تلك اللحظة بأفضل مما فعلت «مس كنتون» فى رسالتها ، كان بالفعل كأنه يبحث عن جوهرة ثمينة وقعت منه هناك.

ولكننى أجدنى قد أصبحت مشغولا أكثر من اللازم بتلك الذكريات وقد يكون فى ذلك بعض الحماقة.

وهذه الرحلة الحالية تمثل بعد كل شىء فرصة نادرة بالنسبة لى لكى أستمتع تماما بجمال الريف الإنجليزى، وأدرك أننى سأندم كثيرا فيما بعد لو أننى تركت نفسى مشغولا بغيرها، والواقع أننى ألاحظ أن علىَّ أن أسجل هنا كل شىء عن رحلتى إلى هذه المدينة، علاوة على أن أذكر باختصار تلك الوقفة على جانب طريق التل، والتى كانت فى بدايتها تماما. وهى فرصة حقيقة إذا وضعت فى الاعتبار تلك المتعة التى تحققت وأنا أقود السيارة بالأمس.

لقد خططت للرحلة إلى «ساليسبرى» بعناية تامة، متجنبا كل الطرق

الرئيسية تقريبا، قد يبدو خط السير بالنسبة للبعض ملتفا أو غير مباشر دون داع، ولكنه يمكننى من مشاهدة عدد كبير من المناظر التى أوصت بها «مسز چى سيمونز» فى كتابها القيم. الطريق تحملنى فى معظم الوقت إلى أراض زراعية وسط عبق المروج الخضر، وكثيرا ما أجدنى أخفض من سرعة السيارة للاستمتاع برؤية جدول صغير أو واد أمر به ، وإن كنت ــ على ما أذكر ــ لم أنزل من السيارة مرة ثانية إلى أن اقتربت من «ساليسبرى» تماماً.

فى تلك المرة، كنت أتقدم على امتداد طريق مستقيمة وسط مروج خضراء فسيحة على كلا الجانبين . الأرض مفتوحة أمامى ومنبسطة فى تلك المنطقة بما يُمَكِّنُ من الرؤية لمسافة بعيدة فى جميع الاتجاهات، وكان برج كاتدرائية «ساليسبرى» واضحا أمامى على خط الأفق . نزلت عَلَىَّ حالة من الهدوء والسكينة وأعتقد أننى لذلك ، مرة أخرى، كنت أقود السيارة ببطء، وربما بسرعة لاتزيد عن خمسة عشر ميلاً فى الساعة. وكان ذلك أمرا جيدا ، لأننى تمكنت فى الوقت المناسب من رؤية دجاجة تقطع الطريق أمامى بتمهل. أوقفت السيارة على بعد قدم أو اثنين من الدجاجة التى وقفت هى الأخرى أمامى تماما. بعد لحظة، ولأنها لم تتحرك لجأتُ إلى آلة التنبيه، ولكن ذلك لم يكن له أى أثر سوى أن بدأت تنقر شيئا ما أمامها على الأرض.

مغضبا إلى حد ما، تهيأت للنزول من السيارة، وقبل أن تلمس قدمي الثانية الأرض سمعت صوت امرأة.

«معذرة يا سيدى!»

نظرت حولى فوجدتنى فى مواجهة كوخ ريفى تقف أمامه سيدة ترتدى مريلة، من المؤكد أن آلة التنبيه هى التى جعلتها تخرج مسرعة. مرت أمامى وحملت الدجاجة وراحت تهدهدها وهى تقدم اعتذاراتها مرة أخرى . وعندما طمأنتها لعدم حدوث أى ضرر قالت : «أشكرك لأنك توقفت ولم تدهس «نيللى». «نيللى» طيبة وهى تزودنا بأكبر بيض يمكن أن تراه فى حياتك. كان شيئا جميلا منك أن تتوقف، ولعلك كنت أنت أيضا فى عجلة من أمرك».

قلت وأنا أبتسم : «أبدا ... لست فى عجلة ، هذه أول مرة من سنوات عديدة يكون وقتى ملكى، ويمكن القول إنها تجربة ممتعة... أنا أقود السيارة للفسحة كما ترين»

«هذا جميل يا سيدى... وأعتقد أنك فى طريقك إلى ساليسبرى»

«نعم! أليس ذلك هو برج الكاتدرائية الذى يبدو من هناك ؟ يقال إنه بناء رائع! »

«فعلا يا سيدى ، بناء جميل جدا، والواقع أننى نادرا ما أذهب إلى هناك ولذا لايمكننى أن أقول كيف يبدو عن قرب . ولكننى أقول لك إننا

نشاهد برج الكنيسة من هنا كل يوم تقريبا، وأحيانا يكون الضباب كثيفا فلا نراه. ولكن .. كما ترى الآن، في يوم صحو كهذا يبدو المنظر رائعا! أنا ممتنة لك لأنك لم تدهس «نيللي». منذ ثلاث سنوات قتلت لنا سلحفاة بنفس الطريقة، وربما في المكان نفسه، وأسفنا لذلك جميعا»

«هذا فعلا أمر مؤسف»

«نعم يا سيدى ، البعض يقول : إننا نحن سكان الريف قد تعودنا رؤية الحيوانات وهى تُؤْذَى أو تقتل وهذا ليس صحيحا. ابنى الصغير ظل يبكى عدة أيام . جميل أنك توقفت وانتظرت «نيللى» يا سيدى. هل تتفضل لتناول فنجان من الشاى، بما أنك قد نزلت من السيارة؟ مرحبا بك يا سيدى، أهلا وسهلا . سيكون ذلك مفيدا لك فى طريقك»

«هذا كرم كبير منك، ولكننى أعتقد أننى لابد من أن أواصل طريقى. أريد أن أصل إلى «ساليسبرى» فى وقت مناسب لأتمكن من إلقاء نظرة على الأماكن الجميلة فى المدينة»

«عندك حق ياسيدى... شكرا لك مرة أخرى»

انطلقت بالسيارة مرة أخرى محافظا على سرعة منخفضة توقعا لمزيد من الحيوانات التى قد تعبر الطريق. لابد من أن أقول إن شيئا ما فى هذا اللقاء قد أنعش روحى. العطف البسيط الذى تلقيت عليه الشكر، والكرم الشديد الذى تلقيته فى المقابل، .. كل ذلك جعلنى أشعر بالتفاؤل

والإقبال على كل ما هو قادم فى الأيام التالية. كانت تلك هى حالتى المعنوية إذن عندما واصلت رحلتى إلى «ساليسبرى».

إلا أنى أشعر بضرورة العودة للحظة إلى موضوع والدى، فأنا يزعجنى أن أكون قد أعطيت انطباعا أننى عاملته بغلظة بخصوص قدراته المتدهورة.

لم يكن أمامى خيار أخر لتناول الموضوع على نحو مختلف عما تناولته به، كما أظن أنك ستوافقنى على ذلك مادمت قد شرحت لك مدى أهمية تلك الأيام. أى أننى أريد أن أقول إن المؤتمر العالمى الوشيك الذى كان سيعقد فى «دارلنجتون هول» لم يترك لنا فرصة للتساهل ولا لأن نحوم حول الموضوع . ومن المهم أن نتذكر أيضا أنه بالرغم من أن القصر كان سيشهد أحداثا أكثر، وعلى نفس الدرجة من الأهمية على مدى الخمس عشرة سنة التالية، وبالرغم من أن مؤتمر الثالث والعشرين من مارس كان هو أولها، إلا أننى لم يكن لدى خبرة كافية، ولم أكن أميل إلى ترك أمور كثيرة للمصادفة. والحقيقة أننى كثيرا ما أعود بذاكرتى إلى ذلك المؤتمر، لأكثر من سبب وأراه نقطة تحول فى حياتى. فهو من ناحية ، يعتبر اللحظة التى وصلت فيها وفى مهنتى إلى منصب رئيس الخدم. لا أقصد بهذا طبعا أننى أصبحت رئيس خدم عظيما، فمن الصعب أن أصدر أحكاما من هذا القبيل. ولكن لو شاء أحد أن

يقول إننى قد حققت ولو قدرا ضئيلا من تلك الصفة.. «الكرامة».. فى حياتي العملية، فلعله يريد أن يعود إلى ذلك المؤتمر الذى عقد عام ١٩٢٣، فهو اللحظة التى ظهر فيها لأول مرة مالدى من قدرات لامتلاك تلك الصفة.

كان المؤتمر أحد الأحداث الحاسمة في تطورى الشخصى، ويمثل مرحلة تحد تجعل المرء ينطلق بأقصى إمكانياته ويتجاوزها، وبعدها يكون لديه معايير جديدة يحكم بها على نفسه. وهو مؤتمر لايُنسى لأسباب أخرى مختلفة كما أود أن أوضح هنا.

كان مؤتمر ١٩٢٣ ذروة تخطيط طويل من جانب «لورد دارلنجتون»، والحقيقة أننى عندما أستعيد الأحداث ، أرى بوضوح كيف كان سيادته يتحرك نحو تلك النقطة منذ ثلاث سنوات وربما أكثر.

وكما أتذكر فإنه لم يكن فى البداية مشغولا بمعاهدة السلام عندما عقدت فى أعقاب الحرب العظمى، وأعتقد أن من الإنصاف القول إن اهتمامه لم يكن مدفوعا إلى حد كبير بتحليل المعاهدة، بل بسبب صداقته للهر «كارل هاينز بريمان».

الهر «بريمان» زار «دارلنجتون هول» بعد الحرب بفترة قصيرة جدا وكان لا يزال فى الخدمة العسكرية وكان من الواضح أن بينه وبين "لورد دارلنجتون" صداقة حميمة.

لم يكن ذلك مفاجئا لى، حيث كان يمكن أن ألحظ من نظرة واحدة أن السيد «بريمان» رجل فى غاية الدماثة. بعد أن ترك الجيش الألمانى، كان يجيء بانتظام على مدى العامين التاليين ، وكان من السهل أن نلاحظ ـ مع بعض الانزعاج ـ ذلك التدهور الذى ينتابه من زيارة لأخرى. ثيابه تزداد رثاثة وجسمه يصبح أكثر نحولا، وتبدو فى عينيه نظرة حيرة وتساؤل. وفى زياراته الأخيرة كان يمضى فترات طويلة ذاهلا عن وجود سيادة "اللورد" معه، وأحيانا كان لايعى أن الكلام موجه إليه. كان يمكن أن أستنتج أن «الهر بريمان» يعانى من مرض عضال ، لولا بعض الملاحظات التى أبداها سيادة "اللورد" فى ذلك الوقت، مؤكدا أن الأمر لم يكن كذلك... أى أن الرجل لم يكن ليعانى من أى مرض.

لابد من أننا كنا فى نهاية عام ١٩٢٠ عندما قام "لورد دارلنجتون" بأول رحلة من رحلاته العديدة إلى «برلين» وأستطيع أن أتذكر الأثر العميق لذلك عليه . بعد عودته ظل جو ثقيل من الانشغال والهم مخيما عليه لعدة أيام، وأذكر أنه مرة قال لى عندما سألته كيف كانت رحلته:

«كانت مزعجة يا «ستيفنس». مزعجة جدا. من العار علينا أن نعامل عدوا مهزوما على هذا النحو. ذلك انتهاك تام لتقاليد هذا البلد».

ولكن هناك ذكرى أخرى ظلت حية معى، وهى متعلقة بالأمر نفسه.

قاعة الاحتفالات القديمة ذات السقف العالى الرائع، والتى لا يوجد بها طاولة الآن، أصبحت اليوم مناسبة لـ «مستر فاراداى» وتفى بأغراضه كقاعة عرض. أيام سيادة "اللورد" كانت القاعة مطلوبة باستمرار وكانت الطاولة الضخمة الموجودة بها تستوعب ثلاثين ضيفا أو أكثر لتناول العشاء، وهى بالفعل واسعة وكان بالإمكان ـ عند الضرورة ـ إضافة عدد آخر من الطاولات لاستيعاب خمسين ضيفا. فى الأيام العادية كان «لورد دارلنجتون» يتناول وجباته، كما يفعل «مستر فاراداى» اليوم، فى غرفة العشاء حيث الجو أكثر حميمية، وهى تتسع لحوالى اثنى عشر شخصا.

ولكن فى تلك الليلة الشتوية التى أتذكرها جيدا، كانت غرفة العشاء مهجورة لسبب ما، وكان "لورد دارلنجتون" يتناول عشاءه مع ضيف واحد ـ أعتقد أنه كان «سير ريتشارد فوكس» زميله منذ أيام عمل سيادته فى وزارة الخارجية ـ فى قاعة الاحتفالات الواسعة. ولاشك فى أنك ستوافقنى عندما أقول إن أصعب المواقف الخاصة بالخدمة على العشاء ، هى عندما يكون هناك اثنان فقط .

أنا شخصيا أفضل خدمة شخص واحد حتى وإن كان غريباً ، ولكن عندما يكون هناك اثنان، وحتى عندما يكون أحدهما مخدومك ، يصبح من الصعب تحقيق ذلك التوازن بين اليقظة والتظاهر بعدم الوجود، ذلك التوازن الضرورى فى عمل الخادم. فى مثل هذا الموقف، نادرا ما يكون

المرء متحررا من الشك فى أن وجوده مُقَيِّدٌ للحديث. فى تلك المرة، كان معظم الغرفة مظلما ، وكان الرجلان يجلسان جنبا إلى جنب فى منتصف الطاولة تقريبا. ولأن الطاولة كبيرة وعريضة كان من الصعب أن يجلسا متقابلين. كانا جالسين فى بقعة الضوء التى تلقيها شموع الطاولة والمدفأة التى تطقطق فى الناحية الأخرى. حاولت أن أجعل وجودى غير ملحوظ بأن وقفت فى الظلام بعيدا عن الطاولة ، وهذا أكثر مما أفعله عادة. كان لتلك الفكرة عيبها بالطبع لأننى عندما كنت أتقدم فى كل مرة نحو الضوء لأخدم السيدين، كانت أقدامى تحدث صدى طويلا قبل أن أصل إليهما، فتلفت النظر لاقترابى بشكل واضح أما ميزتها الوحيدة فكانت أنها تجعل هيئتى واضحة جزئيا بينما أنا ثابت فى مكانى.

وبينما أنا وأقف هكذا فى الظلام على مقربة من المكان الذى يجلس فيه السيدان فى منتصف الطاولة بين صفوف المقاعد الخالية، سمعت «لورد دارلنجتون» يتكلم عن «الهر بريمان». كان صوته هادئا وناعما كعادته، يتردد صداه وسط الجدران العالية. سمعته يقول : «كان عدوى، ولكنه كان يتصرف دائما تصرف «الجنتلمان» . كلانا كان يعامل الآخر بشكل محترم ومهذب على مدى ستة أشهر ونحن يقصف كل منا الآخر. كان «جنتلمانا» يؤدى واجبه، ولم أكن أحمل له أى حقد أو ضغينة. قلت له : انتبه! نحن أعداء وسوف أحاربك بكل ما أملك من وسائل . ولكننا

سنشرب كأسا معا بعد أن ينتهي هذا العمل التعس.

الشيء التعس هو أن تلك المعاهدة جعلتنى كذابا. أقصد أننى قلت له إننا لن نكون أعداء بمجرد انتهائها.

ولكن .. كيف يمكن أن أواجهه الآن أو أنظر فى وجهه وأقول له إن ذلك قد تحقق؟»

وبعد وقت قصير، فى تلك الليلة نفسها، قال سيادته بجدية وهو يهز رأسه: «لقد خضت هذه الحرب لأحافظ على العدالة فى هذا العالم. وعلى قدر ما فهمت لم أكن مشاركا فى ثأر ضد الجيش الألمانى.»

واليوم، عندما يسمع المرء الأقاويل عن سيادته، عندما يسمع المرء مثل تلك التوهمات والتخرصات عن دوافعه كما يحدث كثيراً هذه الأيام، يسرنى أن أستعيد ذكرى تلك اللحظة عندما كان يردد تلك الكلمات المؤثرة فى قاعة الاحتفالات الخالية.

ومهما كانت التعقيدات التى ظهرت فى مسيرة سيادته على مدى السنوات التالية، إلا أننى لايمكن أن أشك أبدا فى أن الرغبة فى رؤية العدالة تسود العالم «كانت فى الصميم من كل أعماله.

ولم يمر وقت فى ذلك المساء، حتى جاءت الأخبار الحزينة أن «الهر بريمان» أطلق الرصاص على نفسه فى القطار بين «هامبورج» و «برلين» . وبالطبع ، كان سيادته حزينا جدا وقام فى الحال بوضع خطة

لإرسال المعونات ، ومواساته لـ «فراو بريمان». إلا أنه بعد عدة أيام من المحاولة والسعى الذى بذلته أنا أيضا لتقديم المساعدة، لم يكن سيادته قادرا على اكتشاف مكان أحد من أسرة «الهر بريمان». ويبدا أن سيادته كان بلا سكن لفترة ما، وأن أسرته تشتتت. وأنا أعتقد جازما أنه حتى بصرف النظر عن هذا الخبر المأساوى، فإن «لورد دارلنجتون» كان سيمضى فى نفس المسار الذى اتخذه. كانت الرغبة فى أن يرى نهاية للظلم والمعاناة متأصلة فى طبيعته بعمق ، وكان لا يمكن أن يكون غير ذلك . وما حدث فى الأسابيع التى تلت موت «الهر بريمان» هو أن سيادته بدأ يخصص ساعات أكثر وأكثر لقضية الأزمة التى حدثت فى ألمانيا. مشاهير ورجال متنفذون أصبحوا من الزوار المنتظمين للقصر ، منهم على ما أذكر « لورد دانيلز» و« مستر چون مانيارد كينز» و«مستر هـ .چ. ويلز » – المؤلف الشهير – إلى جانب آخرين من المحظور أن أذكر أسماءهم هنا، كانوا يجلسون كثيراً مع سيادته يتناقشون بالساعات.

بعض الزائرين بالطبع، لم يكن مسموحا بإعلان أسمائهم ولدرجة إعطائى تعليمات بأن العاملين لايجب أن يعرفوا شيئا عن هوياتهم أو النظر إليهم أحيانا ـ وأنا أقول ذلك ببعض الفخر والاعتزاز ـ إلاَّ أن «لورد دارلنجتون» لم يحاول أبدا أن يخفى شيئا عن عينى وأذنى . أذكر

أن البعض كان يتوقف أحيانا عن الكلام فى منتصف الجملة وينظر إلىّ، وكان سيادته يقول: هذا جيد، تستطيع أن تقول أى شىء أمام "ستيڤنس"... بكل تاكيد...»

وعلى مدى العامين اللذين أعقبا وفاة «الهر بريمان» ، نجح سيادته هو و «السير ديڤيد كاردينال» الذى أصبح أقرب حلفائه فى ذلك الوقت، فى عمل تحالف عريض من الأشخاص الذين يشتركون فى الاعتراف بأن الوضع فى ألمانيا لا ينبغى أن يستمر على ما هو عليه. ولم يكن أولئك من البريطانيين أو الألمان فقط، بل كان بينهم بلچيك وفرنسيون وطليان وسويسريون، وكان منهم الدبلوماسيون وكبار الساسة ورجال الدين والعسكريون المتقاعدون والكتاب والمفكرون.

كان البعض ــ مثل سيادته ــ يشعر بأن اللعب فى «ڤرساى» لم يكن نظيفا، وأن الاستمرار فى عقاب أمة من أجل حرب قد انتهت ، ليس أمرا أخلاقيا. صحيح أنهم كانوا يبدون اهتماما أقل بألمانيا وسكانها ، ولكنهم كانوا يرون أن الفوضى الاقتصادية فى البلاد قد تنتشر بسرعة مخيفة فى العالم كله، إن لم يتم إيقافها.

وبنهاية عام ١٩٢٢، كان سيادته يعمل وفى ذهنه هدف واضح، وهو أن يجمع تحت سقف «دارلنجتون هول» أكثر المسئولين نفوذا من الذين حصل على دعمهم لفكرة عقد مؤتمر دولى «غير رسمى»، مؤتمر يناقش البنود

المجحفة فى معاهدة "فرساى". ولكى يكون ذا قيمة، فإن مؤتمرا كذلك يجب أن يكون له وزن وتأثير حاسم على المؤتمرات الدولية «الرسمية» التى عقد العديد منها بغرض مراجعة الاتفاقية ولم تخلف سوى الارتباك والمرارة.

كان رئيس وزرائنا فى تلك المرحلة مستر «لويد جورج» قد دعا إلى مؤمر كبير آخر يعقد فى إيطاليا فى ربيع ١٩٢٢، وكان هدف سيادته فى البداية تنظيم تجمع فى «دارلنجتون هول» لتوفير نتيجة مرضية لهذا الحدث. وبالرغم من الجهد الشاق الذى قام به مع «السير ديڤيد»، إلا أن ذلك كان موعدا نهائيا صعبا. ولكن بسبب انفضاض مؤتمر «مستر جورج» دون الوصول إلى قرارات، راح سيادته يفكر فى مؤتمر كبير آخر تقرر أن يعقد فى سويسرا فى العام التالى. وأتذكر أننى ذات صباح فى تلك الفترة، وأنا أحمل قهوة «لورد دارلنجتون» إليه فى قاعة الإفطار، أنه قال لى باشمئزاز وهو يطوى جريدة «التيمز»:

«فرنسيون! أريد أن أقول يا «ستيڤنس» إنهم بالفعل ليسوا سوى فرنسيين!»

«نعم يا سيدى»

«وعندما يفكر المرء فى أن العالم يمكن أن يرانا معهم نراعا فى نراع، يتمنى أن يغتسل... لابد من أن يغسل نفسه لمجرد التفكير فى ذلك».

«نعم يا سيدى»

«وعندما كنت فى "برلين" آخر مرة يا «ستيفنس»، جاءنى البارون «أوفيراث» أحد أصدقاء والدى القدامى وقال: «لماذا تفعلون ذلك بنا؟ ألا ترون أننا لايمكننا أن نستمر هكذا؟»

كنت فعلا أود أن أقول له ذلك، ولكنى أعتقد أن المرء لايمكنه أن يفعل شيئا كهذا. لا يجب أن نذكر حلفاءنا بهذا السوء أو نتكلم عنهم بمثل هذا الأسلوب.

ولكن لأن الفرنسيين هم الأكثر عنادا وتصلبا فى موضوع تخليص ألمانيا من قسوة وظلم معاهدة "ڤرساى"، أصبحت هناك حاجة ملحة لأن يكون هناك فرنسى واحد على الأقل ضمن تجمع «دارلنجتون هول»، ويكون له تأثير واضح على سياسة بلاده الخارجية.

والحقيقة أننى سمعت سيادته عدة مرات يعبر عن رأيه قائلا إنه بدون إسهام شخصى كذلك، فإن مناقشة أى موضوع يتعلق بألمانيا لن تكون أكثر من فضفضة شخصية لا تأثير لها. وبناء على ذلك شرع سيادته هو و«سير ديڤيد» فى هذه الاستعدادات والتحضيرات التى تعبر عن إصرار وعزم فى وجه الإحباطات المتكررة. فقد أرسلا العديد من الرسائل والبرقيات، كما قام سيادته شخصيا بثلاث رحلات إلى "باريس" فى مدى شهرين. وفى النهاية، بعد أن تأكدا من موافقة شخصية فرنسية بارزة ـ سأسميه مسيو ديبو ـ على حضور المؤتمر

على أساس واضح، وهو أنه يحضره بصفة غير رسمية، تم تحديد الموعد، وكان ذلك فى شهر مارس ١٩٢٣.

ومع اقتراب الموعد، كانت الضغوط تتزايد علىّ، رغم أنها بطبيعتها كانت أقل من تلك الواقعة على سيادته. كنت أعرف جيدا أن أى إقامة غير مريحة لأى ضيف فى «دارلنجتون هول» سيكون لها أثر كبير: إلى جانب ذلك فإن عدم تأكدى من العدد المشارك جعل تخطيطى لتلك المناسبة أكثر صعوبة.

ولأن المؤتمر كان على مستوى عال جدا، كان المشاركون ثمانية عشر فقط من الرجال وسيدتان: «كونتيسة» ألمانية، والسيدة المهيبة «اليانور أوستن» التى كانت مازالت مقيمة فى "برلين" حتى ذلك الحين. ولكن كل واحد من الضيوف سيحضر معه خدما وسكرتارية ومترجمين، ولم تكن هناك أية إمكانية لمعرفة العدد المتوقع بالضبط. والأصعب من ذلك أن عددا من المشاركين كان سيحضر قبل الأيام الثلاثة المحددة للمؤتمر بغرض التحضير والتعرف على الآخرين، بالرغم من أن مواعيد حضورهم أيضا لم تكن معروفة لنا بالتحديد.

كان من الواضح إذن أن العاملين لابد من أن يعملوا بجد وأن يكونوا على أهبة الاستعداد وعلى درجة عالية من المرونة.

وكنت أشعر أحيانا فى الواقع بأن ذلك التحدى الكبير لايمكن أن

نتغلب عليه سوى بالاستعانة بعدد إضافى من العامين من الخارج . وبصرف النظر عن خشية سيادته من انتشار الثرثرة، فقد استبعدت هذا الخيار خوفا من وقوع أخطاء من عناصر غير معروفة قد تكلفنا كثيرا . وهكذا بدأت أحضر للأيام القامة كأننى چنرال يحضر لمعركة. وضعت خطة عمل محكمة لفريق الخدم تضع فى الاعتبار كافة التوقعات والاحتمالات: درست مكامن الضعف لدينا، وفكرت فى خطط طوارئ فى حال حدوث أى خطأ . تكلمت مع العاملين مثل قائد عسكرى يرفع معنويات جنوده، وذلك لاستثارة حماسهم وإقناعهم بأنهم بالرغم من العمل الشاق، إلا أنهم سيشعرون بالفخر لأنهم يؤدون واجبهم. قلت لهم : «تحت سقف هذا المبنى سيتم صنع التاريخ». ولأنهم كانوا يعرفون أننى شخص غير معروف بالمبالغة أدركوا أنهم كانوا مقبلين على شيء شديد الأهمية.

ستفهم إذن شيئا عن الجو العام الذى كان سائداً فى أرجاء «دارلنجتون هول»، عندما وقع والدى أمام السقيفة، ـ ومعنى أن يحدث ذلك قبل أسبوعين من وصول أول ضيوف المؤتمر ـ وما أعنيه بقولى إنه لم تكن هناك إمكانية لترك أى شيء للمصادفة. اكتشف والدى بسرعة طريقة لكى يروغ من تحديد مهامه، عندما قرروا ألا يحمل أى صينية مكدسة بأشياء كثيرة. منظره وهو يدفع أمامه عربة "ترولى"

عليها أدوات ومواد التنظيف موضوعة بشكل مرتب حول أباريق الشاى والأكواب والفناجين لدرجة أنها كانت تبدو أحيانا مثل عربة يد بائع جوال، منظره هذا أصبح مألوفا فى القصر. واضح أنه كان مازال لايستطيع أن يقتنع بالتخلى عن واجباته فى غرفة الطعام، ولكن "الترولى" مكنه من إنجاز أشياء كثيرة. والحقيقة أنه مع اقتراب موعد التحدى الكبير، أقصد المؤتمر، اعترى والدى تغير هائل . وكأن قوى خارقة للطبيعة تملكته فجعلته يصغر عشرين عاما. تلاشت من وجهه النظرة الغائرة التى كانت له فى الأعوام الأخيرة ، وكان يقوم بواجباته بحمية الشباب لدرجة تجعل أى شخص غريب يتصور أن هناك أكثر من شخص يدفع عربات "ترولى" أمامهم فى أروقة وممرات «دارلنجتون هول» . أما بالنسبة لـ «مس كنتون» فأنا أتذكر ذلك التوتر المتنامى وأثره الملحوظ الذى كان يبدو عليها فى تلك الأيام . أذكر مثلا تلك المرة عندما التقيتها فى الممر الخلفى. ذلك الممر الذى يعتبر العمود الفقرى لأجنحة العاملين فى "دارلنجتون هول"، وكان دائما مكانا كئيبا إلى حد ما نتيجة قلة الضوء الذى يصل إليه بالنهار بسبب طوله الكبير. حتى فى أيام الصحو كان يبدو مظلما ويكون السائر فيه مثل السائر فى نفق.

لو لم أتعرف على وقع أقدام «مس كنتون» على الأرضية الخشبية

وهى تقترب منى فى ذلك اليوم، لكان يمكن أن أعرفها من هيئتها. توقفت أنا عند أحد الأماكن القليلة التى يخترقها شعاع ضوء ثم قلت وهى تقترب منى: «مس كنتون .. من فضلك..»

«نعم يا مستر ستيفنس»

«أرجو أن ألفت انتباهك إلى أن أغطية الأسِرَّة فى الدور العلوى يجب أن تكون جاهزة بعد الغد».

«كل شىء تحت السيطرة يا مستر ستيفنس»

«يسعدنى أن أسمع ذلك، ولكنه مجرد شىء تذكرته ليس إلا»

وهممت بمواصلة سيرى ولكن «مس كنتون» لم تتحرك من مكانها. تقدمَتْ خطوة أخرى نحوى بحيث وقع شعاع ضوء على وجهها فكان يمكن أن أرى تعبير الغضب عليه.

« من أسف يا "مستر ستيفنس" أننى مشغولة جدا الآن، وليس لدى لحظة واحدة. لو كان لدى مثلك متسع من الوقت لأسعدنى أن أجول فى هذا القصر، لكى أُذَكِّرك بواجباتك الكثيرة».

«ليس هناك ما يدعو للغضب هكذا يا «مس كنتون»، لقد شعرت فقط بالرغبة فى معرفة أن ذلك لم يغب عن اهتمامك».

«هذه هى المرة الرابعة يا «مستر ستيفنس» فى اليومين الأخيرين تشعر فيها بهذه الرغبة، وغريب أن أجد لديك متسعا من الوقت لكى

تجول هكذا فى أرجاء المكان وتزعج الأخرين بمثل تلك التعليمات التى لامبرر لها».

«لوظننت للحظة يا "مس كنتون" أن لدى متسعا من الوقت، فإن ذلك يوضح عدم خبرتك أكثر من أى شئ آخر. أنا واثق من أنك فى السنوات القادمة ستكون لديك فكرة أفضل عما يدور فى مكان كهذا».

«تتكلم كثيرا عن عدم خبرتى يا «مستر ستيفنس»، وبالرغم من ذلك لاتستطيع أن تحدد لى عيبا أو نقصا واحد فى عملى. ولاشك فى أنك كنت ستفعل ذلك وبالتفصيل منذ وقت بعيد. والآن لدى أعمال كثيرة يجب إنجازها وسأكون شاكرة لو أنك لم تتبعنى وتقاطعنى هكذا. أما إذا كان لديك وقت كثير لاتعرف ماذا تفعل به. فأنا أقترح عليك أن تخرج لتتمشى فى الهواء الطلق، وسيكون ذلك مفيدا جدا لك.»

انصرفت من أمامى وهى تدق الأرض بقدميها، أما أنا فقررت ألا أترك الأمر يتطور أكثر من ذلك فمضيت فى طريقى. لم أكد أصل إلى مدخل المطبخ حتى سمعت وقع أقدامها عائدة نحوى.

قالت: «والحقيقة يا "مستر ستيفنس" أننى أرجو من الآن فصاعدا ألا تتكلم معى مباشرة».

«ماذا تقولين يا مس كنتون؟»

«عندما يكون من الضرورى أن تبلغنى رسالة أرجو أن يكون ذلك عن

طريق طرف ثالث . أو يمكنك أن تكتب مذكرة وترسلها إلىّ. أعتقد أن علاقة العمل بيننا ستكون أفضل».

«مس كنتون...»

«أنا مشغولة جدا يا"مستر ستيفنس". مذكرة مكتوبة إن كانت الرسالة معقدة. وربما قد تفضل أن تتكلم مع «مارتا» أو «دوروثى» أو أية واحدة من العاملات اللاتى تثق بهن . أما الآن فلابد من أن أعود لعملى وأتركك لجولاتك.»

وبالرغم من أن تصرف «مس كنتون» كان مزعجا هكذا، إلا أننى لم أعره اهتماما كبيرا، لأن أول الضيوف كان قد وصل. الممثلون القادمون من الخارج كان أمامهم يومان أو ثلاثة ،الضيوف الثلاثة الذين كان يشير إليهم سيادته على أنهم «فريقه المحلى» ـ وزيرا خارجية يحضران المؤتمر بشكل غير رسمى، و"السير ديفيد كاردينال" ـ فكانوا قد وصلوا مبكرين، لكى يجهزوا للمؤتمر على قدر استطاعتهم . وكالعادة، لم تكن هناك محاولات تذكر لإخفاء شىء عنى عندما أدخل أو أخرج من الغرف المختلفة حيث كان أولئك السادة يتناقشون فيها بعمق . وهكذا لم يكن ممكنا الخروج بانطباع معين عن الحالة المعنوية العامة فى هذه المرحلة التحضيرية للمؤتمر.

وبالطبع فإن سيادة "اللورد" وزملاءه كانوا معنيين بأن يبلغ بعضهم

الآخر، وبشكل دقيق وموجز، عن الأشخاص المتوقع حضورهم، إلا أن التركيز كان على شخص بعينه وهو «المسيو دبيو» الفرنسي، وعلى توجهاته وما يحب ومايكره.

حدث أن دخلت ذات مرة إلى غرفة التدخين فسمعت أحد السادة يقول: «إن مصير أوروبا قد يكون متوقفا على قدرتنا على أن نجعل «مسيو دبيو» يوافق على هذه النقطة» . وكان في خضم تلك المناقشات، أن عهد إليّ سيادة "اللورد" بمهمة من الغريب أن تظل عالقة بذاكرتي إلى اليوم، إلى جانب ما وقع من أحداث في ذلك الأسبوع الاستثنائي.

استدعاني «لورد دارلنجتون» إلى مكتبه، ولاحظت لأول وهلة أنه كان متوترا إلى حد ما . جلس إلى مكتبه وفتح كتابا أمامه كعادته ـ كان هذه المرة كتاب أشهر الشخصيات في التاريخ ـ وراح يقلب إحدى الصفحات عدة مرات. بدأ متظاهرا بعدم الاكتراث: «هيه يا ستيڤنس!»، ثم بدت عليه الحيرة، لا يعرف كيف يكمل عبارته. بقيت في مكاني متأهبا لإزالة القلق عنه عند أول فرصة. راح يقلب الصفحة للحظة، وانحنى لكي يفحص أحد العناوين ثم قال:

«ستيڤنس... أعرف أنه شيء غير عادي ومع ذلك أطلب منك أن تفعله».

«نعم يا سيدي؟»

«الحقيقة أن هناك أشياء كثيرة مهمة تشغلنى الآن».

«يسرنى أن أكون مفيدا وأن أقوم بأية مساعدة يا سيدى»

«أسف أن أطلب منك شيئا كهذا يا «ستيفنس»، وأعرف أنك لابد من أن تكون مشغولا جدا أنت أيضا، ولكننى لا أعرف كيف يمكن أن يتم ذلك»

انتظرت لحظة، بينما أعاد سيادته كتاب «أشهر الشخصيات»

ثم قال دون أن يرفع رأسه :

«أعتقد أنك ملم بحقائق الحياة»

«ماذا يا سيدى؟»

«حقائق الحياة ياستيفنس . الطيور ... النحل... أنت ملم بذلك . أليس كذلك؟»

«أخشى ألا أكون قد فهمت قصدك يا سيدى»

«دعنى أكشف أوراقى يا "ستيفنس." «السير ديفيد» صديق قديم جدا، وكان مهما جدا فى تنظيم هذا المؤتمر. ويمكن أن أقول إن لولاه لما تمكنا من الحصول على موافقة «مسيو ديبو» على الحضور.

«نعم يا سيدى».

«إلا أن لـ "سير ديفيد" جانبه الهزلى يا "ستيفنس". وربما تكون قد لاحظت ذلك بنفسك. لقد أحضر ابنه «ريناله» معه ليكون سكرتيرا له.

والحقيقة أنه خاطب وسوف يتزوج . أقصد «رينالد» الصغير.»

«نعم يا سيدى»

«سأصل إلى النقطة المهمة يا "ستيفنس". أنا بالمناسبة عراب الشاب الصغير. وعليه فقد طلب منى «سير ديفيد» أن أشرح له حقائق الحياة.»

«نعم يا سيدى»

«سير ديفيد» يجد الأمر مخيفا... له رهبة.. إلى حد ما، ويشك فى أن بإمكانه إنجازه قبل يوم زفاف «رينالد».

«نعم يا سيدى»

«والحقيقة أننى مشغول جدا يا"ستيفنس" ولابد من أن «سير ديفيد» يعلم ذلك، إلا أنه طلب منى أن أقوم بالمهمة». ثم توقف سيادته عن الكلام وراح يقرأ فى الصفحة الموجودة أمامه.

قلت : «هل أفهم من ذلك يا سيدى أنك تريدنى أن أنقل المعلومات إلى الشاب؟»

«إن كان ذلك لايثقل عليك يا «ستيفنس». إنه موضوع يشغل تفكيرى ويرهقنى . «السير ديفيد» يسألنى كل ساعتين تقريبا إن كنت قد فعلت ذلك أم لا.»

«فهمت يا سيدى . لابد من أن يكون ذلك مرهقا فى مثل هذه

الظروف.»

«هذا بالطبع خارج نطاق واجباتك يا ستيفنس»

«سأبذل قصارى جهدى ياسيدى، إلا أننى قد أجد صعوبة ما فى اختيار اللحظة المناسبة لنقل مثل هذه المعلومات.»

«ساكون شاكرا لمجرد المحاولة يا "ستيفنس". هذا لطيف منك. اسمع ... لا داعى للكلام عن هذا الموضوع. انقل إليه المعلومات الضرورية فقط وانس الحكاية. الأسلوب البسيط هو الأفضل. هذه نصيحتى يا ستيفنس»

«نعم يا سيدى... سأبذل كل جهدى»

«شكرا جزيلا يا "ستيفنس". دعنى أعرف كيف ستنجح فى ذلك.»

لابد من أن تتوقع أننى كنت قد فوجئت بهذا الطلب، وكان من الطبيعى أن أفكر فيه. ولأنه جاء وأنا فى قمة انشغالى قررت أن أنجزه فى أقرب فرصة حتى أفرغ منه.

وأذكر أننى بعد ساعة واحدة من تكليفى بهذه المهمة لاحظت وجود "مستر كاردينال" الأصغر بمفرده فى المكتبة جالسا على طاولة، ومستغرقا فى بعض الأوراق. بتفحص الشاب عن قرب، كان من السهل إدراك الصعوبة التى تنتاب سيادة "اللورد" وتنتاب والد الشاب بهذا الخصوص. كان الابن الروحى لسيادة "اللورد" يبدو طالبا مجتهدا..

وتبدو على ملامحه سمات الجدية، وكنت أُفَضِّلُ أن يكون شابا خاليا من الهموم، وأكثر طيشا ليتناسب ذلك مع الأمر المطلوب. على أية حال، لأنني كنت قد قررت أن أنتهي من ذلك على وجه السرعة، تقدمت داخل المكتبة ووقفت بالقرب من الطاولة التي يجلس عليها .. وسعلت. «عفوا يا سيدي .. لدي رسالة أود أن أنقلها إليك»، رفع "مستر كاردينال" رأسه عن الأوراق التي أمامه وقال: «حقا؟ رسالة من والدي؟»

«نعم يا سيدي .. بالضبط»

«دقيقة واحدة» ، ومد الشاب يده إلى حقيبة صغيرة كانت ملقاة عند قدميه وأخرج دفترا وقلما وقال:

«هيا ... بسرعة يا ستيفنس». سعلت مرة أخرى وحاولت أن يكون صوتي محايدا قدر الاستطاعة وأنا أقول: «سير ديفيد» يريدك أن تعرف يا سيدي أن السيدات والسادة مختلفون في نواح كثيرة» وتوقفت قليلا لكي أجد العبارة التالية، لأن «مستر كاردينال» تنهد قائلا: «أعرف ذلك جيدا يا ستيفنس هلا دخلت في الموضوع مباشرة؟» «أنت تعرف يا سيدي؟»

«إن والدي دائم الاستخفاف بي. لقد قرأت وبحثت كثيرا في هذا المجال!»

«هكذا إذن يا سيدي؟» .

«أنا لم أفكر فى شىء غير هذا الموضوع طيلة الشهر الماضى تقريبا»

«حقا يا سيدى! فى هذه الحال لا ضرورة إذن لرسالتى»

«يمكنك أن تؤكد لوالدىَ أننى ملم بذلك جيدا. وهذه الحقيبة- ثم ركلها بقدمه- مليئة بمذكرات ومعلومات عن كل ما قد يتخيله المرء»

«هكذا إذن يا سيدى !»

أعتقد أننى قد فكرت بالفعل فى كل ما يمكن أن يدور بالعقل البشرى. أرجو أن تؤكد ذلك لوالدى»

«سأفعل ذلك يا سيدى!»

بدا أن "مستر كاردينال" قد هدأ واسترخى قليلا. ثم ركل حقيبته مرة أخرى - الحقيبة التى شعرت بأننى لابد من أن أغض الطرف عنها- وقال:

«ربما تتساءل لماذا لا أتخلى عن هذه الحقيبة دائما. حسن! ها أنت ذا تعرف الآن. لك أن تتخيل لو أن شخصا ما فتحها بالخطأ!»

سيكون ذلك أمرا محرجا يا سيدى!»

«طبعا»، ثم جلس فجأة، «إلا إذا كان الوالد قد جاء بشىء جديد يريدنى أن أفكر فيه»

«لا أتخيل ذلك يا سيدى»

«لا؟ لا شيء بخصوص ذلك المدعو «ديبو»؟

«لا أظن يا سيدى!»

كنت أبذل قصارى جهدى لكيلا أكشف شيئا من قلقى لأن الأمر الذى كنت أعتقد أنه قد انتهى، كان فى الحقيقة ما زال مجهولا أمامى .. ولم أقترب منه. وأعتقد أننى كنت أستجمع أفكارى لبذل جهد آخر، عندما قام الشاب فجأة ممسكا بحقيبته متشبثا بها وهو يقول:

« أعتقد أننى لابد من أن أخرج فى الهواء الطلق قليلا، شكرا لمساعدتك يا ستيفنس»

كنت أنوى أن أجرى مقابلة أطول مع «مستر كاردينال» بسرعة، ولكن ذلك كان مستحيلا بسبب وصول "السيناتور" الأمريكى «مستر لويس» فى ذلك المساء، وقبل يومين من موعده. وكنت فى غرفتى أقوم بمراجعة بعض القوائم الخاصة بمواد التموين عندما سمعت أصوات سيارات تقف فى الساحة. وبينما أنا مسرع إلى الطابق الثانى، حدث أن وجدت أمامى «مس كنتون» فى الممر الخلفى، مسرح لقائنا الأخير بالطبع، وربما كانت تلك المصادفة السيئة هى التى شجعتها على مواصلة ذلك السلوك الطفولى الذى مارسته فى المرة الماضية. لأننى عندما سألت عن الأشخاص الذين وصلوا، لم تتوقف «مس كنتون»، ومرت من أمامى وهى تقول بكل بساطة: «رسالة ... إن كانت مسألة

عاجلة يا مستر ستيفنس !» كان ذلك أمرا شديد الإزعاج، ولكن لم يكن أمامي خيار آخر سوى أن أسرع إلى الطابق العلوي.

ما أتذكره عن «مستر لويس» هو أنه كان رجلا ذا ابتسامة لطيفة لا تفارق وجهه. وكان وصوله الباكر سببا لضيق واضح لسيادة "اللورد" والذين كانوا يتمنون يوما أو يومين من الخصوصية للانتهاء من استعداداتهم.

إلا أن طريقة «مستر لويس» الجذابة والودية ، وقوله على العشاء إن الولايات المتحدة «ستقف دائما إلى جانب العدل، ولا تمانع من الاعتراف بالأخطاء التي حدثت في فرساي»، كل ذلك ساعد على اكتساب ثقة فريق سيادة "اللورد". وأثناء العشاء كانت المناقشات تتم بهدوء وثقة وتنتقل بين موضوعات مثل مزايا منطقة پنسلڤانيا ــ وهي منطقة «مستر لويس» ــ إلى المؤتمر القادم. وعندما كان السادة يدخنون السيجار كانت بعض المخاوف قد زالت بسبب ذلك الجو الحميم . وفجأة قال «مستر لويس» للحضور «أنا متفق معكم أيها السادة على أن «مسيو دبيو» شخص لا يمكن الاطمئنان إليه. لكن دعوني أقول إن هناك شيئاً واحداً يمكن أن نراهن عليه. شيء واحد بكل تأكيد..»

ثم انحنى ولوح بسيجاره مؤكدا: «دبيو يكره الألمان. كان يكرههم

قبل الحرب كما يكرههم الآن، ويعنف، ومن الصعب ـ عليكم أن تفهموا ذلك!»»... وجلس «مستر لويس» فى معقده وعادت الابتسامة العريضة اللطيفة إلى وجهه، ثم واصل كلامه : «لكن قولوا لى..هل يمكن أن تلوموا فرنسيا لأنه يكره الألمان؟ على كل حال فإن الرجل لديه سبب كاف لهذا. أليس كذلك؟»

مرت لحظة ارتباك وحرج بينما، «مستر لويس» ينظر إلى الجالسين حول الطاولة. ثم قال "لورد دارلنجتون":

«بالطبع. لابد من بعض المرارة . لكننا نحن الإنجليز أيضا قد حاربنا الألمان طويلا وبضراوة»

قال «مستر لويس» : لكن هناك فرق. يبدو أنكم يا معشر الإنجليز لم تعودوا تكرهون الألمان بالفعل. الموضوع كما يراه الفرنسيون أن الألمان قد دمروا الحضارة هنا فى أوروبا، وأن عدم عقابهم سيكون أمرا سيئا. وهذا بالطبع يبدو موقفا غير عملى بالنسبة لنا فى الولايات المتحدة، ولكن الشىء الذى كان يحيرنى دائما هو أنكم معشر الإنجليز لاتشاركون الفرنسيين هذه النظرة، وكما تقول.. فإن بريطانيا قد خسرت الكثير فى تلك الحرب أيضا».

ثم كانت هناك لحظة حذر، قبل أن يقول «سيرديڤيد» بهدوء «نحن الإنجليز كان لنا دائما أسلوبنا المختلف عن الفرنسيين يا مستر

لويس». فاتسعت ابتاسمة «مستر لويس» وهو يقول : «تقصد نوعا من الاختلاف المزاجي!». ثم راح يهز رأسه وكأن أشياء كثيرة قد باتت واضحة له وجذب نفسا عميقا من سيجاره. يمكن أن يكون ذلك حالة إدراك أصبحت تلون ذاكرتي مؤخرا، بيد أنني أشعر بوضوح بشيء غريب لأول مرة، أشعر بشيء من الازدواجية في شخصية هذا السيد الأمريكي الذي يبدو جذابا. ولكن إذا كانت شكوكي الخاصة قد أثيرت في تلك اللحظة، فإن "اللورد دارلنجتون" لم يكن ليشاركني إياها، لأنه بعد فترة قصيرة من السكوت الحذر بدا أن سيادته قد وصل إلى قرار. قال : «دعني أقول بصراحة يا «مستر لويس». معظمنا في إنجلترا يرون الموقف الفرنسي الحالي موقفا حقيرا جديرا بكل ازدراء. قد تعتبر ذلك اختلافا مزاجيا، إلا أنني أزعم أننا نتحدث عن شيء أكبر من ذلك. لايليق بنا أن نستمر في كراهية عدو هكذا بعد أن انتهى الصراع. عندما تنجح في إسقاط خصمك على الحلبة لابد من أن تكون تلك هي نهاية المسأة. لن تستمر في ضربه ثم تركله وتتركه. وبالنسبة لنا فإن السلوك الفرنسي قد أصبح همجيا .. وبشكل متزايد»

ويبدو أن هذا القول حقق لـ «مستر لويس» بعض الارتياح ، فابتسم ابتسامة رضا وهمهم بعبارات تعاطف للزملاء الذين كانوا يتناولون العشاء وسط سحب دخان التبغ الكثيفة حول المائدة.

جاء الصباح التالى بقادمينَ جُدُد وصلوا مبكرين. وبالتحديد، السيدتان القادمتان من ألمانيا ـ جاءتا معا بالرغم من صعوبة تصور ذلك بسبب التناقض الكبير بينهما ـ وجاء معهما فريق كبير من الخدم والوصيفات و عدد كبير أيضا من الحقائب. وفى المساء وصل رجل إيطالى، ومعه خادم خاص وسكرتير وخبير وحارسان شخصيان. ولا أعرف كيف كان ذلك الرجل يتصور المكان لكى يأتى بحراسة خاصة. ولذلك لابد من أن أقول إن منظر الحارسين كان غريبا فى «دارلنجتون هول» وهما صامتان، ينظران فى ريبة فى كل الاتجاهات حول المكان الذى يجلس فيه الرجل . كان نظام عملهما يقتضى أن ينام أحدهما فى وقت غير عادى لضمان أن يكون فى الخدمة طوال الليل. وبمجرد أن عرفت ذلك، حاولت إبلاغ «مس كنتون» ولكنها رفضت مرة أخرى أن تتكلم معى. ولكى أضمن تنظيم الأمور على وجه السرعة اضطررت لكتابة مذكرة ووضعتها تحت باب غرفتها.

وفى اليوم التالى جاء ضيوف آخرون وكان قد بقى على بدء المؤتمر يومان. كان القصر مكتظا بأناس من كل الجنسيات يتحدثون فى الغرف أو يتحلقون فى الردهة والممرات وعلى منبسط السلم بلا هدف، أو يتأملون الصور والأشياء المختلفة فى القصر. كان الضيوف يتعاملون مع بعضهم بأدب شديد، ولكن الجو العام كان شديد التوتر

ويوحى بعدم الثقة. وتعبيرا عن هذا القلق ، كان الخدم الخصوصيون الذين جاءوا مع مخدوميهم ينظرون إلى بعضهم الآخر ببرود واضح، أما خدم القصر المشغولون جدا، فكانوا سعداء لأنهم لايقضون معهم وقتا طويلا.

فى قمة هذا الانشغال بالواجبات والمهام، حدث أن كنت أنظر من إحدى النوافذ فرأيت «مستر كاردينال» الأصغر واقفا فى الهواء الطلق. أبصرته ممسكا بحقيبته الصغيرة كالعادة ويسير ببطء فى الممر حول المساحة الخضراء مستغرقا فى أفكاره.

تذكرت بالطبع مهمتى الخاصة به وتصورت أن مكانا خارجيا كهذا مع جمال الطبيعة المتمثل فى الأوز السابح بالقرب منا، قد يكون مكانا ملائما لكى أنقل إليه الرسالة التى كُلِّفتُ بها. رأيت أيضا أننى إذا خرجت مسرعا وأخفيت نفسى خلف الشجيرات بجوار الممر، لن يمر وقت طويل قبل أن يصل «مستر كاردينال» إلى مكانى. وحينذاك يمكن أن أخرج وأنقل إليه الرسالة. فى هذا الوقت ، كانت مهمة كتلك لها أهميتها بلاشك. كانت الأرض مغطاة بالندى وبكثير من ورق الشجر ولكنه كان يوما معتدلا فى مثل هذا الوقت من العام.

عبرت المساحة الخضراء بسرعة ووقفت خلف الشجيرات، وبعد لحظات سمعت وقع أقدام «مستر كاردينال» قادما، ولكننى ـ لسوء

الحظ ـ لم أحسن تقدير الوقت الذى أخرج فيه . كنت أود أن أظهر من خلف الأشجار وهو على مسافة معقولة لكى يرانى فى وقت مناسب ، فيعتقد أننى كنت فى طريقى إلى السقيفة أو إلى كوخ البستانى.

وكان يمكن بالتالى أن أتظاهر بأننى رأيته فجأة وأستدرجه إلى حوار بشكل تلقائى. ولكن الذى حدث هو أننى برزت له من خلف الشجيرات متأخرا قليلا وأعتقد أننى فاجأته على حين غرة، فوجدته يبعد حقيبته عنى بسرعة ويضمها إلى صدره بكلتا يديه.

«معذرة يا سيدى»

«يا إلهى ! لقد أفزعتنى يا "ستيفنس" . تصورت أن الأمور لم تعد آمنة هناك»

«أسف يا سيدى ، لكن الحقيقة أن لدى رسالة أرجو أن أنقلها إليك»

«يا إلهى ! لقد أفزعتنى حقا!»

«إن كان لى أن أدخل مباشرة فى الموضوع... فلابد من أنك تلاحظ تلك الأوزات القريبة منا...»

«أوز؟» ونظر حوله مستغربا..

«نعم ! هاهو ذا»

«... والزهور والشجيرات والبراعم الصغيرة، ولكن هذا طبعا ليس الوقت المناسب لرؤيتها فى أوج جمالها. على أنك ـ بالتأكيد ـ تعلم يا

سيدى أننا سنشهد تغيرا مع قدوم الربيع، تغيرا من نوع خاص فى كل هذه الأشياء المحيطة بنا»

«نعم! أنا أعـرف أن الأرض ليـست فى أبهى حلة الآن، ولكن لكى أكون صريحا معك يا «ستيفنس» فأنا لم أكن أُولى اهتماما كبيرا لجمال الطبيـعة وتألقـها. كل شـىء يبـعث على الملل. كل شىء مـضـجـر. ذلك «المسيو ديبو» جاء فى أسوأ حالة مزاجية وهذا آخر ما كنا نريده فى الحقيقة»

«مسيو ديبو وصل إلى هذا المكان يا سيدى؟»

«منذ نصف ساعة تقريبا، وفى أسوأ حالاته»

«أستأذنك يا سيدى. لابد من أن أذهب الآن لكى أكون فى خدمته»

«بالطبع يا ستيـفنس. على كل حال هذا شىء جميل منك أن تجىء لكى تتكلم معى».

«عفـوا ! ولتـسـمح لى يا سـيدى .. فـأنا لدى بضـع كلمـات أريد أن أنقلها إليك خاصة بذلك الموضوع الذى وصفته بنفسك، جمال الطبيعة وتألقها، ولو تفضلت بالاستماع إلى أكون شاكرا، ولكن يبدو أن ذلك لابد من أن يؤجل لوقت آخر»

«حسن! سأنتظر ذلك يا ستيفنس. بالرغم من أننى خبير بكافة أنواع السمك. أسماك المياه الحلوة والمياه المالحة»

« كل الكائنات الحية لها علاقة بحديثنا القادم يا سيدى ، ولتسمح لى الآن بالانصراف ، فلم أكن أعرف أن «مسيو ديبو» قد وصل».

وأسرعت عائدا إلى القصر وقابلنى أول خادم قائلا:

«نحن نبحث عنك يا سيدى ، لقد وصل الرجل الفرنسى». كان «مسيو ديبو» رجلا طويل القامة أنيقا ، له لحية رمادية اللون ويضع على عينيه «مونوكل». وصل مرتديا ملابس كتلك التى يرتديها الأوروبيون فى الإجازات، والحقيقة أنه طول مدة إقامته كان مظهره يوحى بأنه جاء إلى «دارلنجتون هول» من أجل الاستجمام والاستمتاع بالجو الودى. وكما قال «مستر كاردينال» فإن «مسيو ديبو» لم يكن فى حالة مزاجية جيدة. ولا أستطيع أن أتذكر الآن الأشياء التى أزعجته منذ وصوله إلى انجلترا قبل أيام، ولكنه ـ بالتحديد ـ كان قد أصيب ببعض التقرحات المؤلمة فى قدميه بعد جولاته لمشاهدة معالم "لندن"، وكان يخشى أن تتفاقم حالتها.

أحلت الخادم الخاص به إلى «مس كنتون» ولكن ذلك لم يمنع «مسيو ديبو» من أن يطقطق أصابعه نحوى من وقت لآخر قائلا: أريد المزيد من الضمادات»

بدا مزاجه معتدلا عندما رأى «مستر لويس». كان هو و"السيناتور" الأمريكى يتبادلان التحية كزميلين قديمين، كما كانا يشاهدان معا بقية

اليوم تقريبا يضحكان ويتذكران أيامهما الماضية. والحقيقة أنه كان يمكن ملاحظة أن التقارب المستمر بين «مستر لويس» و «مسيو ديبو» لم يكن مريحا لـ "للورد دارلنجتون" ، الذى كان حريصا ـ بالطبع ـ على إقامة اتصال شخصى بهذا الرجل المحترم قبل بدء المناقشات. وقد رأيت سيادته أكثر من مرة وهو يبذل محاولات لسحب «مسيو ديبو» بعيداً من أجل حديث خاص، ولكن «مستر لويس» المبتسم دائما كان يفرض نفسه عليهما وهو يقول مثلا : «عفوا.. هناك شيء ما يحيرنى...»، وكان سيادة "اللورد" يجد نفسه مضطرا للاستماع إلى نوادر «مستر لويس» المرحة. أما إذا تركنا «مستر لويس» جانبا، فإن الضيوف الآخرين كانوا يحتفظون بمسافة حذرة بينهم وبين «مسيو ديبو». ربما رهبة، وربما شعورا بالعداء، وهى حقيقة كانت واضحة حتى فى ذلك الجو المتحفظ والتى بدأت تؤكد أن «مسيو ديبو» كان هو الرجل الذى يملك ـ إلى حد ما ـ مفتاح نجاح الأيام القادمة.

بدأ المؤتمر فى صباح مطير من الأسبوع الأخير من شهر مارس ١٩٢٣ فى قاعة الاستقبال التى لم تكن مناسبة تماماً، حيث تم اختيار المكان ليلائم الصبغة غير الرسمية لمعظم الحضور. والحقيقة أن الطابع غير الرسمى بدا لى زائدا عن الحد وإلى درجة مضحكة . كان غريبا أن ترى تلك القاعة الفخمة مكتظة بعدد كبير من مرتدى السترات

الداكنة، وكيف كان كل ثلاثة أو أربعة منهم يجلسون جنبا إلى جنب على أريكة واحدة، وكان ذلك رغبة فى تصميم بعض الشخصيات على أن تبدو مناسبة اجتماعيا ولا أكثر، لدرجة أن بعضهم كان يفرد الصحف والمجلات على ركبتيه ويتصفحها. طوال ساعات الصباح الأول، كنت مضطرا للدخول والخروج بصفة مستمرة من القاعة ولذا لم أتمكن من متابعة الأحداث جيدا. وإن كنت أذكر أن «اللورد دارلنجتون» افتتح المناقشات بالترحيب رسميا بالضيوف، قبل أن ينتقل إلى تلخيص الأوضاع الصعبة، من أجل تخفيف كثير من بنود معاهدة "فرساى"، مؤكدا على المعاناة الشديدة التى لمسها شخصيا فى ألمانيا. كنت بالطبع قد سمعت تلك الآراء والأفكار نفسها من سيادته فى مناسبات مختلفة قبل ذلك ، ولكن الاقتناع الذى كان يتحدث به فى هذا الموقف المهيب جعلنى أتأثر بشدة من جديد.

وبعده، تكلم "السير ديفيد كاردينال"، وبالرغم من أن معظم حديثه قد فاتنى إلاً أنه كان فنياً فى طبيعته إلى حد ما، وأقولها بصراحه إنه كان أعلى من قدرتى على الفهم . ولكن مضمونه كان قريبا مما قال سيادة "اللورد"، وأنهاه بالدعوة لتجميد دفع التعويضات الألمانية وانسحاب القوات الفرنسية من منطقة «الروهر».

بعد ذلك بدأت "الكونتيسة" الفرنسية كلامها، ولكننى لسبب لا

أتذكره، كنت مضطرا عند ذلك لمغادرة القاعة لفترة أخرى طويلة، وعندما عدت كان الجميع فى نقاش مفتوح، وكلام كثير عن التجارة وسعر الفائدة لم أفهم منه شيئا.

لم يكن «مسيو ديبو» ، - على قدر مالاحظت - ليشارك فى النقاش، وبسبب تغطية وجهه لم يكن من السهل معرفة ما إذا كان يتابع مايسمعه جيدا، أم أنه كان مستغرقا فى أفكار أخرى. وعندما خرجت من القاعة أثناء كلمة أحد الضيوف الألمان، قام «مسيو ديبو» فجأة وتبعنى إلى الخارج.

بمجرد أن كنا فى الردهة قال : "ليتك تستطيع أن تغير لى ضمادات قدمى فهما تسببان لى إزعاجا شديدا، ولا أستطيع أن أستمع إلى هؤلاء السادة". وعلى ما أذكر فقد طلبت من «مس كنتون» ـ عبر رسول بالطبع ـ أن تساعد فى هذا الأمر، وتركت «مسيو ديبو» جالسا فى حجرة البلياردو ينتظر الممرضة، عندما جاء الخادم الأول مسرعا، حزينا، وهو يهبط من على السلم ليبلغنى بأن والدى مريض جدا، وأنهم قد نقلوه إلى الطابق العلوى. هرعت إلى الطابق الأول وعندما استدرت على منبسط الدرج رأيت منظرا غريبا. فى نهاية الممر، وأمام النافذة الكبيرة التى كان يبدو منها الضوء الرمادى والمطر، رأيت والدى ثابتا على وضع واحد، وكأنه يشارك فى طقس شعائرى. كان قد وقع على

إحدى ركبتيه ويبدو برأسه المنحنية وهو يدفع عربة "الترولى" أمامه، وكانت لسبب ما قد توقفت فى مكانها لاتتحرك. على مسافة قريبة، كان هناك خادمتان من خدم غرف النوم تشاهدان محاولاته الجهيدة لزحزحة العربة، وكان يبدو عليهما الهلع. ذهبت إلى والدى وخلصت يديه من حافة "الترولى" وأرقدته على السجادة. وكان وجهه شاحبا شحوب الموت، وجبهته مغطاة بعرق غزير. طلبنا مساعدة إضافية فجاءوا بكرسى متحرك ونقلوه إلى غرفته

وبعد أن وضعناه فى السريرلم أكن لأعرف ماذا أفعل. لم يكن من المحبذ أن أتركه على هذه الحال، وفى الوقت نفسه لدى الكثير من الأعمال التى يجب القيام بها. وقفت مترددا فى مدخل الغرفة ثم ظهرت «مس كنتون» إلى جانبى وهى تقول : أعتقد يا «مستر ستيڤنس» أن لدى الآن وقتا أكثر مما لديك سأهتم بوالدك إن رغبت فى ذلك. وسوف أرافق الدكتور «ميرديث» إلى الطابق العلوى وسأبلغك بما يقول. شكرتها، وانصرفت لعملى.

عندما عدت إلى غرفة الاستقبال، كان أحد رجال الدين يتكلم عن المصاعب والمعانة التى يعيشها أطفال "برلين". وبعد وقت قصير كنت مشغولا بتقديم المشروبات للضيوف. لاحظت أن القليل منهم ، كانوا يتناولون المشروبات الروحية وأن ضيفا أو اثنين فقط يدخنون بالرغم

من وجود السيدتين. وأتذكر أنني كنت خارجا من الغرفة حاملا إبريقا فارغا عندما أوقفتني «مس كنتون» قائلة: «الدكتور ميرديث» سينصرف الآن». في الوقت نفسه رأيت «الدكتور ميرديث» مرتديا معطف المطر والقبعة في الردهة فذهبت إليه والإبريق لا يزال في يدي. نظر الطبيب إليّ وعلامات الاستياء بادية على وجهه وقال:

«والدك في حالة سيئة، أرجو إذا تدهورت صحته أكثر من ذلك أن تبلغوني في الحال»

«شكرا جزيلا يا سيدي. سنفعل بالتأكيد!»

«كم عمر والدك يا سيتفنس؟»

«اثنان وسبعون عاما يا سيدي»

فكر الدكتور "ميرديث" لحظة ثم قال : إذا حدث أي تدهور استدعوني في الحال». شكرته مرة أخرى ورافقته حتى الباب.

في ذلك المساء نفسه وقبل العشاء بوقت قصير، حدث أن سمعت الحوار الدائر بين «مستر لويس» و «مسيو ديبو» . كنت لسبب ما قد اتجهت نحو غرفة «مسيو ديبو» وقبل أن أطرق الباب توقفت لحظة للإصغاء. ربما لايكون من عادتك أن تفعل ذلك حتى لاتطرق الباب في لحظة غير مناسبة ، ولكنني كنت هكذا دائما... وأجزم بأن ذلك يعتبر سلوكا عاما بين كثير من المحترفين. ما أريد أن أقوله هو أنه لا توجد

أية خدعة فى ذلك، هو احتراز ليس إلا ، ولم يكن قصدى أبدا أن أسترق السمع إلى الحد الذى حدث فى ذلك المساء.

على أية حال ، شاء الحظ أننى عندما وضعت أذنى على باب «مسيو ديبو» ، سمعت صوت «مستر لويس». وبالرغم من أننى لا أتذكر بدقة الكلمات الأولى التى سمعتها، إلا أن نبرة صوته هى التى أثارت ارتيابى. كنت أستمع إلى نفس الصوت المعتدل الهادئ الذى سحر به السيد الأمريكى الكثيرين منذ وصوله إلى هنا، إلا أن أسلوبه كان يكتنفه الآن بعض الغموض. هذا، بالإضافة إلى أنه كان فى غرفة «مسيو ديبو» ويوجه كلامه إلى ذلك الشخص المهم، ولعل ذلك هو الذى جعلنى أكف يدى عن طرق الباب وأواصل الإصغاء بدلا من ذلك.

ولأن أبواب غرف النوم فى «دارلنجتون هول» سميكة جدا ، كان من الصعب أن أسمع جيدا وبالتالى لا أستطيع أن أتذكر بدقة كما قلت لسيادة «اللورد» فى ذلك المساء. ولكن هذا لايعنى أننى لم أكوّن فكرة عامة عما كان يحدث فى الغرفة. كان السيد الأمريكى يعبر عن فكرته، وهى أن سيادة «اللورد» ومشاركين آخرين فى المؤتمر يتلاعبون بـ «مسيو ديبو» وأن الأخير قد دعى فى وقت متأخر عن قصد، لكى يتمكنوا من مناقشة الأمور المهمة فى غيابه. وأنه حتى بعد وصوله، كان سيادة «اللورد» يتناقش أحيانا مع أكثر الوفود أهمية دون أن يدعو «مسيو ديبو» للمشاركة. ثم بدأ «مستر لويس» ينقل لهم بعض الملاحظات والآراء التى

أبداها سيادة «اللورد» والآخرون على العشاء فى أول مساء بعد وصوله.

سمعت «مستر لويس» يقول : و «لكى أكون صريحا جدا معك يا سيدى فقد راعنى موقفهم من مواطنيكم. لقد استخدموا فى وصفهم لهم كلمات مثل «همج» و «حقراء» ، والحقيقة أننى سجلتها فى مفكرتى بعد ساعات قليلة من ذلك». بعد ذلك قال «مسيو ديبو» شيئا لم أتبينه تماماً، ثم قال «مستر لويس» ثانية : «دعنى أخبرك يا سيدى بأننى قد انزعجت كثيرا، هل يليق أن تصف حليفا وقفت معه جنبا إلى جنب من سنوات قليلة بمثل تلك الكلمات؟»

لست متأكدا إن كنت قد تقدمت لأطرق الباب. من الجائز جدا أن أكون قد فعلت ذلك بعد ما سمعته وأزعجنى ، ولذلك قررت أن أنسحب تماما.

على أية حال، لم أتباطأ كثيرا ـ كما كان على أن أشرح لسيادة «اللورد»بعد ذلك ـ لكى أسمع شيئا يمكن أن يفسر موقف «مسيو ديبو» من الكلام الذى سمعه من «مستر لويس». فى اليوم التالى بلغت المناقشات فى غرفة الاستقبال مستوى جديدا من الحدة، وبحلول وقت الغداء كان الحوار قد أصبح شديد السخونة. كان انطباعى هو أن التعليقات كلها كانت تتجه بشىء من الاتهام وبحدة متزايدة، نحو المقعد الذى كان يجلس فيه «مسيو ديبو» وهو يعبث فى لحيته بأصابعه.

وعندما كان المؤتمر يتوقف لأى سبب، كنت ألاحظ ببعض القلق ـ مثل سيادة «اللورد» بالتأكيد ـ أن «مستر لويس» ينتحى بسرعة بـ

«مسيو دييو» جانبا ويتكلمان معا على انفراد، وفي هدوء شديد. وحدث أن صادفتهما مرة بعد الغداء وهما يتحدثان خلسة في مدخل المكتبة ولاحظت أنهما قد توقفا عن الكلام عندما اقتربت منهما. في الوقت نفسه لم تتحسن صحة أبي ، ولم تتدهور، وكما علمت فقد كان نائما معظم الوقت، وكما رأيته في المرات القليلة التي تيسر لي فيها وقت للصعود إلى غرفته على السطح. لم يكن لدى فرصة للكلام معه حتى ذلك المساء الثاني بعد أن عاد إليه المرض، وفي تلك المرة أيضا كان نائما عندما دخلت، ولكن الخادمة التي عينتها «مس كنتون» للعناية به وقفت عند رؤيتي وراحت تهز كتفه.

قلت : «غبية ! ماذا تفعلين؟»

« لقد طلب مني «مستر ستيفنس» أن أوقظه عند حضورك يا سيدى»

«دعية نائما، لم يمرضه سوى الإرهاق»

قالت الفتاة : «لقد أكد عليّ أن أوقظه». ثم هزت كتفه مرة ثانية. فتح أبي عينيه وحرك رأسه قليلا على الوسادة ونظر إليّ. قلت : أتمنى أن يكون والدى أفضل الآن!»

ظل محدقا فيّ للحظة ثم سأل : هل كل شيء على ما يرام في الدور الأسفل؟»

«الوقت متقلب إلى حد ما، ونحن الآن بعد السادسة ويستطيع أبي أن يتصور الجو في المطبخ الآن.»

علت وجهه نظرة قلق ثم قال : «لكن .. هل كل شيء تحت السيطرة؟»

«نعم! يمكن أن أطمئنك على ذلك. ويسعدني أنك تشعر بتحسن.»

سحب ذراعيه من تحت الغطاء ببطء وراح ينظر إلى ظهر يديه بوهن، وظل يفعل ذلك لبعض الوقت. وأخيرا قلت :

«أنا سعيد لأن صحتك تتحسن يا أبى ، والآن لابد من أن أنصرف لأن الموقف متقلب كما قلت لك».

بقى ينظر إلى يديه بعض الوقت ثم قال ببطء: لوأننى كنت أبا جيدا لك! »

ضحكت وقلت : «أنا سعيد لأنك تشعر بتحسن الآن».

قال : «أنا فخور بك. ليتنى كنت أبا جيدا، وأعتقد أن ذلك لم يكن؟

قلت «أعتقد أننا مشغولون جدا الآن، على أية حال يمكن أن نتحدث مرة أخرى فى الصباح».

كان أبى مازال يتأمل يديه وكأنه يرى بهما ما يزعجه: ثم قلت له : «أنا سعيد لأنك تشعر بالتحسن»، وانصرفت.

عندما نزلت وجدت المطبخ على شفا حفرة من الجحيم، كان الجو شديد التوتر بين العاملين من كل المستويات، ولكن بشكل عام يسرنى أن أتذكر أننا عندما قدمنا العشاء للضيوف بعد ساعة تقريبا، كان كل شيء على ما يرام ، وكان كل ما قدمه فريقى يدل على كفاءة وحرفية عالية.

رؤية قاعة الاحتفالات مليئة عن آخرها منظر لاينسى، ولم يكن ذلك المساء استثناء. كان عدد الرجال المرتدين لثياب السهرة أكبر بكثير من عدد ممثلى الجنس اللطيف، وكانت الثريتان الكبيرتان المعلقتان فوق

المائدة تعملان بالغاز، وتلقيان بضوء ناعم خفيف فى القاعة، ولم تكونا مصدر زغللة شديدة مثلما حدث بعد أن أصبحتا تعملان بالكهرباء. كان ذلك هو العشاء الثانى والأخير للمؤتمر وكان من المتوقع أن يتفرق الجميع بعد غداء اليوم التالى. وكان من الملاحظ أيضا أن كثيرا من تحفظ الأيام الأولى قد زال. لم تكن المحادثات تجرى بحرية أكثر وبصوت أعلى فقط، بل إننا اكتشفنا أننا كنا نقدم النبيذ بإفراط. وفى ذلك العشاء الذى مر دون أى صعوبة من الناحية المهنية، وقف سيادة «اللورد» ليتحدث أمام ضيوفه. بدأ بتوجيه الشكر لجميع الحاضرين لأن مناقشات اليومين السابقين جرت فى جو من الصداقة والرغبة الحقيقية فى أن يتحقق الخير للجميع «بالرغم من أنها كانت صريحة جدا أحيانا».

كان الإجماع الذى لاحظته على مدى اليومين الماضيين أكبر وأعظم مما كان يتمنى، كما قال إنه يثق بأن جلسات الصباح المتبقية من أجل «بلورة الموقف» ستكون معبرة عن التزام الجميع بالعمل الذى سيقوم به كل فريق قبل المؤتمر العالمى المهم فى سويسرا. وعند هذه النقطة تحديدا، ولا أعرف إن كان سيادته قد خطط لذلك من قبل، بدأ يتذكر صديقه الراحل «الهر كارل هاينز بريمن»، ولم يكن ذلك أمرا سارا بعض الشىء، لأن الموضوع قريب من قلب سعادته وهو يحب الحديث عنه مطولا.

ويمكن أن يقال أيضا إن «لورد دارلنجتون» لم يكن محدثا جيدا بطبيعته ولا يجيد مواجهة الجمهور، ولذلك سرعان ما سرت في القاعة أصوات وهمهمات قلقة تدل على الانصراف عن حديثه . والحقيقة أن «اللورد» في نهاية كلمته، وعندما دعا الضيوف لشرب نخب «السلام والعدل في أوروبا»، كان مستوى الضوضاء قد اقترب من سوء السلوك، وربما كان ذلك بسبب كميات النبيذ الكثيرة. جلس الجميع مرة أخرى، وما كادت المناقشة تُستأنف حتى سمعنا طرقات تنبيه متوالية ووقف «مسيو ديبو» ، وفجأة خيم الصمت.

نظر الرجل حوله محدقا ثم قال : «أتمنى ألا أكون قد تعديت على اختصاصات أحد السادة الحاضرين هنا، ولكنني لم أستمع إلى أي اقتراح برفع نخب شكر لمضيفنا الكريم، المحترم «لورد دارلنجتون» . وعلى الفور سرت في أرجاء المكان همهمة استحسان لما قال. وواصل «مسيو ديبو» كلامه «لقد طُرِحَتْ أفكار كثيرة مهمة في هذا القصر على مدى اليومين الماضيين، أفكار كثيرة مهمة جدا». ثم توقف، بينما الصمت التام مخيم في القاعة. ثم استأنف كلامه: «قيل الكثير الذي فُهِمَ منه ضمنا أنه نقد ـ والنقد ليست كلمة قاسية ـ للسياسة الخارجية لبلدي»، ثم توقف مرة أخرى وهو يبدو عليه التجهم. كان غاضبا. «سمعنا في اليومين الماضيين تحليلات عديدة عميقة وذكية للموقف الحالي الشديد التعقيد في أوروبا، لكن لاشيء منها استطاع أن يضع

يده على أسباب الموقف الذى اتخذته فرنسا تجاه جارتها»، ثم رفع إصبعه قائلا : إلا أن ذلك ليس الوقت المناسب للدخول فى مثل هذا الجدل. والحقيقة أننى قد أحجمت عمدا عن تلك الأمور الخلافية، فأنا جئت فى الأساس لكى أستمع. ودعونى أقول الآن إن بعض ما سمعته هنا كان له أثره الكبير عَلىّ. ولعلكم تتساءلون عن هذا الأثر، هذا الانطباع». ثم توقف عن الكلام مرة أخرى ، وعيناه تتنقلان بروية على جميع الوجوة الناظرة إليه.

وواصل كلامه : «أيها السادة ـ عفوا ... والسيدات ـ لقد أوليت اهتماما كبيرا لتلك الأمور وأود أن أقول بصراحة بينكم هنا إنه بالرغم من وجود اختلافات فى الرؤى بينى وبين الكثير من الحضور حول فهم ما يحدث فى أوروبا الآن، بالرغم من ذلك كله إلا أننى مقتنع أيها السادة.. مقتنع بعدالتها وجدواها العملية»، وفى هذه المرة ارتفعت أصوات الارتياح والشعور بالانتصار، فرفع «مسيو ديبو» صوته ليقول: «كما يسعدنى أن أؤكد لكم جميعا هنا أننى سأبذل كل ما أستطيع من جهد وأسخر كل ما لدى من نفوذ لتشجيع إحداث تغيير فى السياسة الفرنسية بما يتفق ومعظم ما طرح هنا . ولسوف أسعى ليتحقق ذلك فى وقت مناسب قبل انعقاد المؤتمر السويسرى.»

كانت هناك بعد ذلك موجة من التصفيق الحاد ورأيت سيادة «اللورد» يتبادل النظرات مع «السير ديفيد». ثم رفع «مسيو ديبو» يده، ربما ليعبر

عن شكره لتصفيقهم، وربما ليوقفه ، لا أعرف.. ثم أكمل: «لكن قبل أن أوجه الشكر لمضيفنا «اللورد دارلنجتون»، فإن لدى شيئا بسيطا أريد أن أخرجه من صدرى ، ولربما تراءى للبعض منكم أن إخراج مثل تلك الأشياء على مائدة عشاء ليس من حسن الخلق»، فانفجر الجميع فى الضحك. «إلا أننى دائما مع الصراحة فى تلك الأمور. كما أن هناك ضرورة للتعبير عن الامتنان بشكل رسمى وعلنى لـ «لورد دارلنجتون» الذى استطاع أن يجمعنا هنا وأن يوفر هذه الروح من التعاون والحماس، كما أعتقد أن هناك ضرورة قوية للإدانة العلنية والشجب الصريح لأى شخص جاء إلى هنا لكى يسىء استخدام كرم مضيفنا، ويحاول أن يبذر الخلاف والشك بيننا. فمثل أولئك ليسوا فقط بغيضين على المستوى الاجتماعى ، وإنما هم خطر على المناخ الذى نعيشه هذه الأيام». ثم توقف مرة أخرى، ومرة أخرى كان الصمت تامًا. بعد ذلك واصل كلامه بصوت واضح وبتأن شديد: «سؤالى الوحيد بخصوص «مستر لويس» هو : إلى أى مدى يمثل سلوكه البغيض موقف الإدارة الأمريكية؟، دعونى أيها السيدات والسادة أخمن إجابة، لأن مثل ذلك الرجل القادر على مستويات الغش والخداع التى أظهرها على مدى الأيام الماضية لايمكن الاعتماد عليه لكى يقدم لنا إجابه أمينة. ولذا فسوف أجازف بالتخمين. أمريكا قلقة بالطبع بخصوص دفع ديوننا لها فى حال تجميد التعويضات الألمانية. لكننى، قد أتيحت لى فرصة

مناقشة هذا الأمر مع عدد من كبار المسئولين الأمريكيين على مدى الأشهر الستة الأخيرة، وأعتقد أن التفكير فى ذلك البلد أبعد نظرا مما يمثله هذا الرجل الموجود هنا. كل من يهمه استقرار ورخاء أوروبا فى المستقبل سيكون سعيدا بمعرفة أن «مستر لويس» ـ كيف أصف ذلك ـ لم يعد له النفوذ الذى كان. قد تعتبرون ذلك قسوة منى أن أعبر عن الأمر بهذه الصراحة ،والحقيقة أننى رحيم جدا أيها السيدات والسادة. وسترون أننى محجم عن إبلاغكم بما كان يقوله ذلك الرجل عنكم جميعا، وبأسلوب ردىء لايمكن أن أصدق وقاحته وفجاجته. لكن ... كفى شجبا وإدانة، حان وقت توجيه الشكر، ولتشاركونى من فضلكم أيها السيدات والسادة فى شرب نخب «لورد دارلنجتون»!

لم يوجه «مسيو ديبو» نظره بالمرة نحو «مستر لويس» أثناء إلقاء كلمته ، وبمجرد أن شربت الجماعة نخب «لورد دارلنجتون» وجلسوا مرة ثانية، كان الجميع يتجنبون النظر إلى السيد الأمريكى.

ساد صمت غير مريح لبعض الوقت ، ثم قام «مستر لويس»، الذى كان يبتسم مسرورا على طريقته المعهودة... «حسن ! مادام كل واحد يمكن أن يتكلم، فلابد من أن آخذ دورى»، وكان واضحا من صوته أنه قد أفرط فى الشراب ... «ليس لدى ما أقوله أو أرد به على هذا الهراء الذى هذى به صديقنا الفرنسى. كل ما فى الأمر أننى أرفض هذا النوع من الكلام ، لقد صادفت فى حياتى كثيرين حاولوا أن يضعوا شخصا

آخر فوق منزلتى عدة مرات، ودعونى أقول لكم أيها السادة إن قليلين هم الذين نجحوا فى ذلك»، توقف عن الكلام وبدا مرتبكا لايعرف ماذا يقول، ثم ابتسم فى النهاية وواصل: «وكما قلت فإننى لن أضيع وقتى فى الرد على صديقنا الفرنسى الجالس هناك وإن كان لدى ما أريد أن أقوله لكم، وبما أننا نتكلم الآن جميعا بصراحة فسوف أكون صريحا أيضا معكم. أنتم أيها السادة كلكم ـ وعذرا لذلك ـ مجموعة من الحالمين ... السذج ! ولو كففتم عن التطفل على القضايا الكبرى التى تؤثر على الكرة الأرضية لكنتم رائعين. وأنا واثق من أن لا أحد هنا يوافق على ذلك. رجل إنجليزى كلاسيكى... لطيف... أمين... وحسن النية. سيادة «اللورد» هنا رجل هاو... مجرد هاو..»

وتوقف عند هذه الكلمة ونظر حوله إلى الجالسين على الطاولة «هاو... والشئون الدولية فى أيامنا هذه ليست للهواة. ولو أدركتم ذلك هنا فى أوروبا لكان من الأفضل. أيها السادة ـ وكلكم حسن النية ـ دعونى أسألكم.. هل لديكم أى فكرة عن كيف أصبح العالم من حولكم؟ لقد ولّت تلك الأيام عندما كان يمكن الانطلاق من النوايا الحسنة... ولكن يبدو أنكم هنا فى أوروبا لاتفهمون شيئا من ذلك. البعض مثل مضيفنا مازال يعتقد أن من شأنه التدخل وإقحام نفسه فى أمور لايفهمها ، لذلك سمعنا كلاما كثيرا تافها على مدى اليومين الماضيين. كلام ضحل... ساذج... أنتم هنا فى أوروبا فى حاجة إلى خبراء.. إلى محترفين لإدارة

شئونكم ، وإن لم تدركوا ذلك بسرعة فأنتم لا محالة متجهون نحو الكارثة... وبسرعة شديدة. والآن فلنرفع نخبا، أيها السادة.. فى صحتكم جميعا!. فى صحة الخبرة والحِرْفَانية.»

. ران صمت وذهول ولم يتحرك أحد فى مكانه. هز «مستر لويس» كتفيه ورفع كأسه للجميع، وشرب... وجلس فى مقعده. وعلى الفور وقف «لورد دارلنجتون».

قال سيادته: «لست راغبا فى الدخول فى جدل أو شجار فى هذا المساء الأخير لنا معا، والذى يستحق أن نحتفل به جميعا كمناسبة سعيدة ومبهجة. ولكن بدافع الاحترام لوجهة نظرك يا «مستر لويس» التى أشعر بأنه لايجب أن يهملها المرء وكأنها صادرة من شخص أخرق غريب الأطوار يقف فوق صندوق خشبى ليخطب فى الأسواق. لذا دعنى أقول الآتى: إن ما تصفه بالهواية، هو ما أعتقد أن معظمنا هنا يفضل أن يطلق عليه اسم :الشرف.»

تعالت همهمة دليل الاستحسان مع أصوات هتاف وتصفيق . وواصل سيادة «اللورد» : «وأكثر من ذلك ياسيدى هو أننى أعتقد أن لَدَىّ فكرة جيدة عما تعنيه بـ «الحِرْفانية» ويبدو أنها تعنى أن يصل المرء إلى ما يريد بالغش والخداع. تعنى أن يرتب المرء أولوياته طبقا للجشع والإفادة أكثر مما هى طبقا للرغبة فى رؤية الخير والعدل يَعُمَّان العالم. فإذا كانت تلك هى الحِرْفانية التى تقصدها يا سيدى ، فهى لاتعنينى فى

كثير أو قليل ولا أريد أن أمتلكها أو أن أحققها.»

قوبل ذلك بترحيب واستحسان كبيرين، وبتصفيق حاد استمر طويلا. وكنت أرى «مستر لويس» يبتسم لكأس النبيذ أمامه وهو يهز رأسه في ضجر. في هذه اللحظة تقريبا، شعرت بالخادم الأول بجواري يهمس في أذني:

«مس كنتون موجودة في الخارج وتريد أن تتكلم معك ياسيدي». خرجت بحذر شديد وكان سيادة «اللورد» ما زال واقفا يتحدث عن شيء آخر. كانت «مس كنتون» تبدو منزعجة: «والدك في حالة سيئة يا «مستر ستيفنس» وقد أرسلت لاستدعاء الدكتور «ميرديث»، ويبدو أنه سوف يتأخر». بدا عليَّ الارتباك لأنها قالت بعد ذلك: «إنه في حالة سيئة بالفعل يا «مستر ستيفنس»، ومن الأفضل أن تأتي لكي تراه.»

«لا وقت لدي الآن. فقد يخرج الضيوف إلى حجرة التدخين في أية لحظة.»

«أفهم ذلك، لكن لابد من أن تأتي الآن «يامستر ستيفنس»، ولربما ندمت بعد ذلك إن لم تفعل!»

كانت «مس كنتون» تسير أمامي بالفعل وأسرعنا نجتاز القصر صعودا إلى غرفة والدي على السطح. كانت «مسز مورتيمر» الطاهية تقف بجوار سريره مرتدية مريلتها. وعندما دخلنا قالت: «آه يا مستر ستيفنس! إنه في حال يرثى لها.»

كان لون وجهه قد استحال إلى حمرة كئيبة لم يسبق أن رأيتها على وجه بشر حي، وسمعت «مس كنتون» تقول بصوت خافت من ورائي «نبضه ضعيف جدا». نظرت إلى والدي لحظة، ثم تحسست جبهته بهدوء وسحبت يدي.

قالت « مسز مورتيمر»: «يبدو أنه قد أصيب بسكتة دماغية، لقد شهدت حالتين كهذه من قبل وأظنها سكتة»، وراحت تبكي. كانت تفوح منها رائحة دهن وشواء قوية. استدرت وقلت لها : «إنه أمر مؤسف، إلا أنني لابد من أن أعود إلى الطابق الأسفل».

«طبعا يا «مستر ستيفنس». وسأقوم بإبلاغك على الفور عند مجيء الطبيب، أو عند حدوث أي تطورات جديدة.»

هرعت إلى الطابق الأسفل، وأدركت الضيوف وهم متجهون إلى غرفة التدخين. بدا الارتياح على الخدم عندما رأوني، وأعطيت على الفور إشارة لهم بالتوجه إلى مواقعهم. وأيا كان ما حدث في قاعة الاحتفالات بعد ذهابي ، إلا أن الجو العام الآن كان جو احتفال بين الضيوف. كانوا منتشرين في أرجاء غرفة التدخين في تجمعات صغيرة يضحكون ويربتون على أكتاف بعضهم الآخر. أما «مستر لويس»، كما فهمت فكان قد انسحب إلى غرفته. وجدت نفسي أشق طريقي بين الضيوف حاملا قنينة من الخمر البرتغالية على صينية، وكنت قد فرغت لتوي من صب كأس لأحدهم عندما سمعت صوتا يهمس من ورائي:

«أه ياستيفنس..! أنت مغرم بالسمك كما تقول»

ابتسمت قائلا : «سمك يا سيدى؟!»

«كنت أربى جميع أنواع السمك الاستوائية فى حوض لدى، عندما كنت صغيرا. حوض سمك صغير . أقول يا ستيفنس، هل أنت بخير؟»

ابتسمت مرة ثانية: «بخير ياسيدى. شكرا جزيلا»

قال : «كما قلت بحق، لابد من أن أعود إلى هنا فى الربيع، من المؤكد أن «دارلنجتون هول» يكون أجمل فى ذلك الوقت. كنت هنا آخر مرة فى الشتاء على ما أعتقد . أقول يا «ستيفنس»، هل أنت على ما يرام؟»

«نعم يا سيدى ! شكرا!»

«ألا تشعر بأى منغصات؟»

«لا ياسيدى، بالمرة، عن إذنك يا سيدى!»

ذهبت لأقدم الشراب لضيوف آخرين وكنت أسمع ورائى ضحكا صاخبا ، كما سمعت رجل الدين البلجيكى يقول متعجبا:

«هذا بالفعل شىء هرطقى... هرطقى تماما»، ثم راح هو نفسه يضحك بصوت عال. أحسست بشىء ما يلمس مرفقى فاستدرت لأجد أنه «لورد دارلنجتون».

«ستيفنس ! هل أنت بخير ؟»

«نعم يا سيدى..! بكل خير!»

«تبدو كأنك تبكى»

ابتسمت وأخرجت منديلا مسحت به وجهى: «معذرة يا سيدى، إنه إجهاد يوم عصيب!»

«نعم يا ستيڤنس. كان عملا شاقا»

بعدها التفت وراءه إلى شخص ما كان يخاطبه. كنت على وشك أن أواصل تجوالى فى أرجاء القاعة عندما لمحت «مس كنتون» تشير إلىّ من فتحة الباب. اتجهت صوبها ولكن قبل أن أصل إليها لمسنى «مسيو ديبو» من ذراعى قائلا:

«أرجو أيها الساقى أن تحضر لى بعض الضمادات الجديدة، قدماى تؤلمانى بشدة!»

ولاحظت أثناء توجهى نحو الباب أنه كان يتبعنى . التفت إليه قائلا: سأعود وأبحث عنك يا سيدى بمجرد أن أحضر ما طلبت»

«بسرعة أرجوك ، قدماى تؤلمانى!»

«حاضر يا سيدى ... وأنا آسف لذلك»

كانت «مس كنتون» لا تزال واقفة خارج القاعة فى المكان نفسه.عندما خرجت تقدمت صامتة نحو السلم، لم تكن متعجلة فى سيرها ولكنها استدارت وقالت : «مستر ستيڤنس».. أنا فى غاية الأسف ... لقد توفى والدك منذ دقائق!»

«لقد فهمت ذلك»

ثم نظرت إلى يديها.. ثم إلى وجهى. قالت : «مستر ستيفنس» أنا فى غاية الأسف وأضافت : «ليت هناك ما يمكن أن أقوله»

«ليس هناك دا ع يا مس كنتون»

«الدكتور «ميرديث» لم يصل بعد». ثم أحنت رأسها لحظة وندت عنها انتحابة، ولكنها تمالكت على الفور وسألتنى بصوت هادئ : «هل تصعد معى لكى تراه؟»

«أنا مشغول جدا الآن يا «مس كنتون»، ربما أمكننى ذلك بعد قليل»

«فى هذه الحال يا «مستر ستيفنس»، هل تسمح لى بأن أغمض عينيه؟»

«أكون ممتنا إن أنت فعلت.»

بدأت تصعد السلم ولكننى أوقفتها قائلا : «مس كنتون أرجو ألا تعتقدى أننى إنسان فظ غليظ القلب لأننى لم أصعد معك لكى أرى والدى الآن. أنت تعرفين.. وأنا أعرف أن والدى كان سيتمنى أن أستمر فى عملى الآن!»

«طبعا يا مستر ستيفنس»

«لو أننى فعلت غير ذلك أعتقد أننى سوف أخذله»

«بالتأكيد يا مستر ستيفنس»

استدرت وقنينة الخمر لا تزال على الصينية ودخلت غرفة التدخين مرة أخرى . كانت تلك الغرفة الصغيرة تبدو مثل غابة كثيفة بما فيها من

ملابس العشاء الرسمية والشعر الأبيض ودخان السيجار. تابعت طريقى وسط الضيوف أعيد ملء الكؤوس. ربت «مسيو ديبو» على كتفى قائلا : هل أحضرت ما طلبته منك؟»

«عفوا يا سيدى الإسعافات الطبية ليست متوفرة فورا فى هذه اللحظة.»

«ماذا تعنى أيها الساقى؟ هل نفدت لديكم مواد الإسعافات الأولية؟»

«هناك طبيب فى الطريق ياسيدى!»

«حسن جدا! أرسلت لاستدعاء طبيب؟»

«نعم يا سيدى!»

«حسن! حسن!»

واصل «مسيو ديبو» حديثه وواصلت أنا تجوالى فى الغرفة لبعض الوقت، ثم ظهرت «الكونتيسة» الألمانية من بين الحضور، وقبل أن أجد فرصة لخدمتها بدأت هى تصب لنفسها من القنينة التى أحملها على الصينية .

قالت : «أرجو أن تشكر الطاهى نيابة عنى يا ستيفنس»

«طبعا يا سيدتى... شكرا جزيلا..»

«أنت وجماعتك أيضا كنتم ممتازين»

«شكرا جزيلا يا سيدتى»

ثم قالت ضاحكة : أثناء العشاء، كنت أتصور أحيانا أنك ثلاثة

أشخاص على الأقل.»

ضحكت وأنا أقول: يسعدنى أن أكون فى الخدمة دائما يا سيدتى» وبعد لحظة، اكتشفت أن «مستر كاردينال» الأصغر كان يقف فى مكان قريب بمفرده وأزعجنى أن الشاب كان يشعر برهبة إلى حد ما وسط هذا الجمع، وعند قدومى نحوه تهلل وجهه ومد كأسه لأملأها. قال وأنا أصب له الشراب:

أظنه شيئا رائعا أن تكون محبا للطبيعة يا «ستيفنس»، وهى ميزة عظيمة أيضا لـ «لورد دارلنجتون» أن يكون لديه شخص خبير مثلك يتابع نشاط البستانى.»

«عفوا يا سيدى، ماذا تقصد؟»

«الطبيعة يا «ستيفنس» ، فى المرة الماضية كنا نتحدث عن عجائب عالم الطبيعة. وأنا متفق تماماً معك، كلنا راضون عن الروائع التى تحيط بنا».

«نعم يا سيدى!»

«أقصد كل ما كنا نتحدث عنه . المعاهدات والحدود والتعويضات والاحتلال. لكن أمنا الطبيعة تمضى فى طريقها الخاصة والعذبة، ومن المضحك أن نفكر فيها بتلك الطريقة، أليس كذلك؟»

«نعم ..! حقا يا سيدى!»

«أتساءل أحيانا، ألم يكن من الأفضل لو أن الله خلقنا كلنا على هيئة نبات. نباتات ثابتة مغروسة فى التربة، ما كان شىء من ذلك العفن عن

الحروب والحدود قد حدث.»

كانت الفكرة تبدو للشاب مثيرة.... وضحك ، وبعد لحظة ضحك أكثر وشاركته الضحك. ثم لكزنى بمرفقه لكى أنتبه قليلا وهو يقول : هل يمكن أن تتخيل ذلك يا ستيفنس؟»

ثم راح يضحك ثانية.

«نعم يا سيدى»، قلت وأنا أضحك: «كان يمكن أن يكون بديلا مثيرا».

«بيد أنه كان سيظل عندنا فتيان مثلك يحملون الرسائل جيئة وذهابا ويقدمون الشاى... إلى آخر ذلك، وإلا فكيف يمكن أن نفعل شيئا؟، هل يمكن أن تتخيل ذلك يا «ستيفنس» ؟ تتخيل.. ونحن جميعًا متجذرون فى الأرض؟ تصور ؟»

فى هذه اللحظة ظهر أحد الخدم أمامى ليقول لى: «مس كنتون تريد أن تتكلم معك يا سيدى»

استأذنت «مستر كاردينال» وتوجهت نحو الباب. لاحظت أن «مسيو ديبو» كان هناك بجوار الباب وعندما اقتربت منه قال: «هل وصل الطبيب أيها الساقى؟»

« أنا ذاهب الآن لكى أعرف ذلك يا سيدى.. لحظة واحدة.»

«أشعر بألم شديد»

«يؤسفنى ذلك، وعلى أية حال فإن الطبيب لن يتأخر طويلا ياسيدى!»

بعد ذلك تبعنى «مسيو ديبو» خارجًا بينما كانت «مس كنتون» مازالت

واقفة فى الردهة.

قالت : «الدكتور «ميرديث» وصل يا «مستر ستيفنس»، وصعد إلى غرفة والدك». كانت تتكلم بصوت خافت، ولكن «مسيو ديبو» الذى كان يسير ورائى قال على الفور: «حسن!». التفت إليه قائلا: «أرجو أن تتبعنى يا سيدى!»

سرت أمامه إلى غرفة البلياردو حيث أوقدت المدفأة، وجلس على الأريكة الجلدية وبدأ يخلع حذاءه.

«عفوا! الجو هنا بارد بعض الشىء ولكن الطبيب لن يتأخر كثيرا».

«شكرا أيها الساقى، لقد أحسنت التصرف»

كانت «مس كنتون» مازالت منتظرة فى مدخل الردهة، ثم صعدنا معا فى صمت. هناك فى غرفة والدى كان الطبيب يدون بعض الملاحظات بينما «مسز مورتيمر» تبكى بشدة. كانت لا تزال مرتدية مريلة المطبخ، وواضح أنها كانت تستخدمها لمسح دموعها حيث كان وجهها يحمل آثار الشحم مما جعلها تبدو وكأنها تشارك فى عرض مسرحي كوميدى. كنت أتوقع أن تفوح رائحة الموت من الغرفة، لكن بسبب «مسز مورتيمر» ــ أو ربما بسبب مريلتها ــ فقد كانت الرائحة الغالبة هى رائحة الشواء.

نهض الدكتور «ميرديث» وهو يقول:

«أرجو أن تتقبل خالص عزائى يا «مستر ستيفنس». لقد داهمته سكتة دماغية شديدة وما كان ليحتَمل ذلك الألم، ولم يكن بالإمكان أن نفعل شيئا لإنقاذه.»

«شكرا يا سيدى!»

«سأمضى الآن، هل تقوم بالترتيبات اللازمة»

«نعم يا سيدى ، على أن هناك أحد السادة الضيوف فى الدور الأسفل يحتاج مساعدتك يا سيدى!»

«هل هو أمر عاجل؟»

«لقد أبدى رغبة شديدة فى أن يراك يا سيدى!»

صحبت الطبيب إلى الدور الأسفل ومشيت أمامه إلى غرفة «البلياردو» ثم عدت مسرعا إلى غرفة التدخين حيث كان الجو قد أصبح أكثر مرحا.

لا أريد بالطبع أن أوحى بأننى أستحق أن أوضع جنبا إلى جنب مع رؤساء خدم عظام فى جيلنا مثل «مستر مارشال» و «مستر لين» ، رغم أن هناك من يحاول دائما أن يفعل ذلك، وربما لكرم شديد . دعنى أوضح أننى عندما أقول إن مؤتمر عام ١٩٢٣، وتلك الليلة بخاصة يمثلان نقطة تحول فى حياتى المهنية، فإننى أتكلم على ضوء معاييرى المتواضعة. حتى مع ذلك ، فإنك عندما تأخذ بالاعتبار الضغوط التى كانت واقعة علىَّ فى تلك الليلة فقد لاتتصور أننى أضلل نفسى دون مبرر

إن أنا تماديت وادعيت لنفسى درجة متواضعة من الكرامة الجديرة بواحد مثل «مستر مارشال» أو حتى بوالدى. ولكن ، لماذا يجب على أن أنكر ذلك حقيقة؟.. وبالرغم من كل ما ارتبط بذلك المساء من أشياء حزينة، فإننى اليوم عندما أتذكره، أجدنى أفعل ذلك بشعور كبير بالانتصار.

اليوم الثاني ـ بعد الظهيرة

مورتيمر زبوند ـ دورست

يبدو أن هناك بعدا آخر للسؤال : «ما المقصود برئيس الخدم العظيم؟»، السؤال الذى لم أفكر فيه كما ينبغى حتى الآن. ولابد من أن أقول إنها تجربة مقلقة إلى حد ما لأنها تمس شيئا قريبا إلى نفسى، أوليته الكثير من تفكيرى على مر السنوات.

ويبدو أننى قد تسرعت عندما رفضت بعض المعايير التى وضعتها «جميعة هايز» كشروط للعضوية. وأريد أن أوضح هنا أننى لا توجد لدى أية رغبة فى التراجع عن أى من أفكارى المتعلقة بالكرامة وصلتها الوثيقة بـ «العظمة». ولكننى كنت أفكر بعض الشىء فى ذلك القرار الذى اتخذته جمعية «هايز»، وأعنى به أن «المتقدم للعضوية لابد من أن يكون منتسبا لبيت عريق» كشرط أساسى. إلا أنه يبدو لى أن المرء قد يعترض على مفهوم «البيت العريق» أكثر من اعتراضه على المبدأ فى حد ذاته.

والحقيقة أننى عندما أفكر فى ذلك بشكل أكثر عمقا ، أجد أنه ربما كان من الصواب القول إن انتساب المرء لبيت عريق شرط للعظمة، مادام المرء يفهم أن كلمة «عريق» هنا لها معنى أشمل من ذلك الذى تفهمه جمعية «هايز» .

والواقع أن المقارنة بين فهمى لذلك وفهم الجمعية توضح الفرق بين قيم جيلنا من رؤساء الخدم والجيل السابق. وعندما أقول ذلك، لا أجذب

الاهتمام فقط إلى حقيقة أن جلينا أكثر مثالية، بل إلى أن كبار السن منا كان يهمهم دائما أن يكون مخدومهم حاملا للقب أو ينحدر من عائلة عريقة. أما نحن فاهتمامنا كبير بالحالة «الأخلاقية» لمن نعمل عنده، ولا أقصد بذلك أننا كنا مهتمين أو مشغولين بالسلوك الشخصى لمخدومينا. ما أريد أن أقوله هو أننا كنا طموحين بشكل غير مألوف للجيل السابق، إلى أن نخدم سادة يمكن أن يقال إنهم يعززون التقدم الإنسانى. كان جيلنا يرى مثلا أنها دعوة أكثر قيمة أن نخدم سادة مثل «مسترچورچ كتردچ».

فهو بالرغم من بداياته المتواضعة، قد أسهم بشكل لايمكن إنكاره فى ازدهار مستقبل الإمبراطورية، وبدرجة أكبر من أى سيد آخر من الذين يضيعون وقتهم فى ملاعب الجولف والأندية... مهما كانت أصولهم الأرستقراطية.

ومن الناحية العملية بالطبع ، فإن الكثيرين من السادة الذين ينتمون إلى العائلات النبيلة كانوا يكرسون جهدا كبيرا ويسهمون فى تخفيف مشكلات العصر الكبرى ، لذا فقد يبدو من النظرة السريعة، أن طموحات جيلنا كانت تختلف قليلا عن طموحات أسلافنا.

إلا أننى أستطيع أن أشير إلى فارق واضح فى التوجه بناء على الكلام الذى يدور بين زملاء المهنة، وكذلك إلى الطريقة التى كان ينتقل

بها المتميزون من جيلنا من منصب لآخر. لم تكن قرارات كتلك مجرد مسألة أجر، أو حجم فريق العمل، ولا بريق اسم العائلة التى يعملون لديها. ولعله من الإنصاف أن أقول إن الكرامة المهنية تتجلى فى أبرز صورها فى القيمة الأخلاقية للشخص الذى تعمل لديه. وأظننى قادر على إبراز الفرق بين الأجيال بالتعبير عن نفسى بشكل مجازى.

يمكن القول إن رؤساء الخدم من جيل والدى كانوا ينظرون إلى العالم كأنه سلم. فى أعلى السلم، توجد بيوت النبلاء وذوى المناصب و«اللوردات» من العائلات القديمة ، بعد ذلك يأتى «محدثو الثروة»، ثم يهبط السلم ويهبط، حيث تتحدد الدرجة بامتلاك الثروة من عدمه.

رئيس الخدم الطموح كان يبذل قصارى جهده لكى يتسلق هذا السلم بأقصى مايستطيع. تلك القيم بالطبع هى المتجسدة فى فكرة جمعية «هايز» عن «البيت العريق». وإعلانها ذلك صراحة منذ عام ١٩٢٩ يوضح لماذا كان زوال مثل ذلك المجتمع أمرا حتميا، إن لم يكن قد انقضى زمنه بالفعل. لأن فى ذلك الوقت، كانت مثل تلك الأفكار قد عفا عليها الزمن، مع بروز مجموعة من خيرة الرجال إلى مركز الصدارة فى مهنتنا. وبالنسبة لجيلنا، أظن أن من الدقة القول إنه لم يكن ينظر إلى العالم كسلم ، وإنما كعجلة! ربما كان علىّ أن أوضح ذلك. لدىّ انطباع أن جلينا هو أول جيل يدرك شيئا لم تدركه كل الأجيال التى سبقته :

وهو أن القرارات الكبرى فى العالم لايتم التوصل إليها فى المجالس النيابية، ولا فى خلال أيام مكرسة لمؤتمر دولى يعقد تحت بصر الجمهور والصحافة. المناقشات تدور والقرارات الحاسمة يتم التوصل إليها فى الجو الخصوصى والهادئ فى قصور هذا البلد. ما يحدث تحت بصر العامة ومايصحبه من طقوس وأبهة هو المشهد الختامى عادة، هو التصديق على ما حدث على مدى أسابيع أو شهور خلف أسوار تلك القصور. بالنسبة لنا إذن، كان العالم عجلة تدور، وتلك القصور هى صرة العجلة، تنطلق قراراتها الكبرى وتتوزع على الآخرين، أغنياء وفقراء، ممن يدورون حولها. وكان كل أمل من لديه طموح مهنى منا هو أن يشق طريقه لكى يقترب من صرة تلك العجلة. لأن كلا منا كان يستطيع ذلك. ولأننا كما قلت كنا جيلا مثاليا ، ولم تكن القضية هى إظهار المهارة فقط، وإنماإظهارها من أجل أى هدف! كان كل منا يضمر الرغبة فى تقديم إسهامه الخاص والمتواضع، من أجل صنع عالم أفضل ، وكنا ـ كمحترفين ـ نرى أن الطريق الأكيدة لتحقيق ذلك هى ـ أن نخدم علية القوم فى زماننا، الرجال العظام الذين كانت الحضارة أمانة فى أيديهم.

بالطبع أنا أتكلم الآن بشكل عام ويمكن أن أعترف بأنه كان هناك أشخاص كثيرون من جيلنا ممن يكون لديهم صبر طويل على تلك

الاعتبارات الراقية. ومن ناحية أخرى فأنا واثق أيضا بأنه كان هناك كثيرون من جيل والدى ممن أدركوا بالفطرة ذلك «البعد الأخلاقى» فى عملهم.

وبشكل عام، أظن أن تلك الأحكام دقيقة، والحقيقة أن دوافع مثالية كتلك التى وصفت، قد لعبت دورا كبيرا فى حياتى المهنية.

أنا نفسى تحركت بسرعة شديدة بين مخدومين مختلفين فى بداياتى، لأننى كنت أدرك أن تلك الأماكن لم تحقق لى الرضا أو الشعور بتأكيد الذات ، قبل أن أكافأ فى النهاية بالعمل فى خدمة «لورد دارلنجتون».

غريب أننى حتى اليوم لم أفكر فى الأمر على هذا النحو. والواقع أننى على امتداد كل تلك الساعات التى قضيناها فى مناقشة معنى وطبيعة «العظمة» بجوار المدفأة فى قاعة الخدم، لم نفكر أبدا أنا و «مستر جراهام» فى البعد الذى ينطوى عليه السؤال.

وفى الوقت الذى لم أتراجع فيه عن أى شىء من أقوالى السابقة عن معنى «الكرامة»، إلا أننى لابد من أن أعترف بوجود خلاف حول نقطة أخرى، فمهما كانت الدرجة التى يحقق بها رئيس الخدم تلك الصفة، يكون من الصعب عليه أن يتوقع من زملائه أن يعتبروه عظيما عندما يفشل فى إبرازها. و الملاحظ أن أشخاصا مثل «مستر مارشال»

و«مستر لين» لم يعملا إلا فى خدمة سادة من ذوى المكانة الأخلاقية الرفيعة ـ لورد ويكلنج، لورد كامبرلي، سير ليونارد جراى ـ والمؤكد أنهم ما كانوا ليعرضوا مواهبهم وقدراتهم على سادة أقل مستوى من أولئك.

وكلما فكر المرء فى ذلك اتضحت المسألة : الارتباط ببيت عريق، ومتميز شرط أساسى للعظمة بالفعل، ورئيس الخدم العظيم لايمكن إلا أن يكون شخصا يستطيع أن يشير إلى سنوات خدمته ويقول إنه قد وضع مواهبه وقدراته فى خدمة سيد عظيم، لخدمة الإنسانية من خلاله. وكما أقول، فإنه لم يحدث أبدا على مدى كل تلك السنوات ، أن فكرت فى الأمر بهذه الطريقة، ولكن ربما يكون خروجى فى رحلة كهذه توجها جديدا لتناول موضوعات كتلك من منظور جديد، موضوعات كان المرء يتصور أنه قد فكر فيها بشكل نهائى. ومما لاشك فيه أننى قد بدأت أنحو هذا المنحى فى التفكير نتيجة ذلك الحدث الذى وقع منذ ساعة أو أكثر قليلا، والذى ـ لابد من أن أعترف ـ بأنه قد أربكنى قليلا.

بعد أن استمتعت بقضاء صباح جميل فى قيادة السيارة فى طقس بديع، وبعد أن تناولت غداء طيبا فى نزل ريفى، عبرت الحدود إلى «دورست». وفجأة شممت رائحة سخونة منبعثة من ماكينة السيارة. وأزعجنى احتمال أن أكون قد تسببت فى ضرر لسيارة مخدومى فأوقفتها

على الفور. كنت على طريق فرعية ضيقة تغطيها الأعشاب والشجيرات الكثيفة من الجانبين ولا أعرف ماذا حولي. لا أستطيع أن أرى لمسافة بعيدة أمامي، والطريق حادة الانعطاف بعد عشرين ياردة تقريبا. فكرت ألا أبقى طويلا كما أنا خوفا من قدوم سيارة فتصطدم بسيارة مخدومي. أدرت محرك السيارة ثانية وهدأت قليلا وكانت الرائحة قد خفت حدتها، وكان أفضل ما يمكن أن أفعله هو البحث عن «جراچ» أو مسكن أحد هنا ، حيث احتمال وجود سائق يعرف ما حدث للسيارة. ولكن الطريق كانت ملتفة على مدى مسافة أخرى ، والنباتات على الجانبين حاجبة للرؤية لدرجة أننى مررت أمام بعض البوابات المؤدية إلى دروب ، دون أن ألمح البيوت نفسها. بعد نصف الميل تقريباً، وكانت الرائحة المزعجة قد زادت، وصلت إلى طريق مفتوح. كنت أرى أمامى بوضوح وظهر على يسارى منزل مرتفع ، على الطراز «الڤيكتورى» أمامه مساحة خضراء كبيرة، ومسار ضيق إلى جراچ قديم. اقتربت، وشجعنى أن لمحت سيارة من طراز «بنتلى» من خلال باب «الجراچ» المفتوح الملحق بالمنزل الرئيسى.

وجهت السيارة قليلا نحو المطلع، نزلت وسرت نحو الباب الخلفى للمنزل. فتحه لى رجل كان يرتدى قميصا بدون رابطة عنق، وعندما سألته عن سائق المنزل أجابنى متهللا بأننى «قد أصبت الهدف من أول رمية». استمع إلى مشكلتى فجاء معى إلى السيارة، فتح غطاء الماكينة

وبعد فحص سريع لم يستغرق ثوان قال :

«ماء ياعزيزي! تحتاج بعض الماء للرادياتير»

بدا عليه أنه يضحك من الموقف كله، ولكنه كان كريما جدا معي، فعاد إلى المنزل ورجع بإبريق ماء وقمع. وهو يقوم بوضع الماء في «الرادياتير» ورأسه محنية على الماكينة راح يتكلم معي بمودة. وعندما عرف أنني في نزهة بالسيارة، اقترح على أن أقوم بزيارة منطقة جميلة قريبة وهي بركة على بعد نصف ميل من المكان. وفي الوقت نفسه كانت لدي الفرصة لكي ألاحظ أن ارتفاع المنزل كان أكبر من سعته، وأنه يتكون من أربعة طوابق وواجهته يغطيها اللبلاب حتى يصل إلى «الجملون». كما رأيت من خلال النوافذ أن التراب كان يغطي أكثر من نصفه، وعندما قلت ذلك للرجل بعد أن انتهى من ملء الرادياتير قال : إنه شيء مخجل فعلا، منزل جميل قديم و«الكولونيل» يريد أن يبيعه . لم يعد الآن في حاجة لمنزل بهذا الحجم.»

لم أملك إلا أن أتساءل عن عدد الذين كانوا يعملون به، ولدهشتي قال الرجل إنه لم يكن هناك غيره ، و«طباخ كان يأتي كل مساء ». وكما يبدو ، فإن الرجل كان هو رئيس الخدم والخادم والسائق والمسئول عن النظافة.، كان كل أولئك بالفعل. كان الجندي المرسال «للكولونيل» في الحرب ــ كما قال ــ وأنهما كانا معا في «بلچيكا» عندما استولى عليها

الألمان ، كما كانا معا بعد ذلك أيضا عند إنزال قوات الحلفاء. ثم نظر إلىّ بإمعان وقال : «والآن فهمت! لم أعرفك لأول وهلة.. ولكننى أدركت الآن. أنت واحد منهم.. رئيس خدم من الطراز الأول ... من أحدها... أحد البيوتات العريقة والكبيرة.»

وعندما قلت له إنه لم يبعد كثيرا قال :

«الآن فهمت، فى البداية لم أكتشفك لأنك تتكلم مثل السادة. ولأنك تقود سيارة فاخرة كهذه ـ ثم أومأ إلى السيارة ـ ظننت فى البداية أننى أمام شخص غريب الأطوار. ولكنك هكذا يا عزيزى. شخص ممتاز. أنا لم أتعلم شيئا من ذلك كما ترى، كنت مجرد جندى مرسال عجوز، أصبح مدنيًا.

بعد ذلك سألنى عن مكان عملى وعندما أخبرته أمال رأسه إلى جنب و حدقنى بنظرة فضول.

قال لنفسه : "دارلنجتون هول .... «دارلنجتون هول» ...! لابد أن يكون مكانا من الطراز الأول ، ذلك يوفر نجاحا لشخص مثلك تماما. «دارلنجتون هول» ...! تشبث بمكانك ... «دارلنجتون هول» ... تقصد قصر «لورد دار لنجتون؟»

قلت : "كان مقر إقامة «لورد دارلنجتون» حتى وفاته قبل ثلاث سنوات ، ... وهو الآن قصر «مستر چون فاراداى» ، رجل أمريكى" .

"لابد من أن تكون بالفعل رئيس خدم من الطراز الأول لكى تعمل فى مكان كذلك. لم يعد هناك كثيرون مثلك !" ثم تغيرت نبرة صوته بدرجة ملحوظة وهو يسأل :.

تعنى بالفعل أنك كنت تعمل لدى «لورد دارلنجتون» وكان يحدق فىّ. قلت : «لا .. أنا أعمل لدى «مستر فاراداى» ، الأمريكى الذى ابتاع القصر من أسرة «دارلنجتون».

«إذن فأنت لم تعرف «اللورد دارلنجتون» . أنا أتساءل فقط .. كيف كان ؟ أى نوع من البشر ؟»

قلت للرجل إننى لابد من أن أواصل طريقى وشكرته على مساعدته لى. كان على أية حال كريما معى ، وتحمل مشقة إرشادى لأتمكن من الرجوع بالسيارة والخروج من البوابة ، وقبل أن أنطلق انحنى وأوصانى بأن أزور البركة ، مكررا وصفه للطريق المؤدى اليها . قال : «مكان جميل ، ستندم كثيرا إن لم تزره ، «الكولونيل» هناك يصطاد السمك».

بدت السيارة فى حالة جيدة مرة أخرى ، وحيث إن البركة كانت قريبة من المكان ، قررت أن أنفذ اقتراح الرجل. كان وصفه للطريق واضحا ، إلا أننى بمجرد أن انحرفت عن الطريق الرئيسى وجدت نفسى حائرا بين طرق فرعية ضيقة وملتفة ، مثل تلك التى شممت فيها رائحة احتراق ماكينة السيارة . كانت الأعشاب على الجانبين تبدو كثيفة

. أحيانا، وتحجب ضوء الشمس، وكانت عيناى تجدان صعوبة فى التأقلم مع التغيرات المتسارعة بين الضوء الساطع والظلال الكثيفة . إلا أننى أخيرا وبعد بحث لم يستمر طويلا، رأيت علامة الطريق التى تشير إلى «بركة مورتيمر»، وحدث أننى كنت قد وصلت إلى تلك البقعة منذ نصف الساعة تقريبا. والآن ، هأنذا أجد نفسى مدينا لذلك الجندى المرسال ، لأنه إلى جانب مساعدتى فى إصلاح السيارة، مكننى من اكتشاف هذه المنطقة الساحرة ، التى كان من المستحيل أن أجدها أو أن أعرف مكانها لولا مساعدته . البركة ليست كبيرة ـ محيطها قرابة ربع الميل ـ لدرجة أنك يمكن أن تراها كلها إن وقفت على أى نتوء جبلى. يسود هنا هدوء تام الأشجار متحلقة حول الماء ومتقاربة، تلقى بظلال ناعمة على الشواطئ ، بينما تتناثر هنا وهناك مجموعات من الدغل والأعشاب المائية تكسر سطح الماء والسماء المنعكسة فيه . الحذاء الذى ألبسه ليس مناسبا للتجوال على محيط البركة ـ لأننى أرى من مكانى الذى أجلس فيه أن الشريط يختفى فى مساحات مغطاة بالطين العميق ـ ولكن جمال المكان أغرانى بأن أفعل ذلك بمجرد أن وصلت إلى هنا . بيد أنَّ التفكير فى عواقب ذلك، وما قد يحدث لملابس السفر جعلانى أكتفى بالجلوس على هذه الدكة. وهذا مافعلته على مدى نصف الساعة الماضية، وأنا أتأمل الجالسين بأدوات الصيد فى أماكن مختلفة على

الشاطئ . فى هذه اللحظة ، أرى منهم ما يزيد عن عشرة أشخاص ، . ولكن الضوء الشديد، والظلال الناجمة عن الأفرع المعلقة والمتشابكة لايمكننى من تحديد ملامح أى منهم بوضوح . ولذا تخليت عن أية محاولة للتعرف أو التخمين ، أيهم كان «الكولونيل» الذى تلقيت فى منزله تلك المساعدة المفيدة .

ولا شك فى أن هدوء المنطقة وأن ما يحيط بى من جمال ، هو الذى مكننى من التفكير بعمق فى كل ما دار بذهنى على مدى نصف الساعة. فعلا .. لولا الهدوء والسكينة فى هذا المكان ، لما أمكن أن أفكر فى سلوكى أثناء لقائى مع الجندى المرسال . أريد أن أقول إننى ماكنت لأفكر فى ذلك الانطباع الذى تركته ، وهو أننى لم أعمل أبدا لدى «لورد دارلنجتون». ليس هناك شك أن ذلك هو ما حدث بالفعل . سألنى "تعنى بالفعل أنك كنت تعمل لدى «لورد دارلنجتون؟» . وأعطيته إجابة قد تعنى تقريبا أننى لم أعمل لديه. ربما كانت مجرد نزوة لامبرر لها قد استولت علىّ فى تلك اللحظة، ولكنها على أية حال طريقة غير مقنعة لتفسير هذا السلوك الغريب . أصبحت الآن أرى أن ما حدث مع الجندى المرسال ليس أول شىء من نوعه، وأشك فى أن لذلك صلة ما ــ لا أعرف طبيعتها — بما حدث منذ أشهر قليلة أثناء زيارة أسرة "ويكفيلد".

"مستر ومسز ويكفيلد" أمريكيان استقرا فى إنجلترا - فى مكان ما

من «كنْت» على ما أظن - منذ عشرين عاما . ولأن لهما عددا كبيرا من المعارف المشتركين مع «مستر فاراداي» من بين مجتمع "بوسطن" فقد قاما بزيارة قصيرة ذات يوم لـ «دارلنجتون هول»، وبقيا لتناول الغداء وغادرا قبل موعد تناول الشاي . الوقت الذى أشير إليه الآن، كان بعد وصول «مستر فاراداي»نفسه إلى القصر بأسابيع قليلة، وكان حماسه فى ذروته لشراء القصر. معظم وقت زيارة «آل ويكفيلد» قضياه يقودهما «مستر فاراداي» فى جولة طويلة للفرجة على المبنى بما فى ذلك الأجزاء المغطاة بالتراب ، وكان ذلك فى نظر كثيرين أمر لا مبرر له . كان مستر ومسز «ويكفيلد» حريصين على تأمل وتفحص كل شىء مثل «مستر فاراداي»، وعندما ذهبت للقيام بعملى كنت ألتقط بأذنى بعض التعبيرات الأمريكية عن البهجة والدهشة تتردد فى أرجاء القصر ... أينما حلوا. بدأ«مستر فاراداي» الجولة من الطابق العلوى، وعندما نزل بضيفيه لمشاهدة غرف الطابق الأرضى كانت تبدو عليه السعادة، وهو يوضح لهم تفاصيل عمارة أفاريز وإطارات النوافذ ويشرح لهم ـ مبتهجا ـ «ما كان يفعله «اللوردات» الإنجليز فى كل غرفة». وبالرغم من أننى لم أتعمد التنصت ، إلا أننى فهمت مضمون ما كان يقوله وأدهشتنى سعة معرفة مخدومى والتى كانت ـ بالرغم من بعض الملاحظات غير الموفقة ـ تعبر عن حماس شديد لأسلوب الحياة الإنجليزية . والملاحظ ـ علاوة على

ذلك- أن «آل ويكفيلد» ، «مسز ويكفيلد» بخاصة - كانا يجهلان تقاليد بلادنا ، كما فهمت من كثير من التعليقات التى أبدياها أنهما كانا يملكان قصرا إنجليزيا رائعا. وفى لحظة ما أثناء هذه الجولة فى المبنى ـ وكنت أعبر القاعة معتقدا أن المجموعة قد ذهبت لمشاهدة الطابق الأرضى - رأيت أن "مسز ويكفيلد" قد تخلفت عنهم وراحت تفحص التقوس الحجرى حول مدخل غرفة الطعام . عندما مررت بها قلت : عفوا ياسيدتى "التفتت قائلة : ربما تستطيع أنت أن تخبرنى يا «ستيفنس» ... هذا التقوس يبدو من طراز القرن السابع عشر ، ولكن أليست الحقيقة أنه قد بنى حديثا ؟! وربما حتى فى زمن «لورد دارلنجتون»؟!"

«يمكن أن يكون كذلك ياسيدتى»

«إنه جميل جدا ، ربما يكون قطعة تقليد لبناء ذلك القرن وقد صنعت من سنوات قليلة فقط . أليس كذلك؟»

«لست متأكدا ياسيدتى ، لكن هذا ممكن» .... ثم خفضت صوتها قائلة : «لكن قل لى يا «ستيفنس»، كيف كان ذلك «اللورد دارلنجتون»؟ من المحتمل أن تكون قد عملت لديه.»

«لم يحدث ياسيدتى!»

«لقد كنت أظن العكس ، ولا أعرف السبب»

ثم استدارت «مسز ويكفيلد» وتحسست التقوس قائلة :

«نحن إذن لسنا متاكدين! مازال يبدو لى أنه تقليد ... جيد جدا ... ولكنه تقليد !»

من المحتمل أن أكون قد نسيت ذلك الحوار ، إلا أننى بعد مغادرة أسرة «ويكفيلد» ، وكنت أقدم الشاى لـ «مستر فاراداى» فى غرفة الاستقبال، لاحظت أنه كان مشغول البال . بعد فترة صمت قصيرة قال : أتدرى يا «ستيفنس»؟ «مسز ويكفيلد» لم يعجبها القصر وكنت أظن العكس!»

«هكذا ياسيدى ؟»

«بدا عليها الشعور بأننى أبالغ فى عراقته، وأننى كنت أجعله يبدو قديما جدا ... من قرون »

«حقا يا سيدى؟»

«ظلت تؤكد أن كل شيء هنا تقليد... حتى أنت يا «ستيفنس»، كانت تظن أنك تقليد!»

«حقا يا سيدى؟»

«نعم يا «ستيفنس» . قلت لها إنك أصلى . رئيس خدم إنجليزى عريق. وإنك تعمل هنا فى هذا القصر منذ ثلاثين عاما على الأقل وتقوم بخدمة «لورد» إنجليزى أصيل .. لكن «مسز ويكفيلد» كانت تجادلنى فى هذه النقطة . والحقيقة أنها كانت تعارض بثقة شديدة»

«هكذا ياسيدى ؟»

«مسز ويكفيلد» يا «ستيڤنس» مقتنعة بأنك لم تعمل أبدا قبل أن تأتى إلى هنا ، ويبدو أنها سمعت ذلك منك شخصيا ، وجعلتنى أبدو غبيا إلى أقصى مدى يمكن أن تتخيله"

«هذا أمر مؤسف ياسيدى !»

«أريد أن أقول يا «ستيڤنس» إن هذا منزل إنجليزى عتيق ... عريق ... أليس كذلك ؟ ذلك هو ما دفعت من أجله . وأنت رئيس خدم إنجليزى أصيل، ولست مجرد خادم يَدَّعى أنه رئيس خدم عظيم. أنت الشىء الحقيقى ... أليس كذلك ؟ هذا ماكنت أريد ، أو ليس ذلك ما هو موجود فعلا ؟»

«أستطيع أن أقول ذلك ياسيدى.»

«إذن يمكنك أن تفسر لى ما كانت تقوله "مسز ويكفيلد" ، فهو لغز غامض بالنسبة لى.»

«ربما أكون قد أعطيت السيدة صورة غير دقيقة إلى حد ما عن عملى ياسيدى ، وأعتذر بشدة إن كان ذلك قد تسبب فى بعض الحرج»

«أعتقد أنه قد تسبب فى حرج وارتباك . أولئك الناس يعتقدون الآن أننى متبجح ، وكذاب ! على أية حال ... ماذا تقصد بقولك إنك ربما تكون قد أعطيتها صورة غير دقيقة عن عملك هنا ؟»

" أنا آسف ياسيدى ، لم أقصد أبدا أن أسبب لك هذا الموقف المحرج!"

"اللعنة ! لكن لماذا قلت لها ذلك يا"ستيفنس" ؟

فكرت فى الموقف لحظة ثم قلت :"آسف جدا ياسيدى ، ولكن ذلك ... تمشيا مع تقاليد هذه البلاد !"

"عم تتحدث يارجل؟"

"أريد أن أقول إنه ليس من المعتاد فى إنجلترا ياسيدى أن يتحدث الخادم عن مخدوميه السابقين".

"حسن يا "ستيفنس" ، أنت إذن لا تريد أن تكشف الأسرار الماضية . لكن هل يعنى ذلك أن يمتد إلى إنكار أنك عملت لدى أحد غيرى؟"

«ربما تكون قد ذهبت بعيدا فى فهم هذا الأمر ياسيدى، لكنه كان من المرغوب فيه دائما من الخدم أن يعطوا هذا الانطباع .. وهو شىء يشبه إلى حد ما ، العادة المتبعة بالنسبة للزواج إن جاز لى أن أقول ذلك. إذا حدث وكانت هناك سيدة مطلقة موجودة بصحبة زوجها الثانى ، فلا يليق بالمرة الإشارة إلى الزواج الأول .»

قال مخدومى :"كنت أتمنى لو أننى عرفت شيئا عن تقاليدكم هذه من قبل يا"ستيفنس"! لقد جعلنى ذلك أبدو كالأبله !"

أظن أننى أدركت ، حتى فى ذلك الوقت ، أن التفسير الذى قدمته لـ

"مستر فاراداي" لم يكن كافيا ، رغم أنه لم يكن عاريا عن الحقيقة تماما. ولكن عندما يكون المرء مثقلا بمشاغل كثيرة عليه أن يفكر فيها ، يصبح من السهل عدم إعطاء أهمية كبيرة لمثل تلك الأمور . هكذا كان الحال بالنسبة لي فعلا ، أبعدت الموضوع كله عن تفكيري لفترة ما . والآن ، وأنا جالس هنا في هدوء هذه المنطقة حول البركة، تبدو هناك ظلال شك في أن يكون سلوكي مع "مسز ويكفيلد" في ذلك اليوم كان له صلة ما بما حدث بعد الظهر . هناك بالطبع اليوم كثيرون ممن لديهم أشياء سخيفة يرددونها عن «لورد دارلنجتون»" وربما أكون قد تصرفت هكذا نتيجة الشعور بقدر من الحرج أو الخجل لعلاقتي بسيادته .

والآن دعني أوضح أن لاشيء يمكن أن يكون بعيدا عن الحقيقة. إن معظم ما يتردد اليوم عن سيادته على أية حال، هراء وينم عن جهل بالحقيقة. ويبدو أن سلوكي يمكن تفسيره بأنني لم أكن أريد أن أستمع إلى المزيد من الهراء عن سيادته، أو أنني بمعنى آخر أردت في الحالتين أن أردد كذبات بيضاء لتجنب ما هو أسوأ . عندما أفكر في ذلك يبدو تفسيرا مقنعا ، فلا شيء يضايقني أكثر من استماعي إلى تكرار مثل ذلك الهراء. دعني أقول إن «لورد دارلنجتون» كان رجلا ذا خلق رفيع ومكانة سامية، يبدو أمامها كل من يهرفون عنه بهذا الهراء أقزاما. وأستطيع أن أؤكد أنه قد ظل هكذا إلى النهاية . ولن يكون

صحيحا إن قلت إننى نادم على العمل لدى ذلك الرجل. ولابد من أنك ستقدر أن عملى فى خدمة سيادته فى «دارلنجتون هول» على مدى تلك السنوات، كان يعنى أننى قد اقتربت من صرة عجلة هذا العالم كما كان يحلم أى شخص مثلى.

قضيت فى خدمة «اللورد» خمسة وثلاثين عاماً . ولا يمكن أن أزعم أننى فى تلك السنوات لم أكن مرتبطا ببيت عريق . وعندما أنظر هكذا إلى تاريخى البعيد، أجد أن ما أشعر به من رضا نابع مما حققته فى خلال تلك السنوات ، وأنا اليوم فخور وممتن لأننى حصلت على تلك المزايا .

اليوم الثالث - صباحا
تونتون ، سومرست

أقمت الليلة الماضية فى نزل اسمه "العربة والأحصنة" يبعد قليلا عن مدينة "تونتون" فى منطقة "سومرست". ولأنه عبارة عن بيت صغير مسقوف بالقش بجوار الطريق ، كان يبدو جذابا من السيارة "الفورد" عندما اقتربت منه مع آخر ضوء. تقدمنى صاحب النزل على سلم يؤدى إلى غرفة صغيرة ، تكاد تكون خالية من الأثاث ولكنها مُرضية تماما . سألنى إن كنت قد تناولت عشائى فطلبت منه أن يرسل لى بعض الشطائر وكان ذلك كافيا .

ولكن ، عندما اقترب المساء بدأت أشعر بالقلق فى غرفتى ، وأخيرا قررت أن أنزل إلى البار لأجرب بعض العصائر المحلية. كان هناك خمسة أو ستة من النزلاء متحلقون حول البار ، يوحى مظهرهم بأنهم مزارعون، ولم يكن هناك غيرهم . طلبت كوبا من العصير وجلست على طاولة بعيدة قليلا قاصدا أن أسترخى وأستجمع أفكارى عن اليوم ، وسرعان ما اكتشفت أن أولئك الناس قلقون لوجودى، ويشعرون بالحاجة لإظهار كرم الضيافة . وكلما كانت هناك لحظة صمت فى حديثهم ، كان أحدهم يختلس نظرة نحوى وكأنه يحاول الاقتراب منى. وأخيرا رفع أحدهم صوته قائلا لى : "يبدو أنك قد قررت أن تقضى الليلة هنا فى الطابق العلوى ياسيدى" . وعندما أخبرته أن الأمر كان كما قال هز رأسه – فى شك – وهو يقول : لن تنام جيدا ياسيدى !، إلا إذا كنت

مغرما بصوت الرجل العجوز - يقصد صاحب النزل - وهو يحدث جلبة طوال الليل ، ثم إنك ستقوم من النوم على صوت زوجته وهى تصيح وتناديه مع مطلع الفجر!" وبالرغم من احتجاج صاحب النزل على ما قال، إلا أنهم كانوا يقهقهون . قلت : "هل الأمر هكذا حقا؟!"، وبينما كنت أتكلم دهمتنى فكرة ، نفس الفكرة التى دهمتنى أكثر من مرة فى الفترة الأخيرة فى وجود "مستر فاراداى" - وهى أن الردود مطلوبة أحيانا . والحقيقة أن الناس كانوا صامتين ينتظرون أن يسمعوا تعليقى. فكرت ثم قلت : "تنويع محلى على صياح الديك لاشك !"

فى البداية استمر صمتهم وكأنهم يتوقعون منى أن أستمر فى الكلام، وعندما لاحظوا ملامح المرح على وجهى ضحكوا، رغم أن ذلك كان بشكل مرتبك إلى حد ما . وبذلك عادوا إلى حديثهم السابق ولم أتبادل معهم كلمات أكثر من ذلك إلى أن كانت "تصبحون على خير" بعد وقت قصير .

فى البداية كنت سعيدا لتلك المزحة التى جاءت إلى ذهنى، ولكننى لابد من أن أعترف بأننى قد خاب أملى قليلا لأنها لم تستقبل بشكل جيد. وأقول خاب أملى لأننى كنت أكرس وقتا أطول وجهدا أكبر على مدى الأشهر الأخيرة لتحسين مهارتى فى هذا المجال. بمعنى أننى كنت أحاول أن أضيف تلك المهارة إلى أسلحتى المهنية لكى أفى - بكل ثقة

– بما يتوقعه منى "مستر فاراداى" من قدرة على المزاح .

فمثلا .. اعتدت فى الفترة الأخيرة أن أستمع إلى الراديو فى غرفتى عند تيسر الوقت لذلك ، عندما كان "مستر فاراداى" يخرج فى المساء. كان أحد البرامج التى أستمع إليها واسمه "مرتين فى الأسبوع ... أو أكثر" عبارة عن تعليقات مرحة يقوم بها شخصان ، على موضوعات مختلفة تثيرها خطابات المستمعين . وكنت أفكر فى هذا البرنامج كثيرا لأن ما يقدم فيه من مزاح يروق للذوق وأعتقد أنه نوع الظرف الذى يتوقعه منى "مستر فاراداى". وكنت بينى وبين نفسى – عندما تلوح الفرصة المناسبة – أحاول أن أصوغ ملاحظات طريفة وساخرة على ما يقع من أحداث ، ولكننى كنت أفكر فى خيبة أملى بالأمس عندما حاولت الاستظراف . فى البداية تصورت أن نجاحى المحدود كان لأننى لم أتكلم بوضوح كاف. وبعد أن خلوت إلى نفسى تصورت أننى ربما أكون قد أغضبت أولئك الناس . وأخيرا قلت ربما يكون قد فُهِمَ من كلامى أننى أريد أن أشبه زوجة صاحب النزل بالديك الصغير ، وهو ما لم أقصده فى ذلك الوقت . ظلت هذه الفكرة تعذبنى وأنا أحاول النوم، وفكرت أن أعتذر لصاحب النزل هذا الصباح. ولكن مشاعره نحوى وهو يقدم لى الإفطار كانت إيجابية، كان مرحا ... وأخيرا قررت أن أنسى الأمر كله .

ولكن هذا الحدث الصغير مثال واضح للمخاطر التى يمكن أن تنجم عن محاولة الاستظراف. فالاستظراف أو التعليق الساخر بطبيعته لا يترك لك وقتا كافيا لتقدير نتائجه المتوقعة قبل أن تقوله ، وإذا لم يكن لدى المرء الخبرة الكافية والمهارة ، فقد يخاطر بقول أشياء غير مناسبة . وليس هناك سبب يجعلنى أفترض أننى سأكون ناجحا فى هذا المجال لو توفر لى الوقت والدربة ، ولكن تحسبا لتلك الأخطار فقد وجدت – فى الوقت الحالى على الأقل – أن من الأفضل ألا أقوم بتلك المهمة لـ "مستر فاراداى"، إلا بعد أن أكون قد تدربت تدريبا كافيا .

على أية حال ، من أسف أن أقول إن ما قدمه أولئك الناس المحليون من استظراف فى الليلة السابقة – أقصد توقعهم أننى لن أتمكن من النوم بسبب الضوضاء القادمة من أسفل – اتضح أنه حقيقى . لم يحدث أن صاحت زوجة صاحب النزل ، ولكنها ظلت هى وزوجها يتكلمان دون توقف حتى ساعة متأخرة من الليل وهما يقومان بعملهما .. ثم ابتداء من الفجر . كنت مستعدا لأن أجد عذرا لهما ، فقد كان واضحا أنهما من النوع الذى لايكف عن العمل ، وكانت الضوضاء بسبب ذلك فقط بكل تأكيد. وإلى جانب ذلك بالطبع، كان هناك تعليقى غير الموفق . ولذا لم أظهر لهما أبدا أننى لم أنم جيدا عندما شكرت صاحب النزل، وذهبت لأستكشف أسواق مدينة "تونتون" .

ربمـا كـان من الأفـضل لو أنني كنت قـد أقمت هـنا في هذا المكان الذي أجلس فـيه الآن مسـتمـتعـا بارتشـاف شـاي الضـحى ، فـالإعـلان الموضـوع خـارج المحل لا يعلن فقط عن وجود "شـاي ووجبات خفيفة وحلوى"، وإنما أيضـا عن "غرف نظيفة وهادئة ومريحة". المبنى يقع في شـارع "تونتـون" الرئيـسي وقـريب جدا من سـاحـة السـوق ، كمـا أنه منخفض نسبيا، وتميز واجهته الخارجية عوارض من خشب الأشجار . والآن ، أنا جالس في صالة الشاي الفسيحة وهي محاطة بألواح خشب البلوط، وبها طاولات تسع على مـا أعتقد – عشرين شـخصـا ولا يشعرون فيها بالزحام . تقوم بالخدمة فتاتان صغيرتان ، تقفان خلف طاولة عليها أنواع مـخـتلفـة من الحلوى والفطائر . وبشكل عـام، هذا مكان ممـتـاز لتناول شـاي الصـبـاح، ولكن الغـريب أن الذين يقـصـدونه من أهـالي "تونتون" عددهم قليل . لا أرى هنا الآن سوى سيدتين مسنتين تجلسان جنبـا إلى جنب على طاولة بحذاء الحائط المقابل، ورجل يبدو عليه أنه مـزارع مـتـقـاعـد أراه جـالسـا على طاولة أخـرى بجـوار إحدى النوافذ الكبيـرة ، ولا أستطيع أن أتبينه بوضـوح لأن ضـوء شـمس الصـبـاح قد حوله إلى صورة ظلية. لكنني أراه يقرأ جـريدته ويتوقف من وقت لآخر ينظر إلى المارة على الرصيف خارج المحل . ومن الطريقة التي يفعل بها ذلك ، ظننته في البداية ينتظر صديقا ، لكن يبدو أنه يريد فقط أن

يحيى بعض المارة من معارفه .

أنا نفسى جالس فى هدوء عند الجدار الخلفى، وإن كنت أستطيع عبر مساحة هذه الصالة أن أرى ما يدور فى الشارع الغارق فى ضوء الشمس ، كما يمكن أن أحدد على الرصيف المقابل علامة إرشادية تشير إلى مناطق قريبة، إحداها قرية "مرسدن". ربما تُذَكِّرك هذه القرية بشىء ما، كما حدث لى بالأمس عندما اكتشفتها لأول مرة على أطلس الطرق. والواقع أننى لابد من أن أقول إننى كنت تحت إغراء الانحراف قليلا عن خط سيرى المقرر لكى أزور تلك القرية. "مرسدن / سومرست" هى المكان الذى كانت توجد فيه شركة "جيفن وشركاه" ذات يوم ، وكنا نرسل إلى "مرسدن" طلبياتنا من شمع التلميع . ولفترة من الزمن كان "ملمع جيفن" هو أفضل ملمع للفضيات، ولكن ظهور مواد كيماوية فى السوق بعد الحرب بفترة قصيرة ، هو الذى جعل هذا المنتج يتراجع.

وعلى ما أذكر فإن "ملمع جيفن" كان قد ظهر فى أوائل العشرينيات وأنا واثق من أننى لست الوحيد الذى يربط بين ظهوره والتغير الذى طرأ على مهنتنا ، ذلك التطور الذى جاء ليدفع عملية تلميع الفضيات إلى مركز الأهمية الرئيسية التى احتفظت بها إلى اليوم . وأعتقد أن هذا التحول مثل غيره من التحولات الرئيسية كان أمرا يتعلق بالأجيال . فى تلك السنوات كان جيلنا من رؤساء الخدم قد تقدم به العمر ، ولعبت

شخصيات ، مثل "مستر مارشال" بخاصة ، دورا حاسما لجعل مسألة تلميع الفضيات هذه مسألة رئيسية. ولا يعنى ذلك بالطبع أننى أقول إن تلميع الفضيات ، وبخاصة تلك الأدوات التى تظهر على المائدة ، لم يكن واجبا مهما .

ويمكن أن نقول إن كثيرين من رؤساء الخدم من جيل والدى لم يعتبروا ذلك أمرا مهما أو جوهريا ، والدليل على ذلك أن رئيس الخدم فى تلك الأيام نادرا ما كان يشرف على تلميع الفضيات بنفسه ، وكان يكتفى بترك تلك المهمة لمساعده، ويقوم هو بالتفتيش على ذلك من وقت لآخر .

وهناك إجماع على أن "مستر مارشال" كان أول من أدرك الأهمية الكبيرة للفضيات، وخاصة لأن أى أشياء أخرى فى القصر لن تكون تحت التفحص الدقيق من الغرباء أثناء الطعام مثل الفضيات، ولذلك كانت تعتبر عنوانا لمستوى القصر أو البيت. وكان "مستر مارشال" أول من تسبب فى تلك الدهشة الكبيرة، والتى بلغت حد الذهول بين السيدات والسادة من ضيوف قصر "شارل ڤيل"، بما يقدمه من فضيات لامعة بشكل لم يسبق لهم أن رأوه. وبسرعة - طبعا - كان رؤساء الخدم فى كل أنحاء البلاد ، وتحت ضغط من مخدوميهم ، يركزون اهتمامهم على تلميع الفضيات . وبعد ذلك ظهر كثيرون من رؤساء الخدم ، كل منهم

يزعم أنه اكتشف طرقا يتفوق بها على "مستر مارشال" ويتظاهر بأنه يحتفظ بسرها، وكأنه رئيس طهاة يحتفظ بسر وصفة الطعام .

ولكننى على ثقة – كما كنت آنذاك – من أن كافة العمليات الواضحة والغامضة التى كانت تقدم عن طريق شخص مثل "مستر چاك نيبورز" لم تكن ذات أثر ، أو ربما كان أثرها قليلا على النتيجة النهائية . وبالنسبة لى كان الأمر يسيرا ، وهو أن يستخدم المرء ملمعا جيدا، ويقوم بإشراف جيد . وكان "ملمع جيفن" هو ما يحرص على طلبه رؤساء الخدم الأكثر فهما وإدراكا فى ذلك الوقت ، ولو استخدم هذا الملمع على النحو الصحيح ، فلن يجد المرء أفضل من فضياته فى أى مكان . ويسعدنى أن أتذكر مناسبات عدة ، كان للفضيات فيها تأثير مبهج على كل من يراها فى "«دارلنجتون» هول" . أتذكر مثلا "ليدى أستور" وهى تقول – بمرارة واضحة – إن فضياتنا "ليس لها منافس". أتذكر "مستر چورچ برنارد شو"، كاتب المسرح الشهير، وهو يفحص ملعقة الحلوى الموضوعة أمامه ذات مساء، ويقربها من الضوء ويقارن سطحها بسطح طبق صغير قريب، غير مدرك لمن حوله . ولعل الحدث الذى أتذكره برضا كبير اليوم، كان أثناء زيارة غير رسمية للقصر قامت بها إحدى الشخصيات المهمة ، كان وزيرا فى الحكومة وأصبح وزيرا للخارجية بعد ذلك بوقت قصير . وبما أن نتائج تلك الزيارات أصبحت معروفة

وموثقة ، فلا مانع من أن أقول إننى أتحدث عن "لورد هاليفاكس" .

ومع تطور الأمور ، كانت تلك الزيارة هى الأولى فى سلسلة اللقاءات "غير الرسمية" بين "لورد هاليفاكس" و "الهر ريبنتروب"، السفير الألمانى آنذاك . ولكن فى تلك الليلة الأولى كان لورد هاليفاكس" قد وصل فى حالة من الإرهاق الشديد والسأم، وكان أول ما قال عندما دخل إلى هنا: "الحقيقة يا «دارلنجتون» أنا لا أعرف السبب الذى جئت بى من أجله إلى هنا ، أعرف فقط أننى سأندم بشدة".

ولأن "الهر ريبنتروب" لم يكن من المتوقع أن يصل قبل ساعة تقريبا ، فقد اقترح سيادة "لورد" على ضيفه جولة فى القصر ، وهى استراتيجية ساعدت على استرخاء الضيوف المتوترين بعض الشىء. إلا أن كل ماكنت أسمعه بعد أن ذهبت لمباشرة عملى، هو صوت "لورد هاليفاكس"- فى مواقع مختلفة من القصر - وهو مستمر فى التعبير عن شكوكه فى ذلك المساء الذى كان ينتظرهم، وكان "«لورد دارلنجتون»" يحاول جاهدا أن يطمئنه ولكن دون طائل. وفى لحظة ماسمعت "لورد هاليفاكس" يقول : يا إلهى ! الفضيات فى هذا القصر شىء رائع يا «مستر دارلنجتون» .. شىء لايصدق!" وكنت بالطبع سعيدا أن أسمع ذلك فى حينه ، لكن ما جعلنى فى غاية الرضا فقد جاء بعد يومين أو ثلاثة عندما قال لى "لورد «دارلنجتون»" :

"بالمناسبة يا "ستيفنس" ، إن "لورد هاليفاكس" كان شديد الإعجاب بالفضيات فى تلك الليلة . لقد جعلته فى حالة مزاجية ونفسية مختلفة تماما".

كانت تلك كلمات سيادته حرفيا - التى أتذكرها بالضبط - ولذا فأنا لست واهما عندما أقول بكل بساطة ، إن الفضيات قد أسهمت بقدر بسيط، وإن كان مهما ، فى تلطيف العلاقات بين "لورد هاليفاكس" و "الهر ريبنتروب" فى ذلك المساء .

ولعله من الجدير هنا أن أقول شيئا عن "الهر ريبنتروب" . من المقبول طبعا هذه الأيام القول - بشكل عام - إن "الهر ريبنتروب" كان مخادعا ومحتالا : وأنها كانت خطة "هتلر" فى تلك السنوات أن يخدع انجلترا أطول فترة ممكنة بخصوص نواياه ، وأن مهمة "الهر ريبنتروب" الوحيدة فى بلدنا ، كانت هى تنسيق ذلك الخداع والإشراف عليه . وكما قلت ، فإن تلك كانت هى النظرة العامة، ولا أود أن أختلف معها هنا . وفى الوقت نفسه، من المضجر أن تكون مضطرا للاستماع إلى أناس يتكلمون اليوم وكأن "الهر ريبنتروب" لم يخدعهم أبدا ، وكأن «لورد دارلنجتون» كان هو الوحيد الذى يعتقد أن "الهر ريبنتروب" كان رجلا شريفا واستمر فى علاقة عمل معه .

والحقيقة أن "الهر" كان شخصية محترمة ولامعة على مدى

الثلاثينيات فى أفخم القصور والبيوتات . وأستطيع أن أتذكر أن "السفير الألمانى" كان هو موضوع الحديث بين الخدم الزائرين فى عامى ١٩٣٦ و١٩٣٧ تقريبا ، وكان واضحا مما يقال أن الكثيرين من السيدات والسادة المحترمين فى هذا البلد كانوا مفتونين بشخصيته . من المضجر كما أقول ، أن تكون مضطرا للاستماع إلى أولئك الناس أنفسهم، وهم يتحدثون عن تلك الأيام ، وخاصة ما يقوله البعض عن "اللورد" . ولو قدر لك أن ترى بعض قوائم أسماء ضيوفهم فى تلك الأيام ، ستدرك مدى نفاقهم. ستكتشف أن "الهر ريبنتروب" لم يكن فقط ضيفا دائما على موائد العشاء لديهم ، بل إنه كان غالبا ضيف الشرف فى تلك المناسبات. ثم ستستمع إلى أولئك الناس أنفسهم يتحدثون وكأن «اللورد دارلنجتون» قد فعل شيئا غير عادى بقبوله لكرم ضيافة النازيين أثناء رحلاته العديدة لألمانيا على مدى تلك السنوات .

ولا أعتقد أنهم كان من الممكن أن يتكلموا هكذا طواعية ، لو تصورنا أن "التيمز" كان يمكن أن تنشر – ولو – قائمة واحدة من قوائم الحفلات التى أقامها الألمان أثناء مؤتمر "نورمبرج" الحاشد . والحقيقة أن السادة والسيدات المحترمين والمتحققين فى انجلترا كانوا كلهم يفيدون من كرم الزعماء الألمان ، كما أستطيع أن أؤكد بشكل مباشر أن الغالبية العظمى من أولئك الأشخاص كانوا يعودون دائما بالمديح

والإعجاب الشديد على مضيفيهم ولا شيء أكثر من ذلك. وأى شخص يلمح أن "اللورد دارلنجتون" كان يتعامل سرا مع عدو معروف ، فإنما يتناسى بشكل واضح المناخ الحقيقى لتلك الأيام . ولابد من أن أقول أيضا إن من الهراء الداعر اتهام «لورد دارلنجتون» بأنه كان معاديا للسامية ، أو أنه كان له علاقة وثيقة بمنظمات مثل الاتحاد العمالى البريطانى الفاشستى. مثل هذه المزاعم يمكن أن تنجم فقط عن الجهل التام بنوعية رجال مثله. «لورد دارلنجتون» كان شديد المقت لمعاداة السامية ، وقد سمعته فى مواقف عديدة يعبر عن اشمئزازه الشديد عندما كان يُواجَه بأى مشاعر معادية للسامية . ولا صحة على الإطلاق للزعم بأن سيادته لم يسمح بدخول أى يهودى للعمل فى القصر . ربما حدث ذلك لفترة قصيرة لاتذكر فى الثلاثينيات . أما بالنسبة لاتحاد العمال البريطانى الفاشستى، فأقول بأن أى ادعاء الربط بين اسمه وأولئك الناس ، كلام غريب وشاذ. "السير أوزوالد موصلى" – الرجل الذى تزعم "القمصان السوداء"– كان من زوار "دارلنجتون هول" فى ثلاث مناسبات على الأكثر ، وتلك الزيارات حدثت كلها فى الأيام الأولى للتنظيم قبل أن يخون رسالته وطبيعته . وبمجرد اتضاح قبح حركة "القمصان السوداء".

ودعنى أقول إن سيادته كان أسرع من لاحظ ذلك – لم يعد له صلة

بمثل أولئك الناس . وعلى أية حال ، فإن مثل تلك المنظمات لم تكن لها علاقة بقلب الحياة السياسية فى هذا البلد . كان "لورد دارلنجتون" - كما ستفهم - نوعا من الناس الحريصين على شغل أنفسهم بما هو جوهرى ، والأشخاص الذين حشدهم معا فى جهوده على مدى تلك السنوات كانوا بعيدين كل البعد عن تلك التجمعات الثانوية . وليس فقط لأنهم كانوا شخصيات محترمة ، بل ولأنهم كانوا ذوى نفوذ حقيقى فى الحياة البريطانية : كان منهم سياسيون ودبلوماسيون وعسكريون ورجال دين . والحقيقة أن بعضهم كان من اليهود ، وهذا وحده دليل على أن اتهامه بمعاداة السامية محض هراء .

لكننى أجد نفسى أشطح بعيدا عن الموضوع . كنت أتحدث عن الفضيات وكيف كان «لورد هاليفاكس» شديد الانبهار بها فى ذلك المساء عندما التقى «الهر ريبنتروب» فى «دارلنجتون هول» أريد أن أوضح أننى لم أقصد أبدا أن أقول إن الفضيات وحدها هى التى أدت إلى نجاح ذلك المساء الذى كان يبدو مهددا بالفشل فى البداية بالنسبة لمخدومى . ولكن كما قلت فإن "لورد دار لنجتون" نفسه قال إن الفضيات كانت على الأقل عاملا مساعدا على تغيير الحالة المزاجية والنفسية لضيفه فى ذلك المساء، وربما لا يكون عبثا النظر إلى تلك المسألة ببعض الرضا.

هناك بين أبناء مهنتنا من يعتقدون أن طبيعة الشخص الذى يعملون عنده ليس لها أهمية ، ويرون أن السعى لخدمة كبار القوم الذين يعملون من أجل قضية الإنسانية ، نوع من المثالية السائدة فى جيلنا، وأن ذلك خيال لا أساس له من الواقع . والملاحظ طبعا أن الذين يعبرون عن تشكك كهذا ، هم من متوسطى الموهبة فى مهنتنا ، أولئك الذين يعرفون أنهم يفتقدون القدرة على التقدم نحو أى منصب كبير، ويسعون فقط - قدر استطاعتهم - إلى جذب الآخرين إلى مستواهم ، والمرء منا لا يأخذ تلك الخيارات على محمل الجد . وبالرغم من ذلك كله ، يظل من دواعى الرضا أن تكون قادرا على أن تشير إلى مواقف فى حياتك العملية توضح كم كان أولئك الناس على خطأ . كما أن المرء منا يريد دائما أن يقدم خدمة شاملة لمخدومه ، لا يمكن أن تخفض قيمتها إلى عدد محدود من المواقف - مثل تلك المتعلقة بـ "لورد هاليفاكس". لكن ما أقوله هو أنه فى مثل تلك المواقف الرمزية كان لدى الواحد منا ميزة ممارسة مهنته فى صميم المسائل المهمة . وربما يكون من حق المرء أن يشعر بالرضا وهو يقول بروية إن جهوده تمثل إسهاما فى مسيرة التاريخ ، مهما كانت تلك الجهود متواضعة . هذا الشعور بالرضا لا يشعر به القانعون بخدمة المخدومين المتوسطين . على أن المرء لا ينبغى أن يعود إلى الماضى كثيرا إلى هذه الدرجة . على أية حال ، مازالت أمامى

سنوات عديدة في الخدمة المطلوب مني أن أؤديها . و "مستر فاراداي" ليس مخدوما ممتازا فحسب ، ولكنه إلى جانب ذلك رجل أمريكي أشعر نحوه بواجب ما ، وهو أن أقدم له كل ما هو أفضل في الخدمة في انجلترا . من الضروري إذن أن أحتفظ باهتمامي مركزا على الحاضر وأن أحترس من أن تكون كل مشاعر الرضا لديّ بسبب ما أنجزته في الماضي، إذ يجب الاعتراف بأنه على مدى الأشهر الأخيرة لم تعد الأمور كما كانت في "دار لنجتون هول" . فقد ظهرت في الآونة الأخيرة أخطاء صغيرة : بما في ذلك الحدث الذي وقع في أبريل الماضي والخاص بالفضيات . ولحسن الحظ لم يكن هناك في تلك المناسبة ضيوف كثيرون لـ "مستر فاراداي" ، إلا أنها كانت مناسبة حدث لي فيها حرج وانزعاج شديدين .

حدث ذلك ذات صباح على الإفطار ، إلا أن "مستر فاراداي" من جانبه لم يعلق بكلمة شكوى واحدة على مدى سنوات عملي كلها ، ربما بدافع من العطف ، وربما لأنه لم يلحظ الخطأ لكونه أمريكي. عندما هم بالجلوس كان أن التقط شوكة من أمامه وراح يتفحصها للحظة خاطفة، ثم لمس شعبها بطرف إصبعه، ثم حول انتباهه إلى مانشتات صحف الصباح . حدث ذلك كله بسرعة، والتقطتُ أنا الإشارة شارد الذهن فأسرعت لرفع الشوكة من على المائدة. ربما أكون قد فعلت ذلك بسرعة

فكرت أن أضع الشوكة بهدوء على المفرش دون أن أقطع على سيادته استغراقه في القراءة . تصورت أن "مستر فاراداى" يتظاهر بعدم الاكتراث ليقلل من شعورى بالحرج، وربما محاولة للتغطية على الخطأ. لذا قررت أن أضع الشوكة على المفرش بوضوح وتأكيد مما جعل مخدومى يجفل مرة أخرى وينظر إلى قائلا – مرة أخرى أيضا – : «أو! ستيفنس!»

إن أخطاء كتلك التى وقعت فى الأشهر الأخيرة كانت جارحة – بلاشك – لاحترام المرء لنفسه، إلا أنه ليس هناك ما يجعلنا نراها دليلا على أى شىء سوى نقص عدد العاملين. ليس لأن هذا النقص مهم فى حد ذاته، ولكن لأن "مس كنتون" لو عادت إلى "دار لنجتون هول" فأنا واثق من أن أخطاء كتلك لن تحدث. وبالطبع لابد أن أذكر أنه لاشىء محددا فى رسالة "مس كنتون" التى أعدت قراءتها فى غرفتى قبل أن أطفئ النور، كان يعبر عن رغبتها فى العودة لوظيفتها السابقة. ربما أكون قد بالغت من قبل عندما تصورت أنها كانت ترغب فى ذلك ، وكنت مندهشا فى الليلة السابقة لعدم قدرتى على اكتشاف عبارة واحدة تدل على ذلك. على أية حال يبدو من الصعب التكهن بذلك، خاصة وأننى سوف أتكلم معها وجها لوجه بعد ثمانية وأربعين ساعة. إلا أننى لابد من أن أقول إننى ظللت أقلب تلك العبارات فى

عقلي وأنا راقد في الظلام في الليلة السابقة ، أستمع إلى الأصوات القادمة من الدور الأرضي ، أصوات صاحب المنزل وزوجته وهما ينتهيان من عملهما آخر الليل .

اليوم الثالث - مساء

موسكومبى - بالقرب من تافيستوك ، ديفون

يبدو أنني لابد من أن أعود لحظة إلى قضية موقف سيادته من اليهود ، لأن معاداة السامية قد أصبحت قضية حساسة بشكل عام هذه الأيام . وأود بشكل خاص أن أوضح الأمر بالنسبة لذلك الحظر الذى فرضه على عمل اليهود فى "دارلنجتون هول" . ولأن هذا الموضوع يوجد فى مجال عملى مباشرة فإننى أستطيع أن أدحضه بشكل حاسم . فطوال فترة خدمتى لدى سيادته كان يعمل معى يهود، والأكثر من ذلك أنهم لم يُعَامَلوا أبدا بشكل مختلف بسبب جنسهم. ولا أستطيع أن أخمن السبب الحقيقى لتلك المزاعم السخيفة إلا أن تكون قد نشأت - وهذا أمر مضحك - منذ تلك الأسابيع القليلة فى أوائل الثلاثينيات عندما كانت "مسز كارولين بارنيت" تمارس نفوذا غير عادى على سيادته .

"مسز بارنيت" أرملة "مستر تشارلز بارنيت"، كانت فى الأربعينيات من عمرها فى تلك الأيام، وكانت سيدة أنيقة وممن يمكن أن يوصفن بالفتنة . كانت مشهورة بذكائها الحاد . وفى تلك الأيام كنا نسمع كثيرا عن قدرتها على إفحام كثير من الرجال المثقفين على العشاء عند مناقشة الكثير من القضايا المعاصرة . فى صيف ١٩٣٢ كانت تأتى كثيرا إلى "دارلنجتون هول" وكانت تمضى مع سيادته ساعات طويلة فى نقاش عميق ذى طبيعة سياسية أو اجتماعية .

كانت "مسز بارنيت" – على ما أذكر – هى التى أخذت سيادته فى تلك الرحلات الموجهة لمعاينة أفقر مناطق "لندن" فى "إيست إند"، وهناك قام بزيارة مساكن كثير من الأسر التى كانت تعانى من بؤس تلك الأيام. أى أن هناك احتمال كبير أن تكون "مسز بارنيت" هى التى أسهمت فى تطور اهتمام "لورد دارلنجتون" بالفقراء فى بلادنا ولا يمكن أن يقال إن تأثيرها كان سلبيا تماما . ولكنها كانت كذلك عضوا فى منظمة "سير أوزوالد موصلى": "القمصان السوداء"، والعلاقة القصيرة التى قامت بين سيادته و "سير موصلى" كانت أثناء تلك الأسابيع القليلة فى ذلك الصيف. وفى تلك الأسابيع نفسها ، وقعت كل الأحداث العارضة فى "دارلنجتون هول"، والتى أعتقد أنها كانت الأساس الردىء لتلك المزاعم السخيفة . أقول عنها أحداث ولكن بعضها كان تافها . أذكر مثلا أننى سمعت سيادته يقول ذات مرة على العشاء عندما ذُكِرَ اسم جريدة ما: "آه! تقصدين صحيفة الدعاية تلك ؟" وفى مناسبة أخرى فى تلك الفترة تقريبا أتذكر أنه أعطانى تعليمات بالتوقف عن تقديم تبرعات لمؤسسة خيرية محلية كانت تلجأ إلينا ، وذلك لأن اللجنة الإدارية كانت "يهودية متجانسة على نحو أو آخر". تذكرت تلك الملاحظات لأنها فاجأتنى فعلا فى حينها ، ولم يكن سيادته قد أبدى أى بادرة عداء تجاه الجنس اليهودى . ثم جاء ، طبعا ، ذلك المساء عندما استدعانى سيادته إلى

مكتبته . في البداية كان كلاما عاما، وسألني عن سير الأمور في القصر إلى آخر ذلك ، ثم قال : "لقد فكرت طويلا يا"ستيفنس". فكرت طويلا ، ثم توصلت إلى نتيجة . لايمكن أن نسمح بوجود يهود بين العاملين لدينا هنا".

"سيدى ....!"

"ذلك لصالح هذا القصر يا"ستيفنس". لصالح الضيوف الموجودين هنا . لقد فكرت في ذلك جيدا يا"ستيفنس" وبالتالي سأجعلك تعرف قراري" .

"حسن يا سيدى !"

"قل لي يا"ستيفنس" ... لدينا قليل منهم الآن .. أليس كذلك ؟ أقصد من اليهود !"

"أعتقد أن هناك اثنين ياسيدى"

ثم توقف سيادته لحظة وهو يحدق من النافذة :"هذا أمر مؤسف يا"ستيفنس" ، لكن ليس هناك خياراًخر . لابد من أن نضع في الاعتبار أمان وصالح ضيوفي. دعني أؤكد لك... لقد فكرت في الأمر من جميع الأوجه وهذا لصالحنا تماما" .

الشخصان المعنيان كانا خادمتين . ولم يكن من اللائق أن نتخذ أى خطوة دون إبلاغ "مس كنتون" بالموقف أولا ، وقررت أن أفعل ذلك فى المساء نفسه عندما قابلتها لكى نتناول الكاكاو فى ردهة غرفتها. من الضرورى هنا أن أقول شيئا عن تلك اللقاءات التى كنا نعقدها فى نهاية كل يوم. كانت لقاءات مهنية فى طبيعتها ولابد من أن أقول ذلك ، ولكننا بالطبع كنا نتطرق لمسائل غير رسمية من وقت لآخر . كان الهدف من تحديد تلك اللقاءات بسيطا : فقد اكتشفنا أن حياة كل منا مشحونة بأشياء كثيرة ويمكن أن تمر أيام كاملة دون أن تلوح فرصة لتبادل المعلومات الضرورية. وجدنا أن هذا الوضع يعوق سير العمل، وكان الحل الأمثل هو أن نلتقى فى نهاية اليوم لمدة ربع الساعة مثلا فى غرفة "مس كنتون". لابد من أن أكرر أن تلك اللقاءات كانت مهنية فى طبيعتها، كنا نتحدث مثلا عن التخطيط لمناسبة قادمة أو نناقش سير الأمور بالنسبة لمستخدم جديد لدينا .

على أية حال ، سأعود إلى الخيط الأصلى، إلى موضوعنا . لابد من أنك ستقدر أننى كنت قلقا من فكرة إبلاغ "مس كنتون" بأننى كنت على وشك إنهاء خدمة اثنين من العاملين معها . والحقيقة أن الخادمتين كانتا عاملتين جيدتين ، – وربما أقول هذا أيضا لأن القضية اليهودية أصبحت شديدة الحساسية مؤخرا – وكنت ضد فكرة الاستغناء عنهما

بكل مشاعرى. إلا أن واجبى فى هذا المجال كان واضحا ، وكما بدا لى لم تكن هناك فائدة ترجى من إظهار هذه الشكوك الشخصية بشكل يخلو من المسئولية .

كانت مهمة صعبة ، مهمة تتطلب أن تنفذ بكرامة. وهكذا فإننى عندما فتحت الموضوع عند نهاية حديثنا ذلك المساء ، كان ذلك باختصار شديد وبطريقة عملية بقدر الإمكان، قائلا فى النهاية : "سوف أتحدث مع الخادمتين فى حجرتى فى العاشرة والنصف صباحا ، أترك لتقديرك إن كان يجب أن تخبريهما أم لا مقدما ، بطبيعة ما سوف أقوله لهما".

وهنا كانت "مس كنتون" تبدو وكأن ليس لديها ما تقوله بهذا الخصوص ، لذا رحت أكمل كلامى : "حسن يامس كنتون! شكرا على الكاكاو ، حان أن أنصرف ، لدينا يوم آخر مشحون غدا". وهنا قالت "مس كنتون" : لا أستطيع أن أصدق ما أسمعه يا"مستر ستيفنس". "روث" و "سارة" تعملان معى منذ أكثر من ست سنوات . أثق بهما وتثقان بى . تماما . وتؤديان عملهما على نحو ممتاز" .

"أنا متأكد من ذلك يا"مس كنتون" ، إلا أننا لا يجب أن نترك العواطف تتدخل فى عملنا . والآن لابد بالفعل من أن أقول لك : تصبحين على خير".

"مستر ستيڤنس" ، أنا غاضبة وأشعر بالإساءة لأنك تجلس هكذا وتقول ما تقول كما لوكنا نناقش طلبية مواد تموينية . تقول إن "روث" و "سارة" سوف يتم الاستغناء عنهما لأنهما يهوديتان؟"

"لقد شرحت لك الموقف يا "مس كنتون" ، شرحت الموقف كله ، وقد اتخذ سيادته القرار ولم يبق ما نناقشه أنا وأنت".

"ألم يطرأ على تفكيرك يا "مستر ستيڤنس" أن طرد "روث" و "سارة" لهذا السبب يعتبر خطأ ؟ أنا لن أوافق على شيء كهذا ، ولن أعمل فى مكان يمكن أن يحدث فيه شيء من هذا القبيل .."

"أرجو أن تهدئى من ثورتك يا "مس كنتون" وأن تتصرفى بما يتناسب مع وظيفتك .. هذا أمر واضح ، وإذا كان سيادته يرى أن تلك العقود يجب أن تفسخ فلا مجال للنقاش!"

"أنا أحذرك يا "مستر ستيڤنس" ، لن أستمر فى العمل فى مكان كهذا . إن طردت البنتين فسأرحل أنا أيضاً"

"أنا مندهش لرد فعلك هذا يا "مس كنتون" ، والمؤكد أنه لاحاجة لتذكيرك بأن واجبنا المهنى لا يسير حسب أهوائنا وعواطفنا وإنما حسب رغبات ومطالب من نعمل عنده".

"وأنا أقول لك يامستر ستيفنس ، إذا طردت البنتين غدا فلن أستمر في العمل في هذا القصر".

"مس كنتون ، دعيني أقول لك إنك لست مؤهلة لأن تصدري مثل تلك الأحكام . الحقيقة أن عالم اليوم أصبح شديد التعقيد والقسوة . هناك أشياء كثيرة لا نستطيع أنا وأنت أن نفهمها . طبيعة اليهود مثلا. بينما سيادة "اللورد" في وضع يمكنه من أن يقدر المصلحة. والآن يامس كنتون لابد أن أنصرف . شكرا مرة أخرى على الكاكاو . العاشرة والنصف من صباح الغد . أرسلي الخادمتين المعنيتين من فضلك" .

كان واضحا منذ لحظة دخول البنتين إلى حجرتي في الصباح التالي أن "مس كنتون" كانت قد أخبرتهما ، فقد كانتا تنتحبان . شرحت لهما الموقف باختصار شديد مؤكدا أن أداءهما جيد ، وبالتالي فإنهما ستحصلان على شهادة خبرة جيدة . وعلى ما أذكر فإن أيا منهما لم تقل شيئا مُهماً أثناء المقابلة التي استغرقت ثلاث أو أربع دقائق ، وانصرفتا كما دخلتا ، وهما تنتحبان .

بعد الاستغناء عن البنتين ، ظل شعور "مس كنتون" تجاهي باردا جدا لعدة أيام . والحقيقة أنها كانت تتصرف معي بوقاحة أحيانا حتى أمام بعض العاملين . وبالرغم من أننا واصلنا عادة اللقاء في المساء

لتناول الكاكاو ، إلا أن لقاءاتنا غدت قصيرة وغير ودية . ولابد من أن تفهم أن صبرى بدأ ينفد عندما لم ألحظ أى بادرة لتغيير سلوكها تجاهى على مدى أسبوعين . قلت لها أثناء أحد تلك اللقاءات المسائية بصوت لا يخلو من تهكم : "كنت أتوقع أن تقدمى استقالتك يامس كنتون" ، قلت ذلك وأنا أبتسم . كنت أتصور أنها ستلين قليلا وتخفف من عنادها وتنسى الموضوع برمته. إلا أنها نظرت إلىّ عابسة وهى تقول : "مازالت لدى النية يا "مستر ستيفنس" أن أقدم إخطاراً بالاستقالة، لكننى الآن مشغولة وليس لدى وقت لذلك". ولابد من أن أعترف بأن ذلك جعلنى أشعر بالقلق والخوف لفترة ، من أن تكون جادة فى تهديدها. وبعد أن توالت الأسابيع بات من الواضح أن تركها "دارلنجتون هول" لم يعد واردا ، وحيث إن الموقف أصبح هادئا بيننا ، كنت أعابثها من وقت لآخر بتذكيرها بتلويحها بالاستقالة . فإذا كنا نناقش مثلا إحدى المناسبات التى ستعقد فى "دارلنجتون هول"، أقول لها "هذا إذا كنت مازلت معنا يامس كنتون". حتى بعد مرور عدة أشهر على هذا الحدث ، كانت ملاحظات من هذا القبيل لا تستثيرها ، وإن كنت أعتقد أن صمتها كان حَرَجاً أكثر منه غضبا . وأخيرا ، نسينا الحكاية كلها تقريبا ، لكننى أذكر أنها برزت إلى السطح مرة أخرى بعد سنة تقريبا من الاستغناء عن الخادمتين . كان سيادة "اللورد" هو الذى

أثار الموضوع ذات مساء بينما كنت أقدم له الشاى فى غرفة الاستقبال . فى تلك الفترة كان تأثير "مسز كارولين بارنيت" عليه قد زال، والحقيقة أنها لم تعد تحضر إلى "دارلنجتون هول". ولابد من أن أشير أيضا إلى أن سيادته كان قد قطع كل صلة له بالقمصان السوداء أيضا بعد أن اكتشف الطبيعة القبيحة للمنظمة . قال سيادته : "كنت أريد أن أتحدث معك يا "ستيڤنس" عن ذلك الأمر الذى حدث فى العام الماضى . عن الخادمتين اليهوديتين .. هل تتذكر الموضوع ؟"

"نعم ! بالطبع يا سيدى"

"أعتقد أننا لا يمكن أن نستدل على مكانهما الآن .. ما حدث كان خطأ، وأنا أريد أن أعوضهما على نحو ما" .

"سأفكر فى الأمر ياسيدى ، ولكننى لست متأكدا إن كنا نستطيع أن نعرف مكانهما الآن"

"فكر فى الموضوع وما يمكن أن نفعله ، فما حدث كان خطأ"

تصورت أن يكون هذا الحديث الذى دار بين سيادته وبينى مهما لـ "مس كنتون"، وفكرت أن أخبرها به حتى وإن كانت هناك مخاطرة فى إغضابها . وعندما فعلت ذلك فى ذلك المساء الملىء بالضباب، كانت النتائج مثيرة. كان الضباب يهبط كثيفا وأنا أعبر المساحة الخضراء

متقدما نحو السقيفة لترتيب المكان وجمع الأدوات بعد انتهاء سيادته من تناول الشاي مع ضيوفه . وقبل أن أصل إلى الدرجات التى وقع عليها والدى مرة رأيت "مس كنتون" داخل السقيفة .

وعندما دخلت وجدتها جالسة على أحد الكراسى الخيزران المبعثرة فى داخل السقيفة ومشغولة ببعض أعمال الإبرة ولما اقتربت رأيتها تقوم بإصلاح إحدى الوسائد. رحت أجمع الأطباق والفناجين من بين النباتات والأثاث الخيزران وتبادلنا أثناء ذلك حوارا قصيرا ومزاحا وربما تكلمنا فى بعض الأمور الخاصة بالعمل . كان الخروج إلى السقيفة بعد عدة أيام متوالية فى المبنى الرئيسى ، شيئا يبعث على الراحة ولم يكن أينا فى عجلة للعودة بسرعة. وبالرغم من أن الرؤية لم تكن جيدة بسبب الضباب الكثيف ، ولأننا كنا فى آخر النهار والضوء يغيب تدريجيا ، أتذكر أننا كنا نتوقف عن الكلام ونتأمل المناظر المحيطة بنا. كان الضباب يشتد كثافة حول أشجار الحور المزروعة حول مسار العربات الخفيفة عندما تطرقت لموضوع إنهاء خدمة الفتاتين فى العام الماضى. وقد أكون فعلت ذلك ببعض الحذر عندما قلت : "لقد فكرت فى الأمر قبل ذلك يا"مس كنتون" ، والطريف أن أتذكر ذلك الآن ... فى مثل هذا الوقت من العام الماضى كنت مازلت مصرة على تقديم استقالتك"، وضحكت .

ولكن "مس كنتون" بقيت صامتة وهي جالسة خلفي . عندما استدرت لأنظر إليها وجدتها تتطلع إلى الضباب الكثيف عبر الزجاج . قالت :

"ربما لاتعرف يا "مستر ستيفنس" أنني كنت أفكر بجدية في ترك هذا القصر . لقد تألمت كثيرا لما حدث. ولو أن لدى أي قدر من الاحترام لنفسي لتركت هذا المكان من فترة طويلة"، وسكتت لحظة. أما أنا فوجهت بصري مرة أخرى نحو أشجار الحور البعيدة . ثم واصلت كلامها بصوت مجهد : "إنه الجبن يا "مستر ستيفنس"، الجبن ليس إلا . أين كان يمكن أن أذهب؟ ليس لي عائلة. ليس سوى عمتي. أحبها كثيرا لكنني لا أستطيع أن أعيش معها يوما واحدا دون أن أشعر بأن حياتي كلها تضيع. قلت لنفسي طبعا ... عليّ أن أجد مكانا جديدا ، لكنني كنت خائفة يا "مستر ستيفنس". كنت كلما فكرت في الرحيل أتصور نفسي وقد ذهبت إلى هناك حيث لا أحد يعرفني أو يعيرني اهتماما. هذه هي كل مبادئي . أشعر بالخجل من نفسي ، لكنني لم أجرؤ على الرحيل. لم أستطع أن أشجع نفسي على ذلك". وسكتت "مس كنتون" مرة أخرى وبدت غارقة في التفكير، ولذا طرأ على فكرى أنها فرصة لأحكى لها وباختصار ، ما حدث بيني وبين "لورد دارلنجتون" من قبل . قلت ذلك وأنهيت حديثي قائلا : "ما وقع وقع وانتهى ، لكن على أية حال من المريح أن أسمع سيادته وهو يقول بشكل واضح إن الحكاية كلها كانت

غلطة كبيرة. وأعتقد أنه يهمك أن تعرفي ذلك لأنك كنت مستاءة مثلي بسبب الموضوع ذاته" . "

قالت من خلفي بصوت مختلف تماما وكأنها قد استيقظت لتوها من حلم : "آسفة يا"مستر ستيفنس"، لا أستطيع أن أفهمك!". وعندما التفت إليها قالت:"على ما أذكر ، فإنك كنت تعتقد أن من الصواب أن تحزم "سارة" و "روث" متاعهما وترحلا ، وكنت متهللا لذلك!"

"الآن فعلا أرى أن ذلك لم يكن صوابا ولا عدلا يا "مس كنتون" وقد سبب لي هذا الموضوع قلقا شديدا ، ولا أريد أن أرى شيئا كذلك يحدث في هذا المكان مرة أخرى".

"ولماذا لم تقل لي ذلك حينذاك يامستر ستيفنس؟"

ضَحكتُ . والحقيقة أنني كنت في حيرة ولا أجد شيئا أقوله . وقبل أن أجد إجابة توقفت هي عن الخياطة وقالت :

"هل تدرك يا "مستر ستيفنس" ماذا كان ذلك يعني لو أنك صارحتني بهذا الرأي في العام الماضي؟ ، لقد كنت تعرف مدى ألمي وغضبي لطرد البنتين ، هل تعلم كيف كان يمكن أن يساعدني ذلك ؟ لماذا يا"مستر ستيفنس"؟ لماذا؟ لماذا أنت مضطر دائما للادعاء والتظاهر بغير الحقيقة؟"

ومرة أخرى ضحكتُ بسبب هذا المنحى الجديد الذى اتخذه الحوار وقلت : "أنا لا أعرف حقيقة يا "مس كنتون" ماذا تقصدين بذلك. أنا أدّعى وأتظاهر؟ لماذا فعلا؟"

"لقد حزنت كثيرا لرحيل "روث" و "سارة" ، وحزنت أكثر لأننى تصورت أننى وحيدة" .

"فى الحقيقة يا مس كنتون" – وحملت الصينية التى جمعت عليها الآنية – "من الطبيعى ألا يوافق المرء على الطرد. كان يجب أن أرى ذلك بوضوح".

لم تقل شيئا. ثم نظرت إليها وأنا خارج . وجدتها تحدق مرة أخرى فى المنظر أمامها ولكن الجو كان قد أظلم داخل السقيفة فلم يكن واضحا أمامى سوى منظرها الجانبى وخلفها شحوب فارغ.

استأذنت لكى أنصرف .

الآن ، وقد تذكرت ملابسات طرد الفتاتين اليهوديتين، يقفز إلى ذهنى ما يمكن اعتباره النتيجة الطبيعية للموضوع كله : وهو بالتحديد وصول الخادمة الجديدة المدعوة "ليزا". أود أن أقول إننا كنا مضطرين لأن نجد بديلتين للفتاتين وكانت "ليزا" إحداهما. كانت الشابة قد تقدمت للوظيفة الخالية بشهادات غامضة تجعل من السهل على أى رئيس خدم

مجرب أن يكتشف أنها كانت قد تركت عملها السابق فى ظروف مريبة . إلى جانب أننى عندما سألتها أنا و "مس كنتون" اتضح لنا أنها لم تعمر فى أى عمل أكثر من أسبوعين . وبوجه عام فإن موقفها كله كان يوحى بأنها لاتصلح للعمل فى "دارلنجتون هول". ولدهشتى أننا بمجرد الانتهاء من إجراء المقابلة معها ، كانت "مس كنتون" تلح على أن نقبلها. كانت تقول فى وجه اعتراضاتى : "أنا أرى أن هذه البنت لديها إمكانيات كثيرة ، وستكون تحت إشرافى المباشر ، وسوف أهتم بأن يكون أداؤها جيدا".

وأذكر أننا بقينا مختلفين بالنسبة لهذا الموضوع بعض الوقت. ويبدو أن حكاية طرد البنتين كانت لاتزال فى الذاكرة ، فلم أتشدد ضد "مس كنتون". كانت النتيجة على أية حال أننى تراجعت فى النهاية بأن قلت لها : "أرجو يامس كنتون أن تعلمى أن مسئولية تشغيل هذه البنت تقع عليك تماما. وهى كما أرى ليست على المستوى الذى يؤهلها فى الوقت الحاضر لأن تكون ضمن العاملين لدينا . وسأسمح بتوظيفها فقط على أساس أنك شخصيا سوف تشرفين على تطويرها".

"البنت ستكون جيدة يا "مستر ستيفنس" وسوف ترى"

ولدهشتى ، فإن البنت كانت قد حققت بالفعل تقدما ملحوظا فى

الأسابيع التى تلت ذلك. أداؤها كان يتطور كل يوم ، حتى طريقة مشيها وقيامها بواجباتها .. بعد أن كان المرء لا يتحمل النظر إليها . وبمرور الوقت ، وبعد أن أصبحت البنت فردا مهما فى فريق العمل ، كان شعور "مس كنتون" بالانتصار يبدو واضحا. كان يسعدها أن تكلف "ليزا" بعمل أو آخر يحتاج قدرا أكبر من المسئولية ، وعندما أكون موجودا تحاول أن تلفت نظرى لذلك وعلى وجهها تعبيرات ساخرة . كان الحوار الذى دار بينى وبين "مس كنتون" فى غرفتها نموذجا للحوار الذى يحدث دائما بخصوص موضوع "ليزا" .

قالت : "لاشك فى أنك ستشعر بخيبة الأمل يا "مستر ستيفنس" لو علمت أن "ليزا" لم ترتكب الآن خطأ واحدا يستحق الإشارة إليه!"

"أنا لا أشعر بأى خيبة أمل يا "مس كنتون" ، بالعكس ... أنا سعيد من أجلك ومن أجلنا جميعا . ولابد من أن أعترف بأنك قد حققت قدرا من النجاح فى موضوع هذه البنت حتى الآن."

"قدر من النجاح؟!" ، هل ترى الابتسامة التى تعلو وجهك يا "مستر ستيفنس" . إنها تظهر دائما كلما ذكرت اسم "ليزا" ، وهى حكاية مثيرة فى حد ذاتها ، حكاية مثيرة بالفعل"

"حقا يا "مس كنتون" ؟ هل يمكن أن أعرف قصدك بالضبط؟"

"هذا شيء مثير يا "مستر ستيفنس" ، مثير لأنك كنت متشائما بخصوصها . وذلك لأن "ليزا" فتاة جميلة بلاشك . وقد لاحظت أنك دائما تكره أن تعمل لدينا فتيات جميلات".

"أنت أول من يعلم أن كلامك هذا محض هراء يامس كنتون".

"لكنني لاحظت ذلك يا "مستر ستيفنس" ، لا تحب أن يكون لدينا فتيات جميلات . هل لأن "مستر ستيفنس" يخشى وجود شيء يشغل انتباهه، أو يربكه؟ هل لأنه إنسان من لحم، ودم ولا يثق بنفسه تماما؟"

"الحقيقة يا "مس كنتون" أنني لو كنت أرى درجة من المعقولية فيما تقولين لواصلت هذا الحوار معك، لذا فإنني سأشغل فكري بأي شيء آخر بينما أنت تثرثرين هكذا!"

"لكن ، لماذا لاتزال هذه الابتسامة التي تحمل مشاعر الذنب على وجهك يا مستر ستيفنس؟"

"ليست ابتسامة ذنب يا"مس كنتون" . أنا فقط مندهش لقدرتك على قول كل هذا الهراء."

"بل هي ابتسامة شعور بالذنب ، وقد لاحظت أنك لا تجرؤ على النظر إلى "ليزا. والآن بدأت أفهم لماذا كنت شديد الاعتراض على عملها هنا".

"اعتراضاتى كان لها أساس يا"مس كنتون" كما تعرفين تماما. عندما جاءت البنت لم تكن تصلح للعمل لدينا".

ما كان يمكن بالطبع أن نواصل حوارنا بمثل هذا الأسلوب على مسمع من العاملين. وفى الوقت نفسه كانت لقاءاتنا لتناول الكاكاو فى غرفتها تتطرق لموضوعات مشابهة، الأمر الذى كان يخفف من توترات العمل. كانت "ليزا" قد عملت معنا ثمانية أو تسعة أشهر - وكنت قد نسيت وجودها معنا - عندما اختفت من القصر تماما مع مساعد الخادم . أصبح مثل هذه الأمور جزءا لايتجزأ من حياة أى رئيس خدم فى قصر يضم عددا كبيرا من العاملين. هى أشياء مزعجة بالطبع لكن المرء يعتاد عليها . والحقيقة أن مثل هذه الأشياء أو "الهروب فى ضوء القمر" كان يحدث دائما بين العاملين الأكثر تحضرا. وباستثناء بعض الطعام ، فإن الهاربين لم يحملا معهما شيئا من ممتلكات القصر ، بل إنهما تركا رسائل . فمساعد الخادم - الذى نسيت اسمه - ترك لى رسالة قصيرة يقول فيها : "أرجو ألا تكون قاسيا فى الحكم علينا ، كلانا يحب الآخر وسوف نتزوج"، أما "ليزا" فتركت رسالة أطول موجهة إلى "مدبرة القصر" وكانت تلك الرسالة هى التى أحضرتها "مس كنتون" إلى غرفتى فى الصباح التالى لاختفائهما. كانت الرسالة طبعا مليئة بالأخطاء الهجائية والعبارات الركيكة التى تحاول أن تشرح عمق

علاقتهما العاطفية ، وذلك الخادم الرائع والمستقبل المشرق الذى ينتظرهما. وأحد السطور كان تقريبا معناه "ليس معنا نقود ولكن هذا لايهم ، فنحن معنا الحب والإنسان لا يريد شيئا غير ذلك، لقد وجد كل منا الآخر وهذا أقصى ما يريد".

وبالرغم من أن الرسالة كانت مكونة من ثلاث صفحات كاملة إلا أنها لم تعبر عن أى شكر أو امتنان لـ"مس كنتون" على رعايتها، ولا كانت هناك كلمة أسف واحدة لخداعنا وتركنا .

كان من الواضح أن "مس كنتون" منزعجة وهى جالسة أمامى تنظر إلى يديها بينما أنا أمر بعينى على الرسالة الطويلة . والحقيقة – وهذا يبدو لى غريبا – أننى لا أستطيع أن أتذكر أننى سبق أن رأيتها شاردة هكذا كما كانت فى ذلك الصباح .

"يبدو يا "مستر ستيفنس" أنك كنت محقا بينما كنت أنا مخطئة".
قلت: "ليس هناك ما يدعو للانزعاج ، أشياء كهذه تحدث كثيرا ، ولاشك فى أن من هم مثلنا لايستطيعون أن يفعلوا شيئا إزاءها فى كثير من الأحيان".

"لقد كنت مخطئة يا "مستر ستيفنس" ولابد من أن أعترف لك بذلك . وأنت كنت مصيبا كعادتك" .

"أختلف معك يا"مس كنتون" ، أنت صنعت المعجزات مع البنت ، وما تحقق بفضلك يثبت أنني كنت المخطئ . والحقيقة أن ما حدث يمكن أن يحدث مع أي مستخدم آخر . كان إنجازك معها رائعا. ومن حقك أن تشعري بأنها خيبت أملك وخدعتك، ولكن ليس هناك ما يجعلك تشعرين بأنها مسئوليتك" .

كانت "مس كنتون" لاتزال مغمومة فقالت بهدوء : "أنت تقول ذلك بدافع من الطيبة وأنا شاكرة لك .. وممتنة"، ثم تنهدت وأضافت : "فتاة غبية! كان ينتظرها مستقبل عملي جيد . لديها القدرات اللازمة لذلك. كثيرات من صغيرات السن مثلها يضيعن الفرص ... ومن أجل ماذا؟"

ونظرنا كلانا إلى رسالتها الموجودة بيننا على الطاولة ثم أشاحت بوجهها ضائقة. قلت :"خسارة فعلا كما تقولين"

قالت: "غبية، ولن تنجح ! كان أمامها مستقبل جيد لو أنها صبرت وثابرت ، في خلال عام أو عامين كنت سأعدها لشغل وظيفة مدبرة بيت أو قصر أصغر نسبيا . قد تعتقد أن ذلك أمر بعيد المنال يا "مستر ستيفنس" ! لكن انظر ... ماذا صنعتُ منها في أشهر قليلة !"وهاهي ذي الآن قد تركت كل شيء .. من أجل لاشيء. هذا منتهى الغباء منها".
رحت أجمع الأوراق الموجودة أمامي للاحتفاظ بها في ملف خاص

الاحتفاظ بالرسالة لديها، ولذا أعدت الأوراق إلى الطاولة . كانت "مس كنتون" مازالت مستغرقة فى أفكارها. ثم قالت مرة أخرى "..ستفشل بكل تأكيد ... يالها من غبية !"

لكننى أجدنى قد أصبحت غارقا تماما فى هذه الذكريات القديمة . لم يكن ذلك قصدى أبدا رغم أنه لايبدو أمرا سيئا، فبذلك قد تجنبت على الأقل الانشغال بشكل غير مناسب بأحداث ذلك المساء التى أعتقد أنها قد انتهت. ولابد من أن أقول إن الساعات القليلة الأخيرة كانت مرهقة جدا. والآن ، أجد نفسى هنا فى غرفة السطح فى هذا المنزل الريفى الصغير، منزل "مستر ومسز تيلور". وهو مسكنهما الخاص . وهذه الغرفة التى تَفَضَّل "مستر ومسز تيلور" بإتاحتها لى هذه الليلة كان يشغلها فى وقت سابق ابنهما البكر الذى كبر ويعيش الآن فى "اكستر". الغرفة تكثر فيها العوارض الخشبية ولا يوجد على أرضيتها سجادة أو بساط ، إلا أن الجو دافئ ومريح. واضح أن "مسز تيلور" قد قامت بترتيب الفراش وبأعمال التنظيف، إذ إنه – باستثناء القليل من بيوت العنكبوت فى أركان العوارض الخشبية – ليس هناك ما يوحى بأن الغرفة كانت مهجورة لعدة سنوات. أما بالنسبة "لمستر ومسزتيلور" شخصيا ، فقد تأكد لى أنهما كانا يديران محل الخضراوات هنا فى القرية منذ العشرينيات وحتى تقاعدهما قبل ثلاث سنوات. أناس طيبون،

وقد عرضت عليهما هذه الليلة - أكثر من مرة . مكافأة طيبة لكرم ضيافتهما، لم يحلما بها من قبل. وكوني هنا الآن تحت رحمة كرم ضيافة "مستر ومسز تيلور" ، يرجع في الحقيقة إلى سبب بسيط جدا وغبي جدا .. وهو - بالتحديد- أنني تركت السيارة حتى فرغت من البترول. هذا، بالإضافة إلى مشكلة نقص الماء في «الرادياتير» بالأمس، لابد من أن يجعل أي مراقب يتصور أن سوء التنظيم جزء متأصل في طبيعتي . ولكن قيادة السيارات لمسافات طويلة مسألة جديدة علي، ويمكن أن تتوقع مني مثل تلك الغفلات. لكنني عندما أتذكر أن التنظيم الجيد، وبعد النظر هي في الصميم من مهنتي، أشعر بأنني قد خذلت نفسي مرة أخرى. الواقع أنني كنت مشتت الذهن بالفعل خلال الساعة الأخيرة وأنا أقود السيارة قبل أن ينفد وقودها. وكنت قد قررت أن أقضي الليلة في مدينة "تافيستوك" حيث وصلت قبل الثامنة بقليل. وفي الفندق الرئيسي بالمدينة علمت أن جميع الغرف مشغولة بسبب المعرض الزراعي المحلي، واقترحوا عليَّ أماكن أخرى كثيرة مررت عليها كلها وكنت أقابل بالاعتذار ذاته. وفي نُزُلٍ خارج المدينة نصحتني صاحبته بمواصلة السير بالسيارة عدة أميال أخرى لكي أجد نُزُلاً آخر على الطريق يديره قريب لها ، وأكدت لي أن لديه غرفا شاغرة لأن النزل بعيد عن "تافيستوك" ولذلك لم يتأثر بإقامة المعرض. ووصفت لي الطريق

بدقـة ووضـوح ، لكننى لم أجـد أثرا للنزل على الإطلاق، إذ بعـد ربع الساعـة تقريبـا وجـدت نفـسى على طريق طويل ممـتـد بانحناءات وانعطافات كثيرة وسط أراض سبخة أو جرداء . المستنقعات على الجانبين والضباب يلف كل شيء. وعلى اليسار كنت أرى آخر وهج لغروب الشمس وأشكالا لحظائر وبيوت ريفية بعيدة تكسر خط الأفق وأدركت أننى قد تركت ورائى كل أثر للحياة الاجتماعية . رجعت بالسيارة بحثا عن منعطف ربما أكون قد غفلت عنه، ولكننى وجدت طريقا أكثر وحشة. مرت فترة وأنا أقود السيارة فى الظلام بين أشجار عالية ثم وجدت الطريق يبدأ فى الصعود تدريجيا. كنت قد فقدت الأمل فى أن أجد النزل وقررت أن أواصل القيادة حتى القرية أو المدينة التالية لأبحث عن مأوى هناك. وكنت أبرر ذلك لنفسى على أساس أننى يمكن أن أواصل رحلتى فى الصباح. وفى تلك المنطقة الصاعدة من الطريق توقفت ماكينة السيارة ولاحظت لأول مرة أن البترول قد نفد. بعد ياردات قليلة توقفت السيارة تماما وعندما نزلت لأقيم الموقف كان واضحا لى أنه لم يبق سوى دقائق معدودة ثم يحل الظلام. كنت أقف على طريق منحدر تحيط به الأشجار والأعشاب وأرى أمامى ثغرة بينها تبدو من خلالها بوابة واسعة ذات قضبان . تقدمت فى اتجاهها متوقعا أن النظر منها قد يعطينى بعض الشعور بالاتجاه، ولربما أكون قد

توقعت أن أرى منزلا ريفيا على مسافة قريبة يقدم لى بعض المساعدة. لكن ما رأيته أمامى أصابنى بالإحباط إلى حد ما. فى الناحية الأخرى من البوابة كانت الأرض تبدو شديدة الانحدار وتتلاشى تقريبا بعد ياردات قليلة . أما فى نهاية الحقل، على مسافة ربع ميل تقريبا، أو على مسافة وثبة غراب، كنت أرى أمامى قرية صغيرة. ومن خلال الضباب كان يلوح لى برج كنيسة ومن حوله تجمعات من أسطح تغطيها ألواح قاتمة بينما تتصاعد خيوط الدخان الأبيض من المداخن .

لابد من أن أقول إننى شعرت فى تلك اللحظة بقدر من خيبة الأمل، ولكن الموقف لم يكن ميؤوسا منه تماما فالسيارة كانت سليمة على الأقل. كل ما فى الأمر أن وقودها قد نفد ويمكن الوصول إلى القرية بعد نصف الساعة تقريبا حيث يمكن أن أجد مكانا وصفيحة بترول . لم يكن شعورا سعيدا أن تكون واقفا هكذا على تلة منعزلة ، تنظر عبر بوابة إلى الأضواء القادمة من قرية بعيدة ، بينما ضوء النهار ينحسر والضباب يزداد كثافة. على أية حال، لم تكن هناك فائدة من الجزع وربما كان من الغباء أن أضيع الدقائق القليلة المتبقية من ضوء النهار. عدت إلى مكان السيارة وملأت حقيبة صغيرة بأشياء ضرورية ومصباح كان يضىء بشكل جيد ورحت أفتش عن منفذ أستطيع أن أنزل من خلاله إلى القرية . وبالرغم من أننى سرت مسافة طويلة صاعدا التل

وتخطيت البوابة، إلا أننى لم أجد أمامى منفذا أو ممرا . وعندما وجدت أن الطريق قد توقفت عن الصعود وبدأت تنحرف نزولا فى اتجاه آخر غير اتجاه القرية، التى كانت أضواؤها تلوح لى من خلال الأشجار، انتابتنى مرة أخرى مشاعر الإحباط. فكرت للحظة أن أعود إلى السيارة متتبعا آثار خطواتى ، وأن أجلس هناك فى انتظار مرور سيارة أخرى .

كان الظلام قد بدأ يخيم على المكان ووجدت أننى لو بدأت التلويح لأى سيارة مارة فقد يتصورنى من فيها قاطع طريق مثلا..! بالإضافة إلى أنه لم يحدث أن مرت أى سيارة منذ أن نزلت من الـ "فورد"، بل إننى لم أشاهد أى سيارة بالمرة منذ مغادرة "تافيستوك". وهنا قررت أن أعود إلى البوابة، ومن هناك أنزل إلى الحقل وأواصل السير فى خط مستقيم بقدر الإمكان فى اتجاه أضواء القرية سواء أكان هناك ممر أم لا .

على أية حال ، لم يكن النزول صعبا ولا الطريق شديدة التحدر. كانت مجموعة من حقول الرعى تؤدى - واحدا بعد الآخر - إلى القرية وكنت وأنا أواصل السير بحذائها لكى أتأكد من أننى أسير فى الاتجاه الصحيح . مرة واحدة فقط ، عندما كانت القرية تبدو قريبة جدا، لم أر أمامى أى طريق واضح يؤدى إلى الحقل التالى ، فكان لابد من توجيه

المصباح الكشاف في اتجاهات مختلفة على امتداد كتل الأعشاب والشجيرات التي تعترض طريقي. وفي النهاية اكتشفت ثغرة ضيقة نفذت منها ضاغطا جسمي وكلفني ذلك تمزق كتف السترة وثنية رجل البنطلون. كانت الحقول الأخيرة موحلة جدا، ولذا تعمدت ألا أوجه ضوء الكشاف إلى الحذاء وثنية البنطلون درءا لمزيد من الإحباط. شيئا فشيئا، وجدت نفسي أسير على ممر ممهد يؤدي إلى القرية، وحدث أن التقيت هنا "مستر تيلور" مضيفي الكريم هذا المساء. كان قد ظهر أمامي على مسافة قريبة وانتظر أن ألحق به ، وضع يده على قبعته تحية لي وسألني إن كنت أحتاج لأي مساعدة .

شرحت له وضعي بإيجاز شديد، قائلا إنني سأكون في غاية الامتنان لو أنه أرشدني إلى نزل جيد. وهنا هز "مستر تيلور" رأسه قائلا : للأسف! ، لا يوجد نزل كذلك في قريتنا ياسيدي، "چون همفريز" يستقبل المسافرين في نزل "كروسدكيز"، ولكنه – للأسف – يقوم بإصلاحات في السقف الآن" . وقبل أن يظهر الأثر المؤسف لهذه المعلومات على وجهي أردف "مستر تيلور" قائلا: "لكن إذا وافقت على تمشية الحال ، فيمكننا أن ندبر لك غرفة وسريرا لهذه الليلة . ليست ممتازة بالتأكيد ولكن زوجتي سوف تهتم بأن يكون كل شيء نظيفا ومريحا بشكل جيد".

أعتقد أننى همهمت ببضع كلمات ، وربما بطريقة فاترة ، معبرا عن عدم رغبتى فى أن أثقل عليهم إلى ذلك الحد ، وكان رد "مستر تيلور": "دعنى أقول ياسيدى إنه سيشرفنا أن تنزل عندنا، فنادرا ما يمر من هنا، عن طريق "موسكومبى" من هم مثلك. وبأمانة شديدة أقول إننى لا أعرف ماذا يمكن أن تفعل فى مثل هذه الساعة، علاوة على أن زوجتى لن تسامحنى لو أننى تركتك هكذا فى الليل". وكان أن قبلت الاستضافة الكريمة من "مستر ومسز تيلور".

ولكننى عندما كنت أتحدث قبل ذلك عما أصابنى من إرهاق نتيجة أحداث ذلك المساء ، لم أكن أعنى الإحباط الذى سببه لى نفاد وقود السيارة واضطرارى للقيام بتلك الرحلة الغريبة نزولا إلى القرية، لأن ماحدث بعد ذلك وما اتضح لى بمجرد جلوسى لتناول العشاء مع "مستر ومسز تيلور" وجيرانهما كان أكثر إرهاقا لى . لقد شعرت بقدر كبير من الراحة بعد أن وصلت إلى هذه الغرفة وجلست أقلب فى ذهنى هذه الذكريات عن "دار لنجتون هول" على مدى تلك السنوات الطويلة . والحقيقة أننى فى الفترة الأخيرة كنت أحب دائما أن أشغل نفسى بتلك الذكريات . ومنذ أن لاحت لى إمكانية أن ألتقى و "مس كنتون" منذ أسابيع قليلة ، أعتقد أننى قضيت وقتا طويلا أفكر فى أسباب مرور علاقتنا بمثل ذلك التغير. حدث ذلك التغير بالفعل حوالى عام ١٩٣٥ أو

١٩٣٦ بعد سنوات من التفاهم المهنى. والحقيقة أننا فى الفترة الأخيرة كنا قد أصبحنا نتجنب الالتقاء حول فنجان الكاكاو فى نهاية يوم العمل. لكننى لم أستطع أن أحدد أسباب ذلك التغير، ولا تسلسل الأحداث الذى أدى إلى ذلك. عندما أفكر فى ذلك يبدو لى أن ماحدث فى ذلك المساء، عندما جاءت "مس كنتون" إلى غرفتى، كان هو نقطة التحول فى علاقتنا. لكن. لماذا جاءت؟ لا أستطيع أن أتذكر جيدا. ربما كانت قد جاءت حاملة مزهرية لتبعث البهجة فى المكان إلى حد ما ... وربما اختلط ذلك فى ذهنى بمحيئها تفعل الشىء نفسه قبل ذلك بسنوات عند بداية تعارفنا. أعرف جيدا أنها حاولت أن تضع الزهور فى غرفتى فى ثلاث مناسبات على الأقل خلال السنوات الماضية، وإن كنت لست متأكدا من أن يكون ذلك هو سبب مجيئها فى ذلك المساء بالتحديد. الشىء المؤكد هو أنه بالرغم من العلاقة الطيبة بيننا، إلا أننى لم أسمح أبدا بأن تدخل مدبرة القصر وتخرج من غرفتى هكذا طوال اليوم. غرفة رئيس الخدم - كما أعرف - مكان له أهميته الخاصة. هى قلب كل الأنشطة التى تدور فى القصر، ليست أقل من مركز العمليات .. مركز القيادة فى المعركة، ولابد من أن يظل كل شىء بها فى غاية الانتظام - وأن يبقى هكذا - وكما أريد بالضبط. لم أكن فى يوم من الأيام واحدا من رؤساء الخدم الذين يسمحون لكل شخص، أى شخص، بأن يدخل

ويخرج هكذا يشكو أو يهمهم أو يبرطم..! وإذا كان لسير العمل أن يكون هادئا ومنظما ومنسقا، فمن المؤكد أن غرفة رئيس الخدم لابد من أن تكون هى المكان الوحيد فى القصر الذى يتوفر له الخصوصية والعزلة. والذى حدث هو أن "مس كنتون" عندما دخلت غرفتى فى ذلك المساء لم أكن مشغولا بأمور تتعلق بالعمل . كنا فى آخر اليوم فى أسبوع هادئ تقريبا وكنت أنعم بساعة من الاسترخاء بعيدا عن جو العمل. أقول إننى لست متأكدا إذا ما كانت "مس كنتون" قد جاءت بالمزهرية أم لا، وإن كنت أتذكر بالتأكيد قولها: "غرفتك ليست مريحة بالليل كما هى بالنهار يا"مستر ستيفنس". هذا المصباح الكهربائى ضعيف جدا ، ومجهد فى القراءة".

"أعتقد أنه كافٍ تماما ... شكرا يامس كنتون"!

"الحقيقة يا"مستر ستيفنس" أن هذه الغرفة تشبه زنزانة السجن ، لا ينقصها سوى سرير صغير فى الركن ليظن المرء أن المحكوم عليهم يقضون ساعاتهم الأخيرة هنا!"

ربما أكون قد قلت شيئا تعقيبا على ذلك. لست متأكدا . على أية حال، لم أرفع عينى عما كنت أقرأ ومرت لحظات، وأنا أنتظر أن تستأذن "مس كنتون" وتخرج ، لكنها قالت : "أنا فى حيرة يا"مستر ستيفنس" ...

ماذا يمكن أن تقرأ هنا؟"

"كتاب يا"مس كنتون" ! .... كتاب!"

"واضح .. ولكن أى نوع من الكتب ، هذا ما أريد أن أعرفه"

رفعت بصرى عن الكتاب ورأيتها تتقدم نحوى. أغلقت الكتاب وقبضتُ عليه بكلتا يدى لكى أبعده عنها وقمت من مكانى.."

"بصراحة يا"مس كنتون" ، لابد من أن أطلب منك أن تحترمى خصوصيتى".

"لكن ... لماذا أنت خجل هكذا من كتابك يا"مستر ستيفنس" ؟ أتصور .. أنه لابد من أن يكون شيئا بذيئا."

"غير وارد بالمرة يا"مس كنتون" أن تكون هناك كتب بذيئة - كما تتصورين - هنا فى مكتبة سيادة اللورد"

"لقد سمعت أن كثيرا من الكتب الثقافية المهمة يحتوى على أجزاء بذيئة، وإن كنت لم أجرؤ أبدا على النظر إليها . والآن ... أرجوك يامستر ستيفنس ... دعنى أرى ما تقرأ..."

"أرجو أن تتركينى بمفردى "يامس كنتون"، من المستحيل أن تثقلى علىّ هكذا فى لحظات الفراغ الوحيدة المتاحة لى للانفراد بنفسى".

ولكن "مس كنتون" كانت مستمرة فى تقدمها نحوى، والحقيقة أنه كان من الصعب على معرفة ما يمكن عمله إزاء ذلك السلوك! فكرت أن

ألقى الكتـاب فـى درج المكتب وأغلقـه ولكن ذلك بدا مـوقـفـا دراميـا. تراجعت عدة خطوات والكتاب فى يدى لايزال مضغوطا إلى صدرى. قـالت وهـى تواصل تقـدمـهـا ": أرجـوك أرنـى الكتـاب الذى تمـسك به "يامستر ستيفنس" وسوف أتركك تستمتع بقراءته. ماذا يمكن أن يكون ياترى ذلك الذى تحرص على إخفائه عنى هكذا؟".

"لايهمنى على الإطلاق أن تكونى قد عرفتى عنوان هذا الكتاب أم لا يا"مس كنتون". من ناحية المبدأ أنا أعترض تماما على ظهورك هكذا فجأة واقتحام وقتى الخاص".

"غريبة! هل هو كتاب محترم يا"مستر ستيفنس" ، أم تراك لا تريد أن تصدمنى؟!" قالت ذلك وهى واقفة أمامى ، وفجأة تكهرب الجو وكأن قد ألقى بكلينا فجأة إلى كوكب آخر . أخشى أن أكون عاجزا عن وصف ما أقصده بدقة. كل شىء صَمَتَ حولنا فجأة، وشعرت بأن حالة "مس كنتون" انتابها تغير مفاجئ هى الأخرى . بدت ملامحها جادة بشكل غريب وأذهلنى أنها كانت تبدو خائفة .

"أرجوك يا"مستر ستيفنس" ... دعنى أرى الكتاب" تقدمت نحوى وبدأت - برقة - تحاول تخليص الكتاب من يدى . فكرت فى أن أفضل ما يمكن أن أفعله هو أن أنظر بعيدا، ولكن لأنها كانت تقف أمامى مباشرة أشحت عنها بوجهى فقط وبزاوية غير طبيعية إلى حد ما .

حاولت "مس كنتون" بشدة أن تأخذ الكتاب من يدى واستمر ذلك وقتا إلى أن سمعتها تقول :

"يا إلهي! شيء لايستحق الخجل منه أو الشعور بالعار ، ليس سوى رواية عاطفية يا"مستر ستيفنس"!

أعتقد أننى حينذاك قررت أن هناك حدودا للتسامح والاحتمال. لا أستطيع أن أتذكر ماقلته بالتحديد ولكننى طلبت منها بحزم أن تخرج من الغرفة .. وهكذا انتهى الموقف .

من أشعر أننى لابد من أن أضيف شيئا هنا عن موضوع الكتاب الذى درات حوله هذه الأحداث. كان يمكن أن يوصف فعلا بأنه رواية عاطفية، مثل الكثير من الكتب الموجودة بالمكتبة، وكذلك فى كثير من غرف نوم الضيوف ، لتسلية ضيوفنا من النساء. وكان هناك سبب بسيط يجعلنى أحرص على قراءة مثل تلك الأعمال وهو أنها تساعدنى على إتقان اللغة الإنجليزية. وأنا من رأيى - ولا أعرف إن كنت ستوافقنى على ذلك أم لا - أن جيلنا كان يركز كثيرا على الرغبة المهنية فى إتقان اللغة واللكنة ، أى أنه كان يتم التأكيد على هذين العنصرين على حساب بعض المواصفات الأخرى. لذلك كنت أعتبر أنه من واجبى دائما أن أطور لغتى وأن أتقن اللكنة بقدر ما أستطيع. وكانت إحدى الوسائل المباشرة لذلك هى أن أقوم عندما يتيسر الوقت

بقراءة بعض الصفحات من كتاب جيد. هكذا كانت سياستى على مدى عدة سنوات وكنت أميل دائما إلى اختيار ذلك النوع من الكتب الذى رأته معى "مس كنتون" فى ذلك المساء، لأنها تكون عادة مكتوبة بإنجليزية جيدة وتتضمن حوارات ممتازة ذات فائدة عملية كبيرة لى. لأن الكتب الثقيلة بالرغم من فائدتها أيضا ، إلا أنها - كما تقول إحدى الدراسات - تكون فى العادة مكتوبة بأسلوب محدود الفائدة فى مجال تعامل الفرد العادى مع الناس. ونادرا ما كان يتيسر الوقت لقراءة رواية من روايات الحب من الغلاف للغلاف ، وعلى قدر ما أذكر كانت حبكتها دائما لا معقولة ، وماكنت لأضيع وقتى فيها ، لولا محاولة الإفادة منها على النحو الذى ذكرت .

ولأننى قلت ذلك ، فلا يهمنى أن أعترف اليوم - ولا أجد شيئا أخجل منه هنا - بأننى كنت أجد متعة أحيانا فى بعض تلك الروايات. لم أعترف لنفسى بذلك حينذاك، ولكن .. أى عيب فى ذلك ؟!

لماذا لا يستمتع المرء بالقصص العاطفية بين رجال ونساء يقعون فى الحب ويعبرون عن مشاعرهم بعبارات جميلة؟ ولكننى عندما أقول ذلك فأنا لا أقصد أن أقول إن الموقف الذى اتخذته بالنسبة لذلك الكتاب فى ذلك المساء كان شيئا لا مبرر له . لابد من أن تفهم أنها مسألة مبدأ. فقد كنت "خارج ساعات العمل الرسمية" عندما دخلت "مس كنتون"

إلى غرفتى . وبالطبع فإن أى رئيس خدم ينظر إلى مهنته باحترام ، أى رئيس خدم يطمح إلى "شرف شغل هذا المنصب" كما عبرت عن ذلك" جمعية هايز" ذات يوم. لاينبغى أن يسمح لنفسه بأن يبدو خارج ساعات العمل الرسمية فى حضور الآخرين. لم يكن مهما فى الواقع أن يكون الذى دخل غرفتى فى ذلك الوقت هو "مس كنتون" أو أى شخص آخر. أى رئيس خدم لابد من أن يشاهد وهو فى إطار دوره تماما، لا يجب أن يراه أحد وهو يخلع هذا الدور عنه ثم يرتديه مرة أخرى، وكأنه ليس أكثر من زى فى مشهد تمثيلى صامت . هناك موقف واحد فقط، موقف واحد فقط عندما يشعر رئيس الخدم الذى يحرص على كرامته بأنه يريد أن يتخفف قليلا من العبء الذى يحمله على كاهله ... أقصد عندما يكون وحده تماما. سوف تقدر إذن ماحدث عندما اندفعت "مس كنتون" إلى غرفتى بينما كنت أعتقد أننى قد أصبحت بمفردى تماما. كانت إذن مسألة مبدأ، مبدأ كرامة ... لم أظهر إلا فى دورى الكامل والذى يجب أن يكون. على أية حال، لم يكن هدفى أن أحلل هنا الأوجه المختلفة لتلك الملابسات التى حدثت منذ سنوات .. أهم شىء أنها نبهتنى إلى حقيقة مهمة ، وهى أن الأمور بينى وبين "مس كنتون" قد وصلت إلى آخر مدى لها، وصلت بالتدريج وبعد عدة أشهر إلى مستوى من العلاقة غير لائق. تصرفها بتلك الطريقة فى ذلك المساء كان شيئا مزعجا ، وبعد أن خَرَجَتْ وأصبحت قادرا على أن أستجمع أفكارى إلى حد ما ، أذكر

أننى حاولت أن أشرع فى إعادة بناء علاقة العمل بيننا على أساس أكثر ملاءمة. ولكن من الصعب الآن القول كيف أن تلك الأحداث كانت سببا فى التغير الكبير الذى طرأ على علاقتنا بعد ذلك. كانت هناك أيضا تطورات أساسية أخرى مسئولة عما حدث ، حكاية يوم إجازتها مثلا.

منذ أن جاءت "مس كنتون" إلى "دارلنجتون هول" وإلى ما قبل ذلك الحدث بشهر تقريبا عندما دخلت إلى غرفتى ، كانت أيام إجازاتها تتبع نظاما محددا. كانت تحصل كل ستة أسابيع على يومين إجازه لزيارة عمتها فى "سوثامبتون"، وأحيانا كانت لا تأخذ إجازات مثلى إلا إذا كان الوقت هادئا، وفى تلك الحالة كانت تقضى يوم راحتها فى التجوال فى الدور الأرضى أو القراءة فى غرفتها. ولكن النظام تغير. بدأت تقوم بإجازاتها كما ينص العقد وتختفى من القصر منذ الصباح ولا تترك أى معلومات سوى الموعد المتوقع أن تعود فيه ليلا. كانت لا تتجاوز الوقت المقرر لها بالطبع، ولذلك شعرت بأنه لايليق أن أسأل عن أسباب خروجها. ولكننى أعتقد أن هذا التغير أقلقنى إلى حد ما، فأنا أذكر أننى تكلمت عن ذلك مع "مستر جراهام" مساعد رئيس خدم "سير چيمس تشامبرز" وكان زميلا طيبا وإن كنت قد فقدت صلتى به الآن. حدث ذلك ونحن جالسان بجوار المدفأة ذات ليلة نتحدث أثناء إحدى زياراته المتكررة لـ"دارلنجتون هول".

والحقيقة أن كل ما قلته لا يخرج عن أن مدبرة القصر قد أصبحت "متقلبة المزاج مؤخرا" ولكننى فوجئت عندما هز "مستر جراهام" رأسه ومال عليَّ قائلا بلغة العالم ببواطن الأمور : "وأنا أتساءل إلى متى سيستمر ذلك؟"

وعندما سألته عما يقصده قال : «مس كنتون» هذه التى تعمل معك. أعتقد أنها الآن .... كم ؟ ثلاث وثلاثون سنة؟ أربع وثلاثون ؟ متروكة هكذا فى أحسن سنوات أمومتها؟ لكن الوقت لم يتأخر بعد !"

أكدت له : "مس كنتون كفاءة شديدة الإخلاص ، وأنا أعلم أنها لا تريد أن تكون أسرة".

ولكن "مستر جراهام" هز رأسه مبتسما وقال : "لا تصدق أى مدبرة منزل أو قصر تقول إنها لا تريد أن يكون لها أسرة . أعتقد يا"مستر ستيفنس" أننا يمكن أن نجلس معا، ونعد على الأقل اثنتى عشرة منهن قلن شيئا مثل ذلك، ثم تزوجن وتركن المهنة." أعتقد أننى رفضت نظرية "مستر جراهام" هذه ببعض الثقة فى ذلك المساء، لكننى فيما بعد – ولابد من أن أعترف – كان من الصعب أن أستبعد أن يكون السبب وراء تكرار خروجها الغامض هو أن "مس كنتون" كانت تذهب للقاء شخص يريد أن يتقدم للزواج منها . وكانت تلك بالفعل فكرة مزعجة ، إذ إن تركها للخدمة سيكون خسارة فادحة ، خسارة سوف يجد قصر

"دارلنجتون هول" صعوبة شديدة لتعويضها. بالإضافة إلى ذلك فإننى كنت مضطرا للاعتراف بدلائل أخرى كانت تؤيد نظرية "مستر جراهام". مثلا : كان من بين مهامى استلام البريد . ولاحظت أن "مس كنتون" بدأت تصلها رسائل بشكل منتظم تقريبا - مرة فى الأسبوع على الأقل- من نفس المرسل وكانت تلك الرسائل تحمل طوابع بريد محلية. ولابد من أن أشير هنا إلى أنه كان من المستحيل بالنسبة لى ألاّ ألاحظ مثل تلك الأشياء لأنها على مدى سنوات وجودها معنا لم تتلق سوى رسائل معدودة. ثم إنه كانت هناك دلائل أخرى غير واضحة تؤيد نظرية "مستر جراهام"، فعلى سبيل المثال بالرغم من أنها واصلت أداء عملها بنفس الدرجة من الإتقان إلا أن معنوياتها كانت تمر بتقلبات لم أعهدها من قبل . فالمرات التى كانت تبدو فيها سعيدة ولأيام كاملة، ودون سبب ملحوظ ، كانت بالنسبة لى مزعجة تماما مثل أيام قنوطها وعبوسها. وكما أقول فإنها ظلت تؤدى عملها بشكل ممتاز كالعادة، ولكننى ، مرة أخرى ، كان من واجبى أن أفكر فى "مستقبل دارلنجتون هول" على المدى البعيد، وما إذا كانت تلك الدلائل تدعم نظرية "مستر جراهام". هل كانت تفكر فى الرحيل لأسباب عاطفية؟ كان لابد من أن أتقصى الأمر أكثر من ذلك . تجرأت وسألتها ذات مساء ونحن نتناول الكاكاو :

"هل ستخرجين يوم الخميس القادم يامس كنتون؟ أقصد فى يوم إجازتك".

كنت نصف متوقع أن تغضب لهذا الاستفسار ، ولكنها – على العكس – بدت وكأنها تنتظر هذه الفرصة منذ زمن لإثارة هذا الموضوع لأنها قالت وهى تشعر بالارتياح :

"آه يامستر ستيڤنس ! هو شخص تعرفت عليه أيام عملى فى "جرانشستر لودج". الحقيقة أنه كان رئيس الخدم هناك فى ذلك الوقت، ولكنه ترك الخدمة الآن ويمارس عملا تجاريا فى مكان قريب من هنا . عرف بوجودى فى "دارلنجتون هول" وبدأ يكتب إلى مقترحا أن نجدد علاقتنا. هذا هو كل شىء باختصار يامستر ستيڤنس!"

"فهمت يا"مس كنتون". لاشك فى أن الخروج من وقت لآخر يشعر المرء بالانتعاش"

"وأنا أعتقد ذلك أيضا يامستر ستيڤنس"

ثم ساد بيننا صمت قصير. بعد ذلك ظهرت "مس كنتون" لكى تتخذ قرارها وقالت: "ذلك الرجل الذى أعرفه . أذكر أنه عندما كان رئيس خدم فى "جرانشستر لودج" كان شديد الطموح. أتصور أن حلمه النهائى كان أن يصبح رئيس خدم فى قصر كبير كهذا. لكن ... ياه! عندما أتذكره الآن ..! أستطيع أن أتصور ملامحك "يامستر ستيڤنس" لو أنك واجهت مثل ذلك الآن .. ولا عجب أن تظل طموحاته الآن دون تحقق!"

ضحكْتُ ضحكة قصيرة وقلت : "أعرف بحكم خبرتى أن هناك عددا كبيرا من الناس الذين يتصورون أنفسهم قادرين على العمل فى تلك المستويات العليا دون أن يكون لديهم أدنى فكرة عن المتطلبات المرهقة المرتبطة بذلك. والمؤكد أن تلك المستويات ليست مناسبة لأى شخص هكذا بشكل مطلق"

"فعلا يامستر ستيفنس ! ماذا كان يمكن أن تقول لو أنك لاحظته فى تلك الأيام؟"

"على تلك المستويات يامس كنتون ، المهنة ليست من أجل أى واحد. من السهل جدا أن يكون للمرء طموحاته الكبيرة ، ولكن رئيس الخدم لن يتقدم إلى ماهو أبعد من نقطة معينة إن لم تكن لديه مواصفات خاصة".

بدت مس كنتون تفكر فى ذلك لحظة ثم قالت :

"لدى إحساس بأنك شخص راض عن نفسك تماما "يامستر ستيفنس"، فأنت رجل فى قمة المهنة الآن، وكل شىء فى هذا المجال تحت سيطرتك. أنا فعلا لا أتصور أنك تريد شيئا آخر فى الحياة" .

لم أستطع أن أفكر فى رد مباشر على ذلك. وفى الصمت المربك الذى ران وجهت "مس كنتون" نظرتها المحدقة إلى عمق فنجان الكاكاو وكأنها تتأمل شيئا هناك باستغراق شديد. وبعد تفكير قلت : "على قدر

ما أعرف يا مس كنتون، فإن مهمتى لن تتحقق حتى أفعل كل ما فى استطاعتى لكى أرى سيادة "اللورد" وقد نجح فى تحقيق كل ما يريد . يوم يكتمل عمله، يوم يستطيع أن يعتمد على أمجاده ، يوم يشعر بالرضا لأنه استطاع أن يفعل كل ما يطلبه منه أى إنسان ، يوم يحدث ذلك فقط يمكن أن أعتبر نفسى شخصا شديد الرضا عن نفسه".

ربما تكون "مس كنتون" قد ارتبكت قليلا بسبب هذه الكلمات ، وربما يكون ما قلت قد أساء إليها على نحو ما . على أية حال ، فإن مزاجها بدا متغيرا فى تلك اللحظة ، كما فقدت محادثتنا الطابع الشخصى الذى كانت قد بدأت تتخذه. بعد ذلك بفترة قصيرة انتهت لقاءات الكاكاو فى غرفتها ، وأذكر أننى فى آخر مرة التقينا فيها كنت أنوى أن أناقش معها التحضيرات المطلوبة لاجتماع قادم فى عطلة نهاية الأسبوع فى "سكتلنده" وكان يضم نخبة من الشخصيات البارزة. صحيح أن المناسبة كانت بعد شهر تقريبا، ولكننا كنا نناقش مثل تلك الأمور قبلها بوقت كاف .

فى ذلك المساء تحديدا كنت أناقش الأمر من مختلف جوانبه ولاحظت أن "مس كنتون" لاتشاركنى بقدر كاف، وبعد فترة اتضح لى أن أفكارها كانت هناك فى مكان آخر تماما. كنت أسألها أحيانا "هل أنت معى يا "مس كنتون"؟ وبالذات عندما كنت أشرح فكرة طويلة ، وبالرغم

من أنها كانت تنتبه عندما أقول شيئا كذلك، إلا أنها كانت تسرح مرة أخرى بسرعة . بعد عدة دقائق من كلامى، وتعليقات من جانبها مثل: "طبعا.. طبعا!"، "أنا معك يامستر ستيفنس"، قلت لها فى النهاية :

"معذرة يا"مس كنتون"، لا أرى جدوى كبيرة فى مواصلة الكلام معك. ويبدو أنك لا تقدرين أهمية هذا الموضوع"

قالت : "وأنا أسفة "يامستر ستيفنس"، الحقيقة أننى مرهقة بعض الشىء هذا المساء".

"لقد تزايد شعورك بالإرهاق يا "مس كنتون"، ولم يكن ذلك أبدا سببا تلجئين إليه" .

ولدهشتى الشديدة ، فإن "مس كنتون" ردت على ذلك بانفجارة شديدة ومفاجئة : "لقد كان الأسبوع الماضى مزدحما ومرهقا جدا بالنسبة لى "يامستر ستيفنس"، وأشعر فى هذه الساعات الثلاث أو الأربع الأخيرة برغبة شديدة فى الذهاب إلى السرير. أنا متعبة "يامستر ستيفنس" ... متعبة ... ألا تقدر ذلك؟"

كأننى لم أكن أريد اعتذارا منها ، لكن حدة الرد جعلتنى أجفل قليلا. على أية حال، لم أترك نفسى تستسلم للدخول فى جدل غير ضرورى معها، وتعمدت الانتظار لحظة أو لحظتين قبل أن أقول :

"إذا كان ذلك هو إحساسك بالمسألة يا "مس كنتون" فليس هناك مايدعو على الإطلاق لمواصلة هذه اللقاءات المسائية. ويؤسفنى أنه لم يكن لدى أية فكرة طوال هذا الوقت أنها لم تكن مريحة لك.

"كل ماقلته "يامستر ستيفنس" هو أننى أشعر بالتعب هذه الليلة".

"لا .. لا .. الأمر مفهوم يا "مس كنتون" ! حياتك مليئة ، وهذه اللقاءات عبء غير ضرورى يضاف إلى ما لديك . هناك بدائل أخرى لتحقيق هذا الاتصال بخصوص العمل دون اللجوء إلى هذه اللقاءات".

"لا داعى لذلك كله "يامستر ستيفنس" ، كل ماقلته هو ...."

"وأنا أعنى ما أقول يا "مس كنتون" .. والحقيقة وأنا أتساءل منذ فترة إن كان يمكن إيقاف هذه اللقاءات على اعتبار أنها تطيل أيام العمل المشحونة بما يكفى. وكوننا نلتقى هكذا منذ سنوات لا يعنى أننا لا ينبغى أن نبحث عن وسيلة أخرى أكثر جدوى .. من الآن فصاعدا".

"مستر ستيفنش! أنا أعتقد أن هذه اللقاءات مفيدة جدا" .

"ولكنها ليست مريحة لك يا "مس كنتون" . مرهقة . دعينى أقترح أن نجد طريقة لتبادل المعلومات المهمة أثناء يوم العمل العادى . وإذا تعذر أن يجد أحدنا الآخر ، فليترك له رسالة مكتوبة على الباب، وهذا يبدو حلا جيدا. والآن ، عذرا يا "مس كنتون" لأننى أخرتك هكذا. شكرا

جزيلا على الكاكاو".

لابد من أن أعترف بأنني كنت أتساءل بيني وبين نفسي كيف كان بالإمكان أن تتجه الأمور على المدى الطويل، لو أنني لم أحدد موقفي بالنسبة لهذه اللقاءات المسائية ، أقصد لو أنني رضخت لتلك المناسبات، على مدى الأسابيع التي تلت اقتراح "مس كنتون" بأن نعيدها. أنا أفكر في هذا الأمر الآن لأنه على ضوء الأحداث التي تلت ذلك، يمكن القول إن اتخاذ قرار بإيقاف هذه اللقاءات المسائية بشكل قاطع، قد أكون فيه غير مدرك لمغزى ما أفعل. والحقيقة أنه يمكن أن يقال إن هذا القرار البسيط مني ، كان يمثل نقطة تحول، لأنه وضع الأمور في مسار حتمي نحو ما حدث أخيرا. ولكنني أفترض أن المرء عندما يتأمل ماضيه على ضوء ما فيه من "نقاط تحول" سيكتشف أنها كثيرة ، ولذا فإن قراري بالنسبة للقاءات المسائية لم يكن هو نقطة التحول الوحيدة. ما حدث في غرفتي أيضا كان نقطة تحول . ماذا كان يمكن أن يحدث لو كنت قد تصرفت بشكل مختلف أو استجبت قليلا في ذلك المساء عندما جاءت "مس كنتون" بالمزهرية؟ وربما يكون لقائي مع "مس كنتون" في غرفة الطعام ، في ذلك المساء عندما تلقت خبر وفاة عمتها ، نقطة تحول أخرى ، لأن ذلك حدث في نفس الوقت تقريبا. كان خبر الوفاة قد وصل قبل ذلك بساعات، وكنت أنا الذي دق بابها في ذلك

الصباح لأسلمها الرسالة. دخلت غرفتها لكي أناقش معها بعض أمور العمل، وأتذكر أننا جلسنا على الطاولة وكنا نتكلم عندما فتحت الرسالة. بقيَتْ صامتة ، ولكنها في الحقيقة كانت متماسكة وهي تعيد قراءتها مرتين على الأقل . بعد ذلك أعادت الرسالة إلى المغلف بعناية ونظرت إليّ.

"من مسز چونز .. إحدى صديقات عمتي. تقول إنها ماتت أول أمس". وسكتت لحظة ثم قالت :"الجنازة غدا، أتمنى أن أستطيع الحصول على إجازة غدا".

"من المؤكد أننا يمكن أن نرتب ذلك يامس كنتون".

"شكرا "يامستر ستيفنس" ... لكن ... عفوا ... هل يمكن أن تتركني بمفردي الآن ولو لدقائق ؟!"

"بالتأكيد يا "مس كنتون!"

خرجتُ ، ولكنني أدركت أنني لم أقدم لها عزائي. أنا أعرف حجم الصدمة التي فاجأتها. كانت عمتها بالنسبة لها مثل أمها تماما. وقفتُ مترددا في الممر ، لا أعرف هل أدق بابها مرة أخرى لأقوم بذلك الواجب أم لا. ثم تنبهت إلى أنني قد أعتدي بذلك على خصوصيتها وأقحم نفسي على حزنها الخاص.

لم يكن مستبعدا أن تكون "مس كنتون" تبكى الآن .. فى هذه اللحظة... وهى على بعد أقدام قليلة منى . أيقظت هذه الفكرة بداخلى شعورا قويا ، وجعلتنى أقف مترددا فى الممر . وأخيرا وجدت من الأفضل أن أنتظر فرصة أخرى للتعبير عن مواساتى. وانصرفت . لم أرها بعد ذلك إلا بعد الظهر عندما قابلتها فى حجرة الطعام وهى تعيد بعض الآنية الفخارية للخزانة . فى ذلك الوقت كنت مسكونا بحزن "مس كنتون" وأفكر فى أفضل ما يمكن أن أقوم به أو أفعله للتخفيف عنها ولو بقدر ضئيل.

كنت مشغولا بشىء ما فى الردهة عندما سمعت وقع خطواتها قادمة إلى غرفة الطعام. انتظرت قليلا ثم تركت ما كنت أفعله وتبعتها إلى الداخل .

"كيف حالك هذا المساء يامس كنتون؟"

"بخير ! شكرا يامستر ستيفنس!"

"هل كل شىء على ما يرام؟"

"كل شىء بخير ... شكرا جزيلا!"

"أريد أن أسألك إن كانت هناك أى مشاكل مع العاملين الجدد"- وضحكت - "الأمر لا يخلو من متاعب صغيرة عندما يصل عدد من العاملين دفعة واحدة. ليتنا نناقش ذلك معا من وقت لآخر".

"شكرا يامستر ستيفنس ، لكن البنات الجدد جيدات تماما بالنسبة لى ، وأنا راضية عنهن".

"ألا تفكرين فى إجراء أى تعديل على جداول العمل الحالية بعد وصول الطاقم الجديد؟"

"لا أعتقد أن هناك ضرورة لأى تغيير "يامستر ستيفنس" ، على أية حال سأبلغك على الفور إذا غيرت رأيى بهذا الخصوص".

ثم وجهت اهتمامها إلى الخزانة الجانبية، ورحت أنا أفكر فى مغادرة غرفة الطعام . تقدمتُ بالفعل خطوات قليلة نحو المدخل ولكننى استدرت مرة أخرى وقلت لها :

"العاملون الجدد جيدون كما تقولين؟"

"يعملون بشكل جيد ... أؤكد لك"

"جميل أن أسمع ذلك"، ثم ضحكت مرة أخرى ، "أنا مستغرب ذلك لأننا نعرف أن أيا من البنتين لم يسبق لها العمل فى قصر كبير كهذا"

"بالفعل يامستر ستيفنس"

تأملتها وهى تضع الأشياء فى الخزانة وانتظرت أن تقول شيئا أخر، وعندما اتضح أنها لن تقول شيئا ، قلت :

"الحقيقة أننى أريد أن أقول الآتى يا "مس كنتون" .... لقد لاحظت فى الفترة الأخيرة أن هناك شيئا أو شيئين لم يعودا على نفس

المستوى، ولذا لابد من أن تكونى أقل رضا عن العاملين الجدد".

"ماذا تقصد يامستر ستيفنس؟"

"عندما يصل عاملون جدد ، فلابد من أن أتأكد من جانبى أن كل شىء يسير بشكل جيد . لابد من أن أراجع كل جوانب أدائهم وأتأكد أنه يسير منتظما مع أداء الآخرين . أقصد .. من الناحية الفنية، وأثر ذلك على الجو العام . عفوا يا "مس كنتون" ، أنت متهاونة بعض الشىء فى هذا الأمر ، ويؤسفنى أن أقول ذلك".

بدا عليها ارتباك لحظى ، ثم التفتت نحوى مشدودة الوجه.

"عفوا ..! ماذا قلت يامستر ستيفنس؟"

"على سبيل المثال يا "مس كنتون" ، بالرغم من أن الآنية الفخارية قد غسلت جيدا كما هو متبع، إلا أنها أعيدت إلى أرفف المطبخ بشكل غير سليم سيؤدى إلى تحطم عدد كبير منها".

"هل الأمر هكذا يامستر ستيفنس؟"

"نعم يا "مس كنتون" ، إلى جانب أن هذا الركن الصغير خارج غرفة الإفطار لم يتم نفض الغبار عنه منذ فترة. وعفوا ... مرة أخرى ، هناك شىء آخر أو شيئين لابد من ذكرهما"...

"ليس هناك مايدعو لتأكيد ماقلت "يامستر ستيفنس" ولا الإلحاح عليه، سأقوم بمراجعة أعمال الخادمتين الجديدتين".

"ليس من طبيعتك أن تغفلى عن مثل ذلك يا مس كنتون"!

أشاحت عنى بوجهها ، ثم بدا عليها أنها كانت تحاول فك لغز شيء أصابها بالارتباك . كانت "مس كنتون" مرهقة أكثر منها منزعجة . ثم قالت وهى تغلق الخزانة "اسمح لى يامستر ستيفنس"... وتركت الغرفة. ولكن ترى ما هو المغزى أو الهدف من إطالتى التفكير فيما كان يمكن أن يحدث لو أن الموقف أو غيره كان مختلفا؟ المرء يشغل نفسه بذلك كثيرا . على أية حال ، إذا كان الكلام عن نقاط التحول شيئا جيدا، فمن المؤكد أن المرء يمكنه أن يتعرف على تلك اللحظات باستعادتها. ومن الطبيعى أنه عند إعادة النظر اليوم فى تلك الأحداث ، فإنها قد تبدو لحظات ثمينة وحاسمة فى حياة المرء ، بالرغم من أن الانطباع عنها لم يكن كذلك فى حينها . كانت هناك تقلبات كثيرة فى علاقتى بـ "مس كنتون"، وكنت أتصور أن هناك عددا لا أول له ولا آخر من الفرص لعلاج آثار سوء الفهم هذا أو غيره. لكنه ، لم يكن هناك فى ذلك الوقت ما يشير إلى أن تلك الأحداث البسيطة يمكن أن تجعل أحلاما بكاملها عصية على التحقق أو الاستعادة. هل أصبحت أحاول استبطان مشاعرى وأفكارى بشكل كئيب ؟

لاشك فى أن هناك علاقة لذلك بالساعة الأخيرة والطبيعة المرهقة للأحداث التى كان علىَّ أن أتحملها فى ذلك المساء. ولا شك أيضا فى

أن حالتى النفسية الحالية ليست منبتة الصلة بكونى سأصل غدا إلى "ليتل كومتون" فى وقت الغداء تقريبا ، وأننى سوف أرى "مس كنتون" بعد كل تلك السنوات ، هذا طبعا على افتراض أن "الجراج" المحلى سوف يزودنى بالبترول اللازم للسيارة كما أكدت لى أسرة "تيلور". وليس هناك ما يجعلنى أتصور أن لقائى بـ "مس كنتون" لن يكون وديا، بل إننى أتوقع له أن يكون مهنياً فى طبيعته بصرف النظر عن العبارات المتبادلة فى مثل تلك المواقف. أقصد أنه سيكون من واجبى أن أحدد إن كانت "مس كنتون" لديها أية رغبة فى العودة إلى عملها القديم فى "دارلنجتون هول"، خاصة وأن زواجها يبدو أنه قد فشل، وأنها الآن بدون بيت. وربما كان من الضرورى أن أقول هنا أيضا إننى بعد أن قرأت رسالتها مرة أخرى هذه الليلة رحت أعيد قراءة فقرات بعينها. فى أجزاء كثيرة كنت أرى تلميحا واضحا يدل على الحنين للمكان ، وبخاصة فى عبارات مثل : "كنت مفتونة بذلك المنظر الذى أراه من غرف النوم فى الطابق الثانى عندما أطل على المساحة الخضراء والسهول المترامية".

لكن مرة أخرى ، ماهو الهدف من التفكير بلا نهاية فيما إذا كانت راغبة فى العودة فى الوقت الحالى أم لا، بينما يمكننى أن أعرف ذلك منها شخصيا فى الغد ؟ يبدو أننى شطحت بعيدا عن حكايتى ..

شطحت بعيدا عما حدث هذا المساء.

الساعات الأخيرة ، ودعني أقول ذلك ، كانت شديدة الإرهاق. كنت أتصور أن اضطراري لترك السيارة على تل منعزل والسير حتى هذه القرية الصغيرة في جو مظلم تقريبا وفي طريق وعرة، كنت أتصور أن ذلك كله يكفي لإزعاجي هذا المساء . ولا أعتقد أن مضيفيّ الكريمين "مستر تيلور" وزوجته تعمدا أن يعرضاني لما تعرضت له. بمجرد أن جلست معهما على طاولة العشاء ، وبمجرد أن جاء بعض الجيران ، توالت بعض الأحدث المزعجة .

الغرفة الموجودة بالطابق الأرضي في واجهة المنزل ، تفي بمتطلبات "مستر ومسز تيلور" كغرفة طعام وغرفة معيشة في الوقت نفسه. وهي مريحة ، تشغل مساحة كُبيرة منها طاولة خشنة المظهر مثل تلك التي قد تجدها في مطبخ منزل ريفي ، سطح الطاولة ليس عليه طلاء وليس مستويا وتظهر عليه آثار استخدام سواطير وسكاكين. كانت تلك الآثار واضحة جدا بالرغم من أننا كنا جالسين في ضوء أصفر شحيح ينبعث من مصباح زيتي فوق رف في إحدى الزوايا .

قال "مستر تيلور" وهو يومئ برأسه نحو المصباح: "كأنه لا توجد كهرباء هنا يا سيدي ! الحقيقة أن هناك عطلا في التوصيلات وهكذا نحن بلا كهرباء منذ شهرين تقريبا . ولا أكتمك الحقيقة إذا قلت لك إننا

لا نفتقدها كثيرا. يوجد فى القرية منازل لم تعرف الكهرباء بالمرة. على أية حال ، الزيت يعطى ضوءا أكثر دفئا".

قدمت لنا "مسز تيلور" حساء طيبا تناولناه مع الخبز المقمر ، وحتى ذلك الحين لم يكن هناك ما يوحى بأن المساء يحمل لى شيئا مزعجا بعد ساعة أو بعض ساعة من الحديث الممتع قبل الذهاب للنوم . إلا أنه بمجرد أن انتهينا من عشائنا ، وبينما كانت "مسز تيلور" تصب لى كأسا من الجعة المحلية، سمعنا وقع أقدام على الحصباء المفروشة فى الخارج .

توجست من ذلك الصوت الذى كان يقترب فى الظلام من هذا المنزل الريفى المنعزل، لكن لا مضيفى ولا زوجته كان يبدو عليهما أية رهبة أو خوف من أى نوع. كل ما حدث هو أن "مستر تيلور" ويدافع من الفضول كان يبدو فى صوته ، قال : "مرحبا! من يكون القادم الآن؟" . قال ذلك لنفسه تقريبا ، ولكننا سمعنا صوتا فى الخارج وكأنه يرد عليه : "أنا "چورچ أندروز"، وكنت مارا من هنا بالمصادفة".

بعد لحظة، كانت "مسز تيلور" تفتح الباب وتقدَّم إلينا شخصا قوى البنية ، فى الخمسينيات تقريبا ، توحى ثيابه بأنه كان قد أمضى اليوم فى عمل فى الحقول. وبألفة توحى بأنه زائر منتظم للمكان، جلس على دكة صغيرة فى المدخل، وخلع حذاءه ذا الرقبة الطويلة - بعد أن بذل

جهدا فى ذلك - بينما كان يتبادل بعض الكلمات مع "مسز تيلور" . ثم تقدم نحو الطاولة، ووقف أمامى فى وضع الانتباه، وكأنه يقدم تقريرا لضابط فى الجيش .

قال : "اسمى "آندروز" يا سيدى . طاب مساؤك . يؤسفنى ما سمعت عن الحادث الأليم الذى وقع لك ، وأتمنى ألا يضايقك أن تقضى ليلتك هنا فى "موسكومبى" .

انتابتنى الحيرة قليلا . كيف عرف هذا "المستر آندروز" بالحادث الأليم الذى وقع لى كما يقول؟! على أية حال، قلت مبتسما إننى أشعر بالامتنان الكبير لما ألقاه من كرم ضيافة بصرف النظر عن كونى متضايقا أم لا لقضاء الليلة هنا. كنت أشير بالطبع إلى عطف ورعاية "مستر ومسز تيلور" ولكن مستر "آندروز" كان يشعر بأنه مشمول بذلك الامتنان ، فقال على الفور مدعما قوله بحركة من يديه القويتين " لا ... لا ... يا سيدى! على الرحب والسعة ، يسرنا أن نستضيفك ... حيث لا يجىء إلى هنا كثيرون مثلك ... نحن سعداء جدا بتوقفك عندنا". كانت الطريقة التى قال بها ذلك تدل على أن القرية كلها كانت على علم بذلك" الحادث الأليم وبوصولى إلى ذلك المنزل الريفى. والحقيقة أن الأمر كان هكذا تقريبا كما اتضح لى ، وأستطيع أن أتصور أننى فى خلال الدقائق التى تلت اصطحابى إلى غرفة النوم حيث

كنت أغسل يدى، وأحاول إصلاح التلف الذى أصاب سترتى وثنيات البنطلون ، أستطيعّ أن أتصور أن يكون "مستر ومسز تيلور" قد نقلا أخبارى إلى كل المارة. على أية حال، فإن الدقائق التالية لذلك شهدت وصول زائر آخر . كان رجلا يشبه "مسترآندروز" فى مظهره ، أى أنه كان عريض المنكبين ويبدو أنه يعمل بالزراعة. كان يلبس حذاء طويل الرقبة عليه آثار الوحل ، وتقدم ليخلعه بنفس الطريقة التى خلع بها "مستر آندروز" حذاءه. كان التشابه بينهما فى الواقع كبيرا لدرجة أننى تصورتهما شقيقين ، إلى أن قدم الرجل نفسه إلى قائلا: "مورجان يا سيدى ... تريفور مورجان".

عبر "مستر مورجان" عن أسفه الشديد "لسوء حظى"، مؤكدا أن كل شىء سيكون على ما يرام فى الصباح ، قال ذلك قبل أن يعبر عن مدى الترحيب بى فى القرية".

كنت قد استمعت بالطبع قبل لحظات إلى مشاعر طيبة مماثلة، ولكن "مستر مورجان" قال : "إنه من دواعى الفخر أن نستقبل أمثالك من السادة المحترمين هنا فى "موسكومبى" يا سيدى". وقبل أن أجد الفرصة للرد على ذلك سمعنا أصوات أقدام أخرى على الممر خارج المنزل . وفى الحال ، دخل رجل وامرأة فى منتصف العمر ، قدّموهم إلى: "مستر ومسز هارى سميث". لا يبدو أنهما يعملان بالزراعة.

السيدة ضخمة الحجم ، شديدة الوقار ، ذكرتني بـ"مسز مورتيمر" الطباخة في "دارلنجتون هول" في العشرينيات والثلاثينيات . أما "مستر هاري" فكان – على العكس – رجلا ضئيل الحجم ، حاد الملامح مقطب الجبين . عندما اتخذا مكانيهما حول الطاولة قال : "لابد من أن تكون سيارتك هي تلك "الفورد" الفاخرة الموجودة هناك فوق "ثورنلي بوش هل" ياسيدي!"

قلت : هذا إذا كـان ذلك هو طريق التل الذي يطل على القـرية ... ولكنني مندهش... كيف رأيتها؟!"

"لم أرها بنفسي يا سيدي ، لكن "ديفي ثورنتون" مر بها بينما كان يقود الجرار منذ وقت قصير وهو عائد إلى منزله. استغرب وجودها واقفة هناك ، أوقف الجرار ونزل ليراها"، ثم استدار موجها كلامه للآخرين حول الطاولة :"سيارة رائعة"، وقال إنه لم ير مثلها في حياته." لقد بزّت السيارة التي كان يركبها "مستر لندساي" .... مَسَحَتها!"

أحدثت كلماته ضحكا حول الطاولة ، وشرح "مستر تيلور" ذلك قائلا: "مستر لندساي" هو أحد السادة الذين اعتادوا السكنى في القصر الكبير القريب من هنا ياسيدي. لكنه أتى فعلتين غريبتين، ولم يَرُقْ ذلك لأحد هنا". أحدثت كلماته همهمة بين الجالسين تدل على الموافقة على ما قاله. ثم قال آخر وهو يرفع كأس الجعة التي انتهت

"مسز تيلور" من صبها : "في صحتك ياسيدي!"

وفي لحظات كان الجميع يشربون نخبي!

ابتسمت قائلا :"إنه لشرف لي أنا ... كل الشرف بالفعل"! قال مستر سميث: "هذا تواضع كبير منك ياسيدي، وهكذا دائما السادة الحقيقيون. لكن ذلك "المستر سميث" لم يكن "جنتلمانا". ربما كان لديه أموال كثيرة ، لكنه لم يكن "جنتلمانا" أبدا".

ومرة أخرى كان هناك إجماع على قوله . بعد ذلك همست "مسز تيلور" بشيء في أذن "مستر سميث" جعلته يقول : "قال إنه يريد أن يذهب بأسرع ما يستطيع". فالتفت كلاهما نحوي بثقة لتقول "مسز سميث": "لقد أخبرنا الدكتور "كارلسلي" بوجودك ياسيدي . الدكتور سيكون سعيدا بالتعارف بينكما". ثم أضافت "مسز تيلور" معتذرة": أعتقد أن لديه بعض المرضى الذين يجب فحصهم ، ربما لانستطيع أن نؤكد أنه سيجيء قبل أن تذهب للنوم ياسيدي!" . وعندئذ انحنى الرجل الضئيل ذو الجبين المقطب - مستر سميث - ليقول": "ذلك المستر لندساي ... كل تقديراته خاطئة. أترون؟ الطريقة التي يتصرف بها . فهو يتصور أنه أفضل منا جميعا ... وخدعنا كلنا . لكنني أقول يا سيدي إنه أدرك العكس بسرعة شديدة . كثير من التفكير العميق والنقاش الجاد يدور في هذا المكان . هنا كثير من الآراء الجريئة في المنطقة، والناس

لا يخشون التعبير عنها. وهذا أمر فهمه "مستر لندساى" بسرعة".

قال "مستر تيلور" بهدوء": لم يكن چنتلمانا أبدا، لم يكن "چنتلماناً" ذلك "المستر لندساى".

وقال مستر "هارى سميث": "هذا صحيح ياسيدى، مجرد أن تراقبه تكتشف أنه ليس "چنتلماناً"، لكنك قد عرفت وتأكدت من ذلك". كانت هناك همهمة تدل على الموافقة، وللحظة بدا على الجميع أنهم يفكرون فى أن يكشفوا لى حكاية تلك الشخصية المحلية، ثم كسر "مستر تيلور" الصمت بقوله": إن ما يقوله "مستر تيلور" صحيح. يمكنك تمييز "الچنتلمان" الحقيقى من الزائف الذى يرتدى الملابس الفاخرة ... ولا أكثر .. أنت على سبيل المثال ياسيدى. إنها ليست تفصيلة ثيابك، ولا طريقتك الممتازة فى الكلام. هناك شىء آخر يدل على أنك "چنتلمان". صحيح أن من الصعب تحديده، لكنه واضح لكل ذى عينين"

وكان لهذا الكلام صدى إيجابى لدى الجالسين. قالت "مسز تيلور": "إن الدكتور "كارلسلى" لن يتأخر طويلا ياسيدى، وسيكون من الممتع أن تتحدث معه". وقال "مستر تيلور": "دكتور كارلسلى" أيضا يمتلك ذلك الشىء، فهو چنتلمان حقيقى". أما مستر "مورجان" الذى لم يتكلم كثيرا منذ مجيئه فانحنى إلى الأمام وقال: "ترى ماذا يمكن أن يكون ذلك الشىء ياسيدى؟ ربما كان بمقدور الشخص الذى يملكه أن يقول لنا ما

هو . وها نحن أولاء هنا نتحدث عمن يملكه ومن لا يملكه ولا أحد منا يعرف كنهه بالتحديد. ربما كان فى استطاعتك أن تنيرنا فى هذا الموضوع".

ثم ساد الصمت حول الطاولة ورأيت جميع الوجوه متجهة صوبى. سعلت وقلت :"من الصعب أن أحدد صفات قد تكون لدى، وقد لا تكون ، ويقدر ما يعبر عنه هذا الموضوع فإن المرء يمكنه أن يتصور أن الصفة التى تشيرون إليها يمكن أن تسمى "الكرامة" .

لم أجد مبررا كافيا للاستفاضة فى شرح ذلك بالتفصيل . والحقيقة أننى عبرت عما كان يدور بذهنى من أفكار وأنا أستمع إلى الحديث السابق، وأشك فى أننى كان من الممكن أن أقول شيئاً كهذا لو لم يتطلب الموقف ذلك، ولكن ردى عليه أحدث كثيرا من الرضا على أية حال.

هز مستر "أندروز" رأسه قائلا :"هناك قدر كبير من الصدق فيما تقول ياسيدى". ووافق على هذا الرأى عدد من الأصوات الأخرى .

قال مستر تيلور : "من المؤكد أن "المستر لندساى" ذلك ، كان يمكن أن يحقق قدرا أكبر من الكرامة. المشكلة مع هذا النوع من الناس أنهم يتصورون خطأ أن الكرامة تعنى الاستعلاء والقوة. وتدخل "مستر سميث": "انتبه ياسيدى، مع الاحترام والتقدير لما تقول ، إلا

أن الكرامة ليست شيئا موجودا فى "الچنتلمان". الكرامة شىء يمكن أن يكافح أى شخص، فى هذا البلد رجلا كان أم امرأة من أجل تحقيقه . عفوا ياسيدى! لكن كما سبق أن قلت ، نحن هنا لا نعظ عندما نكون فى مقام التعبير عن الرأى. وهذا رأى فى قيمة الكرامة. الكرامة ليست مجرد شىء بالنسبة للچنتلمان".

لاحظت بالطبع أننى و "مستر هارى سميث" كنا على طرفى نقيض فى هذا الموضوع ، وأن الأمر سيكون فى غاية الصعوبة بالنسبة لى لكى أوضح لهم ما أقصده. لذا رأيت أن أفضل شىء هو أن أبتسم وأقول : "بالطبع ! أنتم محقون" .

وكان لذلك أثره السريع فى تبديد التوتر البسيط الذى خيم على جو الغرفة بينما كان مستر"هارى سميث" يتكلم. حتى إن "مستر هارى سميث" بدا وكأنه قد تحرر من كل الكوابح النفسية فاتكأ إلى الأمام وواصل كلامه :

"هذا ما حاربنا "هتلر" من أجله . لو أن "هتلر" استطاع أن يحقق ما يريد لكنا اليوم عبيدا . كان العالم كله سيصبح قلة من السادة وملايين الملايين من العبيد ، وأنا لا أود أن أُذَكِّر أحدا هنا بأن الكرامة لا يمكن أن تتحقق إذا كان المرء عبدا . هذا ما حاربنا من أجله وهذا ما ربحناه. ربحنا حق أن نكون مواطنين أحرارا. وهذه إحدى مميزات أن

تولد إنجليزيا . لايهم من تكون، ليس مهما أن تكون غنيا أو فقيرا فأنت قد ولدت حرا ، ولدت قادرا على التعبير عن رأيك بحرية وتعطى صوتك لمن يمثلك في البرلمان أو تمنعه عنه. هذا هو موضوع الكرامة بالفعل إن سمحت لي يا سيدى".

قال "مستر تيلور": "الآن .. الآن .. أرى أنك قد سخنت يا "هارى" ووصلت إلى حد خطابتك السياسية".

وأحدث ذلك موجة من الضحك. ابتسم "مستر هارى سميث" بخجل ثم استمر في كلامه :"أنا لا أتكلم في السياسة . أنا أقول رأيي فقط، وهذا هو كل شيء. لن يكون لك كرامة إذا كنت عبدا . ولكن أى إنجليزى بإمكانه امتلاكها إن كان حريصا على ذلك. فنحن قد حاربنا من أجل ذلك الحق".

وقالت زوجته": "قد يبدو ذلك مثل المكان الصغير البعيد عن الطريق الذى نمتلكه هنا ياسيدى . لكننا أعطينا أكثر من نصيبنا أثناء الحرب".

ساد الجو بعض كآبة بعد أن قالت ذلك ، إلى أن قال "مستر تيلور" أخيرا: "هارى معنا هنا ، وهو يقوم بأعمال تنظيمية كثيرة من أجل نائبنا المحلى . أعطه فرصة، وسوف يقول لك عن كل ماهو خطأ في أسلوب إدارة هذا البلد" .

"نعم ! لكننى كنت أتكلم عما هو صواب في هذا البلد هذه المرة !"

وسألنى "مستر أندروز" : هل لك اهتمام كبير بالسياسة ياسيدى؟"
قلت : "ليس بشكل مباشر ، وليس فى هذه الأيام بالتحديد. ربما كان اهتمامى بالسياسة أكبر من ذلك قبل الحرب" .

"أعتقد أننى أتذكر شخصا باسم "مستر ستيفنس" كان عضوا فى البرلمان منذ عام أو عامين . سمعته مرة أو مرتين يتحدث فى الراديو. كان يقول أشياء معقولة جدا عن الإسكان . ألست ذلك الرجل ياسيدى؟

قلت ضاحكا :"لا !"

لا أعرف السبب الذى جعلنى أنطق بالعبارة التالية بعد ذلك ، كل ما أستطيع أن أقوله هو أنها كانت تبدو ضرورية فى الظروف التى وجدت نفسى فيها . لأننى قلت:"الحقيقة أننى كنت أكثر ميلا للاهتمام بالشئون الدولية من المحلية . أعنى السياسة الخارجية". وفوجئت بأثر ما قلت على المستمعين . هبط عليهم شىء من الخوف. راعهم كلامى، فقلت بسرعة : "أود أن ألفت انتباهكم إلى أننى لم أشغل منصبا رفيعا فى حياتى مطلقا. أى نفوذ مارسته كان بشكل غير رسمى تماما". لكن الصمت ظل مخيما عدة دقائق أخرى .

وأخيرا قال "مستر تيلور": "عفوا ياسيدى ! هل حدث أن قابلت "مستر تشرشل؟"

"مستر تشرشل؟ لقد جاء بالفعل إلى القصر فى عدة

مناسبات، لكن لكى أكون صريحا معك يا "مستر تيلور" فإن "مستر تشرشل" لم يكن شخصية مهمة فى الوقت الذى كنت أنا مشغولا فيه بشئون كبرى، ولم يكن متوقعا له أن يصبح كذلك. أمثال مستر "إيدن" و "مستر هاليفاكس" كانوا من أكثر الزائرين ترددا علينا فى تلك الأيام".

"لكن .. هل التقيت بمستر تشرشل ياسيدى. إنه لشرف عظيم أن تقول ذلك!"

قال مستر "هارى سميث": أنا لا أوافق على كثير مما يقوله "مستر تشرشل" ، لكن الذى لا شك فيه هو أنه رجل عظيم . ومن المهم جدا أن تناقش أمورا مع شخص مثله".

قلت : "حسن ! لكن لابد من أن أكرر أنه لم يكن بينى، وبين "مستر تشرشل" أمور كثيرة ، لكن ما قلته صحيح ، شىء رائع أن يعرفه المرء"، وأنا كنت محظوظا لأننى عرفت عددا آخر من الزعماء والرجال ذوى النفوذ فى أمريكا وأوروبا ، وليس "مستر تشرشل" فقط. وعندما تعتقدون أننى كنت محظوظا باستماعى إلى آرائهم فى كثير من قضايا الساعة، فأنتم محقون. وأنا أشعر بالامتنان العظيم عندما أتذكر ذلك. إنها ميزة كبيرة على أية حال أن يكون قد أُسندَ إلى دور ، ولو بسيط ، على المسرح العالمى".

قال "مستر آندروز" : "عفوا يا سيدى: أريد أن أسأل، ولكن ... كيف

كان "مستر إيدن؟" أى نوع من البشر هو ؟ أقصد طبعا على المستوى الشخصى . كنت أراه دائما شخصا ممتازا. من النوع الذى يمكن أن يتحدث مع أى واحد ، صغيرا كان أم كبيرا، غنيا أم فقيرا .. هل أنا محق يا سيدى؟"

"يمكننى أن أقول إنها صورة دقيقة تماما . لكننى بالطبع لم أر "مستر إيدن" فى السنوات الأخيرة ، وربما يكون قد تغير نتيجة للضغوط. أحد الأشياء التى خبرتها هى أن الحياة العامة يمكن أن تغير الناس إلى حد كبير فى سنوات قليلة"

قال "مستر آندروز" : "أنا لا أشك فى ذلك يا سيدى . حتى "هارى" الموجود هنا. لقد تورط فى السياسة منذ سنوات قليلة ، ولم يعد نفس الرجل بعدها".

ومرة أخرى كان هناك ضحك ، بينما هز "مستر هارى" كتفيه وترك ابتسامة خفيفة تعبر وجهه. ثم قال :"صحيح أننى قد أسهمت بالكثير فى حملة الدعاية . لكن ذلك كان على المستوى المحلى ، وأنا لا ألتقى أبدا بأحد من الكبار من أمثال معارفك . وأنا من جانبى أعتقد أننى أقوم بدورى يا سيدى. فأنا أرى المسألة على النحو التالى : إنجلترا دولة ديمقراطية، ونحن فى هذه القرية قد عانينا الكثير مثل الآخرين لكى تظل هكذا. والأمر الآن فى أيدينا لكى نمارس حقوقنا - كل واحد منا -

البعض من خيرة شباب هذه القرية دفع حياته ثمنا لكي يحقق لنا هذه الميزة ، ولذلك أرى الآن أن كلا منا مدين لهم لأننا نقوم بدورنا بنجاح. لدينا جميعا أراء مهمة هنا، ومسئوليتنا أن نجعلها مسموعة . نحن بعيدون فعلا ، حسن ! قرية صغيرة. لا أحد منا يصغر في السن ، ومع ذلك فإن حجم القرية يتقلص. أما وجهة النظر هذه ، فأنا مدين بها لمن فقدناهم من شباب هذه القرية. لذلك يا سيدى فأنا أكرس الكثير من وقتى لكى تكون أصواتنا مسموعة في الدوائر العليا. ولو غيرنى ذلك أو أودى بحياتى باكرا .. فلا يهم .."

قال "مستر تيلور" مبتسما : "لقد حذرتك يا سيدى . كان من المستحيل أن يترك "هارى" فرصة مرور شخص مهم مثلك بهذه القرية دون أن يُسمِعَهُ خطبته العصماء ".

ساد الضحك مرة أخرى ولكننى قلت على الفور :

"أعتقد أننى أفهم موقفك جيدا يا "مستر سميث" ، وأتفهم رغبتك فى أن يصبح العالم مكانا أفضل ، وأن يكون لك ولزملائك المواطنين هنا فرصة للإسهام فى صنع عالم أجمل ، وهى مشاعر جديرة بالتقدير. وأستطيع أن أقول إن هذا الدافع نفسه هو الذى جعلنى أهتم بالقضايا الكبرى قبل الحرب. كان السلام العالمى مثلما هو الآن ، يبدو شيئا بعيد المنال. وقد حاولت أن أقوم بدورى".

قال "مستر هارى سميث" : "عفوا يا سيدى ! لكن وجهة نظرى كانت مختلفة قليلا. بالنسبة لأمثالك كان الأمر دائما سهلا لممارسة نفوذك . فأنت مثل أصدقائك، تعتبر الأقوى فى هذه البلاد. لكن أمثالنا هنا ياسيدى يمكن أن يقضوا السنوات تلو السنوات دون أن يروا "جنتلمانا" حقيقيا ، ربما باستثناء الدكتور "كارلسلى". هو طبيب من الطراز الأول، ولكن مع احترامى الشديد له ، ليس له صلات ولا علاقات مهمة. من السهل جدا علينا هنا أن ننسى مسئوليتنا كمواطنين. لذا فإننى أعمل بكل جدية فى الحملة الدعائية. وسواء أوافق الناس أو لم يوافقوا – وأعرف أنه لا يوجد أحد ممن فى هذه الغرفة الآن موافق علي "كل" ما أقول – ولكننى على الأقل أجعلهم يفكرون . أنا على الأقل أذكرهم بواجبهم . هذا الذى نعيش فيه بلد ديمقراطى، لقد حاربنا من أجل ذلك ، وعلينا جميعا أن نقوم بدورنا".

قالت "مسز سميش" : أنا أتساءل ... ماذا كان يمكن أن يحدث للدكتور "كارلسلى"؟ أعتقد أن سيادته كان لابد من أن يشارك بحديث مثقف!". وضحك الجميع مرة أخرى .

قلت : الحقيقة أنه بالرغم من متعة التقائى بكم جميعا، لابد من أن أعترف بأننى بدأت أشعر بالإرهاق الشديد ...

قالت "مسز تيلور" : بالتأكيد ياسيدى .. لابد من المؤكد أنك

مرهق، ويبدو من الضروري أن أحضر بطانية أخرى لك فالوقت يزداد برودة ليلاً" .

" لا داعي يا "مسز تيلور" .. شكرا .. كل شيء سيكون مريحا". وقبل أن أقوم من مكاني قال مستر مورجان" :

"أتساءل يا سيدي إن كنت قد التقيت ذات يوم بشخص اسمه "ليزلي ماندريك"، نحب أن نستمع دائما إلى أحاديثه الإذاعية"

قلت إنني لم أقابله ، وكنت على وشك القيام بمحاولة أخرى للانسحاب لكنني وجدت نفسي محاصرا بتساؤلات أخرى عن أشخاص كثيرين قد أكون قابلتهم. وكنت لا أزال جالسا على الطاولة عندما قالت "مسز تيلور" : آه ... هناك شخص ما قادم ..! أعتقد أن الطبيب قد وصل أخيرا .."

قلت : "الحقيقة أنني لابد من أن أقوم؛ فأنا في غاية التعب".

قالت "مسز سميث" : "لكنني متأكدة أنه الطبيب ... انتظر قليلا ياسيدي". وبمجرد أن قالت ذلك سمعنا طرقة على الباب وصوتا يقول : "أنا يا مسز تيلور!"

الرجل الذي دخل علينا كان في مقتبل العمر - ربما في الأربعين مثلا - طويل القامة، نحيلا ، فارع الطول لدرجة أنه اضطر للانحناء لكي يدخل من الباب . وبمجرد أن ألقى التحية "مســاء الخير جميعا" ، قالت

"مسز تيلور" : "هذا هو ضيفنا الكريم يا دكتور . تعطلت سيارته على تل "ثورنلى بوش"، ونتيجة لذلك كان عليه أن يتحمل خطب "هارى" . تقدم الطبيب إلى الطاولة ومد يده ليصافحنى وبينما أنا واقف قال : "ريتشارد كارلسلى"، ما حدث لسيارتك هو سوء حظ بالتأكيد يا سيدى، لكننى أثق أنك تلقى هنا كل رعاية. اهتمام جيد فيما أظن !"

"شكرا جزيلا، الحقيقة إنهم كلهم هنا فى غاية الكرم واللطف" .

"شىء جميل أن تكون معنا .." وجلس الدكتور "كارلسلى" فى مواجهتى على الطاولة "من أى منطقة من البلاد أنت يا سيدى؟"

قلت "من أوكسفورد شاير"، وكان من الصعب علىّ بالطبع ألا أردف العبارة بكلمة "ياسيدى".

"ذلك جزء جميل جدا من البلاد . لى عم يعيش خارج أوكسفورد، وهو مكان رائع..."

قالت "مسز سميث" : "الجنتلمان كان يحكى لنا يا دكتور أنه يعرف مستر تشرشل" .

"حقا ؟ كنت أعرف واحدا من أبناء إخوته ولكن صلتنا انقطعت . بيد أننى لم أحظ بلقاء ذلك الرجل العظيم" . ثم واصلت "مسز سميث" كلامها : وليس "مستر تشرشل" فقط، إنه يعرف " مستر إيدن" و"لورد

هاليفاكس":

«حقاً؟»

لاحظت أن عيني الطبيب تتفحصاني جيداً، وكنت على وشك أن أقول شيئاً ملائماً ، وقبل أن أنطق قال مستر "آندروز" للطبيب: "الجنتلمان كان يحكي لنا الآن أنه كانت له صلة قوية بالشئون الخارجية في زمنه"

«حقاً؟»

بدا لي أن الدكتور "كارلسلي" كان يمعن النظر إليّ لفترات طويلة، ثم استعاد مرحه ليقول:

«أنت في جولة للفسحة؟!»

"نعم ! هذا هو السبب الأساسي" ، وضحكت .

"توجد هنا مناظر كثيرة جميلة. لكن بالمناسبة يا "مسترآندروز" ... أنا آسف لأنني لم أُعِدّ المنشار إليك"

"لا داعي للعجلة يا دكتور"

انتقل التركيز من عليّ إلى أشياء أخرى لفترة، واستطعت أن أبقى صامتا. ثم انتهزت مابدا لي لحظة مواتية وقمت من مكاني وأنا أقول : أستأذنكم ، كان مساء جميلا بالفعل ، إلا أنني لابد من أن أذهب للنوم"

قالت "مسز سميث" : "من أسف أن تتركنا وتذهب للنوم ، فالدكتور قد وصل لتوه ولم تجلس معه طويلا"

مال "مستر هارى سميث" عبر زوجته وقال للدكتور "كارلسلى" : "كنت أتمنى أن أسمع رأى "الجنتلمان" فى أفكارك عن الإمبراطورية يا دكتور" ، ثم التفت نحوى قائلا:

"طبيبنا مع استقلال الدول الصغيرة وأنا ليس لدى علم كاف لكى أثبت له خطأ ذلك رغم معرفتى أنه خطأ. ويهمنى جدا أن أسمع رأى أمثال سيادتكم فى هذا الموضوع.

ومرة أخرى كان الدكتور "كارلسلى" يحدق فىَّ ويتأملنى ثم قال : "للأسف ! لابد من أن ندع الجنتلمان يخلد إلى النوم، فقد كان يومه مرهقا على ما أعتقد". وبابتسامة صغيرة أخرى بدأت أشق طريقى حول الطاولة وأربكنى أن أجدهم جميعا قد وقفوا بمن فيهم الدكتور "كارلسلى". قلت مبتسما : "شكرا لكم جميعا ، لقد استمتعت بعشاء طيب يا "مسز تيلور" : تصبحون على خير جميعا!" ردوا كلهم فى صوت واحد "تصبح على خير" .

قبل أن أبرح الغرفة استوقفنى صوت الدكتور عند الباب . قال عندما التفت إليه "أقول .. غدا صباحا عندى موعد لزيارة مريض فى "ستانبرى"، ويسرنى أن أقوم بتوصيلك إلى مكان سيارتك وأوفر عليك

المشوار . كما يمكننا أن نأخذ صفيحة بترول من محطة "تيدهاردكير" في طريقنا"

"هذا لطف كبير منك يا سيدي ولكنني لا أريد أن أزعجك".

ليس هناك إزعاج على الإطلاق. هل السابعة والنصف موعد مناسب لك؟"

"هذا سيكون مناسبا جدا في الحقيقة"

"اتفقنا ! السابعة والنصف . وأنت يا "مسز تيلور" تأكدي أن ضيفك سيكون قد استيقظ، وتناول إفطاره، واستعد في السابعة والنصف". ثم عاد إليّ ليقول : "ثم إننا يمكننا أن نتكلم بعد ذلك. بالرغم من أن "هاري" كان يتمنى أن يشهد هزيمتي!"

ضحكنا كلنا ، ومرة أخرى تبادلنا "تصبح على خير" قبل أن يتركوني في النهاية أصعد إلى ملاذي في هذه الغرفة .

أعتقد أنني لابد من أن أؤكد مدى شعوري بعدم الارتياح هذه الليلة بسبب سوء فهم شخصيتي. كل ما أستطيع أن أقوله الآن – وبكل أمانة– إنني لا أعرف كيف كان يمكن أن أمنع تطور الأمر على النحو الذي حدث ، لأنني عندما تنبهت لم أكن لأستطيع أن أطلعهم على الحقيقة دون إحداث كثير من الحرج للجميع. على أية حال، بالرغم من كل ما حدث – وهو مؤسف بلاشك – إلا أنني أرى أنه لم يحدث ضرر حقيقي. فأنا سأودع أولئك الناس غدا في الصباح، وربما لن نلتقي بعد

ذلك أبدا . وليس ثمة دا ع للتفكير طويلا فى هذا الموضوع .

وبصرف النظر عن سوء الفهم الذى حدث ، إلا أن هناك جانبا أو جانبين يجدر التفكير بهما ولو لدقائق ، وربما لأنهما قد يشغلانى فى الأيام القادمة. هناك مثلا رأى "مستر هارى سميث" فى موضوع الكرامة". هناك ، بالقطع ، فى بعض أقواله ما يستحق الاهتمام. ولابد طبعا من القول إن "مستر سميث" كان يستخدم كلمة "الكرامة" بمعنى مختلف تماما عن فهمى لها. وحتى بفهمها على نفس المحمل ، إلا أن أقواله كانت شديدة المثالية . نظرية جدا ، ولا تستحق الاحترام. هناك ، بلاشك ، بعض الحقيقة فيما يقول ولكن فى حدود : ففى بلاد مثل بلادنا ربما يكون من واجب الناس أن يفكروا فى القضايا الكبرى ليكونوا رأيا. ولكن لأن الحياة هكذا .. كما هى ..

فكيف يمكن أن نتوقع من الناس العاديين أن يكّونوا آراء مهمة" فى كل القضايا - كما يزعم ، حالما، "مستر سميث" بقوله إن القرويين هنا يفعلون ذلك؟ وليس فقط لأن ذلك غير واقعى ، بل إننى أشك فى أن يكون ذلك رغبة حقيقية ! هناك حدود فعلية لما يمكن أن يعرفه ويدركه كثير من الناس العاديين ، وليس من الحكمة أن نطلب من كل منهم أن يسهم بآراء مهمة فى قضايا البلاد الخلافية. ومن العبث على أية حال أن يحاول أحد تعريف كرامة المرء طبقا لهذه الشروط. إلا أن هناك مثالا

يحضرنى وأعتقد أنه يصور بشكل جيد الحدود الحقيقية للصدق الذى يمكن أن يكون موجودا فى آراء "مستر هارى سميث" . وهو مثال من واقع تجربتى، ويرجع تقريبا إلى عام ١٩٣٥ ، قبل الحرب .

أذكر أننى كنت قد استدعيت ذات ليلة فى وقت متأخر - كان ذلك بعد منتصف الليل - إلى غرفة الاستقبال حيث كان سيادة "اللورد" يحتفى بثلاثة من أصدقائه ... وكانوا جالسين بعد العشاء . كنت - بالطبع - قد استدعيت إلى غرفة الاستقبال عدة مرات فى تلك الليلة لتقديم المشروبات ولاحظت فى كل مرة أنهم كانوا منهمكين فى حوار حول قضايا بالغة الأهمية . وعندما دخلت الغرفة فى آخر مرة كفوا كلهم عن الكلام ونظروا إلىّ. حينذاك قال سيادته : لحظة يا "ستيفنس" من فضلك ... اقترب ... "مستر سپنسر" يود أن يتحدث معك". بقى "مستر سپنسر" يحدق فىّ لحظة ، دون أن يغير من جلسته المسترخية، ثم قال

"أيها الرجل الطيب ... عندى سؤال لك. نحن نحتاج مساعدتك فى أمر كنا نتناقش فيه . قل لى .. هل تعتقد أن موقف الديون الخاصة بأمريكا ، سبب مهم فى تدنى مستوى التجارة الآن ؟ أم تراه شيئا لصرف الانتباه، وأن التخلى عن قاعدة الذهب هو لب المشكلة ؟!"

كنت ، بالطبع، قد فوجئت بذلك إلى حد ما ، ولكن سرعان ما استوعبت الموقف كما كان ....، أى أننى كنت فى حيرة بسبب السؤال، وهذا أمر متوقع. وفى اللحظة التى مرت كى ألاحظ ذلك وأعد إجابة مناسبة ، ظهر علىّ الارتباك لأننى رأيت جميع من فى الغرفة يتبادلون ابتسامات سعيدة .

قلت : معذرة يا سيدى ، لا أستطيع أن أكون مفيدا فى هذا الشأن." والآن كنت فوق الموقف. لكن السادة استمروا فى الضحك على نحو غامض، وحينذاك قال "مستر سپنسر" : "لعلك تستطيع إذن أن تساعدنا فى أمر آخر . هل ترى أن مشكلة النقد فى انجلترا يمكن أن تتحسن أم تسوء أكثر لو عقدت اتفاقية سلاح بين الفرنسيين والبلشفيك؟"

"معذرة يا سيدى ! لا أستطيع أن أكون مفيدا فى هذا الشأن!"

قال "مستر سپنسر" .. "يا إلهى ! ، لا يمكنك أن تساعد فى ذلك أيضا؟"

وكان هناك المزيد من الضحك المكتوم قبل أن يقول سيادة "اللورد" : "حسن يا ستيڤنس ! هذا هو كل شىء"

قال "مستر سپنسر": عفوا يا دارلنجتون ، عندى سؤال آخر لهذا الرجل الطيب . أنا فى مسيس الحاجة لمساعدته لنا فى موضوع يؤرق معظمنا فى الوقت الراهن . موضوع نعرف كلنا أنه مهم وحاسم فى

رسم سياستنا الخارجية . ساعدنا يا عزيزى! ماذا كان "مستر لاڤال" يقصد فعلا بحديثه الأخير عن الوضع فى شمال إفريقيا؟ هل ترى أنت أيضا أن ذلك ليس سوى خدعة أو كمين للآراء الوطنية المتطرفة فى حزبه؟"

"معذرة يا سيدى ! لا أستطيع أن أكون مفيدا فى هذا الأمر".

وهنا قال "مستر سپنسر" موجها كلامه للآخرين : "أرأيتم أيها السادة؟ رجلنا لا يمكنه أن يساعدنا فى هذه الأمور".

وجلب ذلك مزيدا من الضحك المعلن هذه المرة . ثم واصل "مستر سپنسر" كلامه : مازلنا مصرين على أن قرارات هذه الدولة لابد من أن تترك فى أيدى أمثال هذا الرجل الطيب وغيره من الملايين . هل هناك أى غرابة - ونحن مثقلون بنظامنا البرلمانى الحالى - فى أن نكون عاجزين عن إيجاد حل .... أى حل ، لمشاكلنا الكبرى ؟ لماذا لا تطالبون بأن تقوم لجنة من نقابة الأمهات بتنظيم حملة؟"

وهذه المرة كان الضحك كثيرا على ملاحظته الأخيرة ، وقال سيادة "اللورد" بصوت خافت : "شكرا ياستيڤنس" ، فانصرفت . وبينما كان ذلك موقفا غير مريح بالنسبة لى، إلا أنه كان أصعب موقف أو لعله الأكثر غرابة على مدى سنوات خدمتى . ولابد من أنك ستوافقنى على أن أى مهنى محترف لابد من أن يتوقع أشياء كتلك فى مسيرته.

وفى الصباح التالى كنت قد نسيت ذلك كله عندما جاء "لورد دارلنجتون" إلى غرفة البلياردو وكنت واقفا على السلم أنفض الغبار عن بعض الصور. قال : "كان شيئا مروعا يا"ستيفنس" ، ذلك الامتحان الصعب الذى عرضناك له ليلة الأمس".

توقفت عما كنت أفعله وقلت : "لا ... أبدا ياسيدى ! كان بودى أن أكون مفيدا!"

"كان شيئا مزعجا . يبدو أننا كنا قد تناولنا عشاء دسما أكثر من اللازم .. أرجو أن تقبل اعتذارى"

"شكرا جزيلا ياسيدى ، وأنا أؤكد لسيادتك أننى لم أنزعج على الإطلاق".

سار سيادته متثاقلا وجلس على مقعد قريب وهو يتنهد . ومن مكانى على السلم كنت أرى هيئته بكاملها فى ضوء شمس الشتاء المتدفق من النوافذ الكبيرة ، والذى كان يخطط أرض الغرفة .

كانت تلك إحدى اللحظات التى بينت لى أثر ضغوط الحياة على سيادته فى ظرف سنوات قليلة. قوامه الذى كان ممشوقا ورشيقا ضمر بدرجة مخيفة ، وأصابته بعض تشوهات . رأسه اشتعل شيبا قبل الأوان، وأصبح وجهه متجهما ومهزولا . جلس فترة يحدق من النوافذ الواسعة فى اتجاه التلال ثم قال : "كان شيئا مرعبا بالفعل. لكن كما

رأيت يا "ستيفنس" فإن "مستر سپنسر" كان يريد أن يثبت شيئا لـ "سير ليونارد". والحقيقة أن العزاء الوحيد هو أنك ساعدت فى توضيح نقطة مهمة جدا . كان "السير ليونارد" يتكلم كثيرا عن ذلك الهراء القديم. وهو أن إرادة الشعب هى المحك ... وهكذا! هل تصدق ذلك يا ستيفنس؟!"

"نعم يا سيدى"

"نحن هنا فى هذا البلد نكتشف ببطء شديد جدا أن الأشياء قد أصبحت قديمة. الدول العظمى الأخرى تعرف أنها لكى تواجه التحديات الجديدة لابد لها من أن تنبذ القديم، وأحيانا يكون فى ذلك القديم أشياء محبوبة. ولكن هذا لا يحدث فى بريطانيا. مازال هناك كثيرون ممن يتكلمون مثل "سير ليونارد" بالأمس ، ولذلك شعر "سير سپنسر" بضرورة توضيح وجهة نظره. وأنا أقول لك يا "ستيفنس" إننا إذا تركنا أمثال "سير ليونارد" يفيقون ويفكرون قليلا ، ستعرف أن الامتحان الذى عرضناك له ليلة الأمس لم يكن هباء ، كما قلت لك" .

"بالفعل يا سيدى!"

تنهد "لورد دارلنجتون" مرة أخرى : "نحن آخر الناس دائما يا "ستيفنس"! آخر من يظلون متعلقين بالنظم البالية، لكن عاجلا أو آجلا سيكون علينا أن نواجه الواقع". الديمقراطية شىء ينتمى لمرحلة

ماضية، منقضية! العالم اليوم أصبح مكانا معقدا للاقتراع العام وما شابه ذلك. أعداد لا حصر لها فى البرلمان يتجادلون من أجل تجميد الأشياء وإبقائها على ماهى عليه . كان ذلك منذ سنوات قليلة ... لكن الآن ... فى عالم اليوم ؟ ماذا قال "مستر سپنسر" ليلة أمس؟ لقد عبر عن ذلك جيدا"

"أعتقد ياسيدى أنه شبَّه النظام البرلمانى الحالى بلجنة من نقابة الأمهات تحاول أن تنظم حملة!"

"بالضبط يا "ستيڤنس" . نحن فى هذه البلاد متخلفون عن العصر. ولابد لكل من يتطلع للمستقبل من أن يفرض ذلك على أمثال "سير ليونارد".

"نعم يا سيدى!"

"دعنى أسألك يا "ستيڤنس" . نحن الآن فى خضم أزمة مستمرة. رأيت ذلك بعينى عندما ذهبت إلى الشمال مع "مستر ويتاكر". الناس يعانون. الناس العاديون ، البسطاء يعانون بشدة. الألمان والإيطاليون رتبوا بيوتهم بالعمل. وكذلك «البلشڤيك» التعساء رتبوها على طريقتهم الخاصة. أعتقد ذلك . حتى الرئيس "روزفلت"، انظر إليه... إنه لا يخش اتخاذ بعض الخطوات الحاسمة نيابة عن شعبه .. لكن انظر إلينا هنا ! عام يمر وراء عام ولا شيء يتحسن . كل ما نفعله هو الجدل والنقاش.

أي فكرة جيدة تموت بتمريرها على لجان، والقلة المؤهلة لمعرفة ما ينبغي عمله تصمت نتيجة كثرة كلام الجهلاء المحيطين بهم . ماذا تفهم من ذلك كله يا "ستيفنس؟"

"الدولة في حالة يرثى لها يا سيدي!"

"أقول ... انظر إلى ألمانيا وإيطاليا يا "ستيفنس"، انظر ماذا يمكن أن تفعل القيادة القوية عندما يسمح لها بالعمل .

ليس لديهم ذلك الهراء المسمى بالاقتراع العام. إذا شب حريق في منزلك فإنك لن تستدعي الموجودين لديك في غرفة الاستقبال لكي تناقشوا على مدى ساعة الخيارات المختلفة للهرب . أليس كذلك؟ قد يكون ذلك جيداً في وقت ما، لكن العالم أصبح مكانا في غاية التعقيد . إنك لن تتوقع من رجل الشارع أن يعرف الكثير في مجال السياسة والاقتصاد والتجارة العالمية وما إلى ذلك .

والحقيقة أنك أعطيت إجابة جيدة جدا ليلة أمس يا "ستيفنس" . كيف عَبَّرت عن ذلك؟ ربما قلت مامعناه إنه شيء خارج نطاق اهتمامك . حسن ! ولماذا يكون أصلا في نطاق اهتمامك؟" عندما أتذكر تلك الكلمات، تبدو معظم أفكار "لورد دارلنجتون" غريبة، وربما غير جذابة، ولكنني لا أنكر أن هناك قدرا من الحقيقة في تلك الأشياء التي قالها لي ذلك الصباح في غرفة "البلياردو". من العبث - بالطبع - أن يتوقع أحد

من رئيس خـدم أن يتـمكن من الإجـابة عن أسـئلة من ذلك النوع الذى وجهه إلىّ "مستر سپنسر" فى تلك الليلة. دعنى أوضح شيئا: وظيفة رئيس الخدم هى أن يقدم خدمة جيدة ، وليس أن يتدخل فى الشئون العليا للدولة. والحقيقة أن مثل تلك الشئون العليا ستكون فوق مستوى فهم أمثالك وأمثالى ، ومن يريد أن يترك أثرا مفيدا لابد من أن يدرك أن أفضل ما يمكن أن يقدمه لذلك، هو التركيز على ما هو فى مجالنا. أى بتكريس كل الجهد والاهتمام من أجل تقديم أفضل خدمة ممكنة لأولئك السادة الذين يملكون تقرير مصير الحضارة بالفعل. قد يبدو ذلك واضحا ، إلا أن المرء سيتذكر كثيرين من رؤساء الخدم الذين كان لهم رأى مختلف . والحقيقة أن كلمات "مستر هارى سميث" الليلة، تذكرنى جيداً بتلك المثالية الضالة التى انتابت قطاعات كبيرة من جيلنا فى العشرينيات والثلاثينيات. أنا أشير إلى ذلك التوجه الذى كان يرى أن أى رئيس خدم لديه طموح جاد، لابد من أن يكون من صميم عمله تقييم الشخص الذى يعمل لديه بشكل دائم ، أن يتفحص دوافعه، ويحلل مضامين أفكاره. وبهذه الطريقة فقط - كما كان يقال - يمكن للواحد منا أن يتأكد من أن مهاراته تستخدم من أجل هدف مطلوب. وبالرغم من أن المرء يمكن أن يتعاطف مع المثالية المتضَمَّنة فى هذا الرأى، إلا أنها قد تكون نتيجة تفكير غير سليم ، مثل أفكار "مستر سميث" هذه الليلة .

يجب على الواحد منا أن ينظر إلى رؤساء الخدم الذين حاولوا تطبيق هذا التوجه ، وسيرى أن جهودهم انتهت إلى لاشىء. لقد عرفت اثنين على الأقل من هذا النوع . كلاهما كان لديه بعض القدرات. كانا يتنقلان من مخدوم لآخر، ولم يشعرا أبدا بالرضا، لم يستقرا فى مكان واحد إلى أن اختفيا عن الأنظار تماما. حدوث شىء من ذلك القبيل ليس أمرا مفاجئا أو مدهشا بالمرة . لأن من المستحيل ، من الناحية العملية، تبنى موقف نقدى كذلك تجاه صاحب عمل مع تقديم خدمة جيدة فى الوقت نفسه. ليس فقط لأن المرء لن يكون قادرا على متطلبات الخدمة فى المستويات العليا، وإنما أيضا لأن اهتماماته تتغير باستمرار بسبب ذلك. وبشكل أساسى ، فإن رئيس الخدم الذى يحاول دائما أن يقدم آراء قوية فى شئون مخدوميه، من المحتمل أن يفقد صفة أساسية من صفات المحترفين الأكفاء ، أقصد صفة الوفاء. وأرجو ألا تسىء فهمى فى هذه النقطة. أنا لا أقصد ذلك الوفاء الأخرق الذى يتحسر المتوسطون من المخدومين على عدم وجوده عندما يفشلون فى الاحتفاظ بخدمات محترفين من الطراز الأول . والحقيقة أننى سأكون آخر من يدافع أو يمنح وفاءه هكذا بإهمال لأى سيد أو سيدة أعمل عنده أو عندها. على أية حال، إذا كان رئيس الخدم جديرا بأى شىء أو بأى شخص فى الحياة ، فلابد من أن يجىء وقت يتوقف فيه عن البحث ، وقت يقول فيه لنفسه : "هذا الشخص الذى أعمل لديه يجسد كل ما أراه

نبيلا وجميلا. ولذلك سوف أكرس كل جهدى لخدمته" . هذا هو الوفاء الممنوح بذكاء. ما هو العيب فى ذلك ؟ المرء يقبل حقيقة لا مفر منها ، وهى أن أمثالك وأمثالى لن يكون بإمكانهم أن يفهموا الأمور الكبرى فى العالم، ومسارنا الأفضل هو أن نضع ثقتنا دائما فى مخدوم نراه عاقلا وشريفا، وأن نكرس كل جهدنا لخدمته بقدر الاستطاعة. انظر مثلا إلى "مستر مارشال" ، أو "مستر لين" من المؤكد أنهما من أعظم الرجال فى مهنتنا . هل يمكن أن نتصور أن " مستر مارشال" يمكن أن يجادل "لورد كامبرلى" حول رسالته الأخيرة لوزارة الخارجية؟ وهل يمكن أن نعجب بـ "مستر لين" إذا علمنا أنه لا يتحدى "سير ليونارد جراى" قبل كل حديث له فى مجلس العموم؟ ، نحن لا نفعل ذلك طبعا. فما هو العيب، أو المخجل فى ذلك؟ هل فى هذا التوجه ما يستحق اللوم؟ كيف يمكن أن نلوم شخصا ما – بأى معنى – لأن الوقت قد أثبت أن مساعى "لورد دارلنجتون" كانت مضللة أو حتى غبية؟ على مدار السنوات التى خدمته فيها كان هو ... وهو فقط ... الذى يزن الأمور ويرى الاستمرار فى الوجهة التى اتخذها ، بينما كنت أكرس أنا كل جهدى لخدمته ... وفى إطار مهنتى. وعلى قدر ما يخصنى، فإننى كنت أؤدى واجبى بكل ما أملك من طاقة، وبالمستوى الذى كان يعتبره الكثيرون رفيعا. أما إذا كانت حياة سيادته تبدو اليوم وكأنها ضاعت، ويبدو جهده وكأنه قد تبدد سدى، فذلك ليس خطئى. وليس من المنطقى أن أشعر – من جانبى– بأى ندم أو خجل .

اليوم الرابع - بعد الظهر

ليتل كومتون - كورنوول

أخيرا ، وصلت إلى "ليتل كومتون"، والآن ... أنا جالس فى قاعة الطعام فى فندق "روز جاردن" بعد أن انتهيت من تناول غدائى. المطر مستمر بغزارة فى الخارج . وبالرغم من أن الفندق ليس فخما ، إلا أنه بسيط ومريح ويستحق ما يتحمله المرء من تكلفة إضافية هنا. وهو يقع فى مكان مناسب فى أحد جوانب ساحة القرية ، بناء مغطى باللبلاب يمكن أن يستوعب ثلاثين نزيلا . أما قاعة الطعام التى أجلس فيها الآن فهى عبارة عن ملحق حديث البناء بجوار المبنى الرئيسى ، قاعة طويلة مستوية يميزها صفان من النوافذ الضخمة على كلا الجانبين . من ناحية، يمكن رؤية ساحة القرية ، ومن الناحية الأخرى تبدو الحديقة الخلفية التى استمد منها المبنى اسمه . فى الحديقة المحمية جيدا من الرياح، يوجد عدد من الطاولات المرصوصة بشكل منظم ، وعندما يكون الطقس معتدلا، أعتقد ، أن المكان هنا يصبح جميلا لتناول الوجبات أو المشروبات. أعرف أن بعض النزلاء كانوا قد جلسوا لتناول غدائهم قبل قليل، ولم يقطع عليهم متعتهم سوى الهبوب المفاجئ لعواصف رعدية شديدة .

عندما جئت إلى هنا منذ ساعة تقريبا ، كان العاملون يجمعون أغطية

الطاولات– بينما كان شاغلو المكان ومنهم واحد مازالت الفوطة مشبوكة في قميصه، يقف في حيرة وذهول. بعد ذلك هطل المطر بشدة وغزارة لدرجة أن الجميع توقفوا عن الأكل وراحوا يحدقون من النوافذ .

الطاولة التي أجلس عليها تقع في الجانب المطل على ساحة القرية ، ولذا قضيت معظم الساعة الماضية في مراقبة المطر المتساقط على الساحة، وعلى السيارة "الفورد" وسيارتين أخريين كانتا في الخارج. المطر هدأ قليلا الآن، ولكن ليس للدرجة التي تغري أحدا بالخروج لكي يجول في القرية. فكرت – في الواقع – في الخروج لمقابلة "مس كنتون"، ولكن بما أنني كنت قد كتبت لها في رسالتي أنني سأزورها في الثالثة ، فلم أشأ أن أذهب قبل الموعد الذي حددته . وإذا لم يتوقف المطر ، فمن المحتمل أن أبقى هنا لأشرب الشاي إلى أن يحين الوقت الملائم للخروج. تأكدت من السيدة الشابة التي قدمت لي الغداء أن العنوان الذي تقيم فيه "مس كنتون" على بعد مسيرة خمس عشرة دقيقة من هنا ، وهذا معناه أن أمامي أربعين دقيقة أخرى أقضيها هنا .

لابد من القول إنني لست من الحماقة بحيث لا أتوقع خيبة أمل أخرى، فأنا أعلم جيدا أنني لم أتلق ردا من "مس كنتون" تؤكد فيه استعدادها للقائي . وأعلم أيضا أن "مس كنتون" لابد من أن تكون قد تصورت أن عدم ردها يعني الموافقة. ولو أن اللقاء لا يناسبها أو كان

غير مريح بالنسبة لها لما ترددت هي في أن تبلغني. بالإضافة إلى أنني قلت لها في رسالتي إنني قد حجزت في هذا الفندق وإنها يمكن أن تبلغني بأي شيء في اللحظة الأخيرة. ولكن، لأنني لم أتلق منها شيئا بهذا المعنى أعتقد أن الأمور تسير على ما يرام .

المطر الغزير هذا جاء مفاجئا ، فالنهار كان قد بدأ بصباح مشرق مثل جميع الأيام السابقة منذ مغادرة "دارلنجتون هول". والحقيقة أن اليوم بدأ بإفطار جيد : بيض طازج من المزرعة وخبز مقمر قدمته لي "مسز تيلور" ، وبزيارة من "الدكتور كارلسلي" في السابعة والنصف كما وعد ، واستطعت أن أودع أسرة "تيلور" الذين واصلوا رفضهم للاستماع إلى أي كلام عن مكافأتهم .

قال لي الدكتور "كارلسلي" : "لقد أحضرت لك صفيحة بترول"، وهو يرشدني إلى مقعدي في سيارته "الروفر". شكرت له اهتمامه، وعندما سألته عن كيفية دفع ثمنها وجدت أنه أيضا لايريد أن يستمع إلى شيء من ذلك .

"هذا شيء بسيط يا رجل ، شيء بسيط جدا ! لقد وجدتها عندي في الجراج وأعتقد أنها ستكفيك للوصول إلى "كروسبي جيت"، وهناك يمكن أن تملأ سيارتك بالوقود". وسط القرية في "موسكومبي" تغمره شمس الصباح الساطعة . وهو عبارة عن مجموعة من المحلات الصغيرة حول

كنيسة ... الكنيسة التى كان يلوح لى برجها العالى من التل مساء أمس. لم تكن هناك فرصة كافية للتعرف على القرية لأن الدكتور "كارلسلى" سار بنا عبر طريق فرعية. "طريق مختصرة" ، قال ذلك ونحن مارون بحظائر ماشية ومعدات وآلات زراعية . لم يظهر هناك بشر فى أى مكان ، وعندما وجدنا أنفسنا أمام بوابة مغلقة قال الطبيب : "عفوا يا صديقى! تقدم ... من فضلك!"

نزلت من السيارة واتجهت نحو البوابة وسرعان ما هب نباح جماعى من إحدى الحظائر المجاورة لدرجة أننى عدت مسرعا إلى الطبيب الذى كان يقف أمام سيارته . تبادلنا قليلا من المزاح ونحن نتسلق طريقا ضيقة بين الأشجار ، سألنى كيف قضيت ليلتى عند "آل تيلور" ، ثم قال فجأة :

"أرجو ألا تعتبرنى قليل الذوق ... هل تعمل فى مجال الخدمة ؟ مثلا... هل أنت خادم؟"

لابد من أن أعترف هنا بأننى قد انتابنى شعور بالارتياح . "أنا هكذا بالفعل ياسيدى! رئيس خدم فى "دارلنجتون هول" بالقرب من أوكسفورد" .

"توقعت ذلك . ما قلته عن مقابلة "ونستون تشرشل" مثلا. قلت لنفسى ربما كان الرجل يحاول أن يقلل من شأن نفسه، ثم طرأ على ذهنى

تفسير آخر .. بسيط " واستدار الدكتور "كارلسلى" نحوى مبتسما وهو يواصل توجيه سيارته على الطريق الصاعدة الملتوية . قلت : أنا لم أقصد أبدا أن أخدع أحدا ياسيدى!"

قال : "لا ! لا ! لا داعى للشرح ياصديقى . أستطيع أن أفهم كيف حدث ذلك . أمثال أولئك الناس هنا ... يتصورون أنك لابد من أن تكون "لوردا" أو "دوقا" .. على الأقل".

ثم ضحك وقال : "قد يكون مفيدا للمرء أن يتصوره الآخرون "لوردا" أحيانا".

واصلنا سيرنا بعد ذلك فى صمت لدقائق قليلة ، ثم قال "أتمنى أن تكون قد استمتعت بإقامتك القصيرة معنا هنا" .

"جدا ! شكرا جزيلا يا سيدى!"

"كيف ترى مواطنى "موسكومبى" . ليسوا سيئين فيما أظن!" "أناس طيبون "، "وجذابون ياسيدى ، "لقد كان ""مستر ومسز تيلور" فى منتهى اللطف والكرم"

"أرجو ألا تخاطبنى بكلمة "ياسيدى" هكذا طوال الوقت يا "مستر ستيفنس". على أية حال الناس هنا ليسوا سيئين ، وأنا أتمنى أن أمضى بقية حياتى هنا".

أعتقد أننى قد سمعت شيئا غريبا إلى حد ما فى الطريقة التى قال

بها الدكتور "كارلسلى" ذلك . وكان الانفعال واضحا عندما واصل تساؤله مرة أخرى :

"وجدتهم إذن جماعة جذابين .. هه !؟"

"نعم يا دكتور . متجانسون ومتآلفون ".

"ماذا كانوا إذن يقولون لك ليلة أمس؟ أرجو ألا يكونوا قد أزعجوك بثرثرتهم عن القرية!"

"لا يا دكتور ، الحقيقة أن المناقشة كانت ودية جدا، واستمعنا خلالها إلى كثير من الآراء والأفكار المهمة" .

"تقصد"هارى سميث"، قال الدكتور وهو يضحك . "لا تشغل بالك به ، حين تستمع إليه يبدو مسليا لفترة قصيرة ، يبدو مهما ، والحقيقة أنه مُشَوَّش الذهن . أحيانا تظنه شيوعيا، ثم فجأة يخرج عليك بشيء يوحى بأنه محافظ ، مقاوم للإصلاح . إنه بالفعل شخص مشوش الذهن".

"ما تقوله يا دكتور......."

"عم كانت محاضرته لك ليلة أمس؟ الإمبراطورية ؟ الصحة العامة؟"

"كان "مستر سميث" يتحدث فى موضوعات عامة"

"مثل ماذا؟"

سعلت وقلت : "كانت له آراء عن طبيعة "الكرامة". "هكذا ! يبدو ذلك

موضوعا فلسفيا بالنسبة لـ "هارى سميث" .

وكيف وصل ذلك الشيطان إلى موضوع كهذا؟"

"أعتقد أن مستر "هارى سميث" كان يؤكد على أهمية حملته الدعائية فى القرية".

"نعم.! نعم!" .

"كان يريد أن يوضح لى أن أهالى "موسكومبى" لديهم أفكار مهمة حول جميع الأمور".

"ذلك هو "هارى سميث" حقيقة؛ وطبعا كما فهمت ... فإن ذلك كله هراء". "هارى" يحاول دائما أن يشغل الجميع بقضايا ، والحقيقة أن الناس يكونون سعداء إن نحن تركناهم فى حالهم".

ومرة أخرى صمتنا لحظة أو لحظتين ... ثم قلت أخيرا : "عفوا يا سيدى ! أرجو أن أسأل ... هل يمكن أن نعتبر "مستر سميث" شخصية هزلية؟"

"هه ! ولكن ذلك يأخذ المسألة إلى مدى أبعد . الناس هنا لديهم ضمير سياسى ما . يشعرون بأنه لابد من أن تكون لديهم آراء وأفكار قوية فى هذا وذاك كما يريد "هارى" أن يحثهم . ولكنهم فى الحقيقة لا يختلفون عن الناس فى أى مكان آخر . يريدون أن يعيشوا فى هدوء .

"هارى" لديه أفكار كثيرة عن تغيرات هنا وهناك، لكن لا أحد فى القرية يريد أى اضطراب أو فورة تغيير ... حتى وإن كان ذلك سيفيدهم . الناس هنا يريدون أن يتركوا فى حالهم . يعيشون حياتهم البسيطة .. لا يريدون إزعاجا بهذه القضية أو تلك".

دهشت للهجة الاشمئزاز التى اعترت صوت الدكتور ، لكنه استعاد هدوءه بسرعة ، وقال وهو يضحك :

"يبدو منظر القرية رائعا من الناحية التى تجلس فيها".

كانت القرية بالفعل تبدو من تحتنا، وكان ضوء الشمس يعطيها شكلا مختلفا . لكنه نفس المنظر الذى رأيته أول مرة فى كآبة المساء ، ولذا أدركت أننا كنا نقترب من المكان الذى تركت فيه السيارة "الفورد". قلت: "من رأى "مستر سميث" أن كرامة الشخص تعتمد على ما يكون لديه من آراء وأفكار مهمة ... مثلا !"

"نعم ..! "الكرامة" ... كدت أنسى . هكذا كان "هارى" إذن يحاول أن يعالج بعض التعريفات الفلسفية. اسمع كلمتى . كل ذلك هراء ... عفن !"

"ولكن استنتاجاته لم تلق إجماعا ياسيدى!"

هز الدكتور "كارلسلى" رأسه ولكنه بدا مستغرقا فى أفكاره ، ثم قال:" تعرف يا "مستر ستيفنس" ، عندما جئت إلى هنا فى البداية كنت اشتراكيا ملتزما . كنت مؤمنا بضرورة توفير أفضل الخدمات للجميع

... وأشيـاء أخرى من هذا القبيل . جئت إلى هنا لأول مرة في عام ١٩٤٩ . الاشتراكية تمكن الناس من العيش بكرامة. كانت تلك هي أفكاري عندما جئت إلى هنا . عفوا! لكنك لا تريد أن تستمع إلى كل هذا الهراء ." ثم التفت إليّ بمرح :" لكن ... ماذا عنك يا صديقي؟"

"عفوا ياسيدي!"

"ماذا تعتقد أن يكون معنى الكرامة؟"

وأعترف بأن مباشرة السؤال فاجأتني . قلت :"من الصعب أن أشرح ذلك بكلمات قليلة ياسيدي، وإن كنت أعتقد أنها تصل حتى إلى ألاَّ يخلع الإنسان ملابسه أمام الناس!"

"عفوا .. ماذا؟"

"الكرامة ياسيدي"

"آه" هز الدكتور رأسه ولكنه بدا متحيرا قليلا ، ثم قال : "والآن لابد من أن يكون هذا الطريق مألوفا لك ، ... قد يبدو مختلفا بعض الشيء بالنهار ... هل هي تلك التي هناك؟ يا إلهي ! يالها من سيارة فاخرة !!"

توقف الدكتور كارلسلي بسيارته خلف "الفورد" مباشرة . نزل وقال : يا إلهي! سيارة فخمة !!"

لحظة ، ثم أخرج قمعا وصفيحة بترول وكان مجاملا لدرجة مساعدتي في ملء خزان السيارة. بعد أن أدرت محرك السيارة ووجدت

صوته عاديا، تبددت مخاوفي من أن يكون هناك عطل آخر . شكرته ثم ودع كلانا الآخر، وكان لابد من أن أسير بسيارتي خلف سيارته "الروڤر" لمسافة ميل آخر تقريبا على طريق التل ، قبل أن تتفرق اتجاهاتنا. كانت الساعة التاسعة تقريبا عندما عبرت الحدود إلى "كورنوول" ، وكان ذلك قبل هطول الأمطار بثلاث ساعات تقريبا ، كما كانت السحب لا تزال بيضاء . والحقيقة أن معظم المناظر التي طالعتني هذا الصباح كانت رائعة ، وربما من أجمل ما شاهدت في حياتي .

ولسوء حظي لم يكن لدي ما يكفي من الوقت للانتباه إليها كما تستحق، فقد كنت – ولابد من أن أقول ذلك – مشغولا بفكرة مقابلة "مس كنتون" قبل أن ينتهي اليوم ، إلا إذا حدث أمر مفاجئ.

وأثناء سيري بالسيارة وسط الحقول الفسيحة أو عبر القرى الصغيرة الجميلة ، وجدت نفسي أعود مرة أخرى إلى ذكريات معينة من الماضي. حتى وأنا هنا في غرفة الطعام هذه ، وأنا جالس أراقب المطر المتساقط على أرصفة ساحة القرية في الخارج، لا أستطيع أن أمنع ذهني من الجولات في تلك المسارات .

على امتداد الصباح ، كانت هناك ذكرى معينة تشغلني، أو لعله طرف من ذكرى. لحظة ما ، ظلت حية بداخلي على مدى السنوات . هي ذكرى وقوفي وحيدا في الممر الخلفي أمام باب غرفة "مس كنتون" .

المغلق. لم أكن فى مواجهة الباب بالضبط ، وإنما كنت نصف مستدير تجاهه ، مترددا أن أطرقه . فى تلك اللحظة تصورت أن "مس كنتون" كانت خلف ذلك الباب ، على بعد خطوات قليلة منى ، وأنها تبكى . وكما أقول الآن ، فقد بقيت تلك الذكرى محفورة فى ذهنى كما بقيت أيضا ذكرى ذلك الشعور الغريب الذى انتابنى آنذاك .

على أية حال ، أنا لست متأكدا الآن من الظروف المحددة التى قادتنى لأن أقف هناك فى الممر الخلفى . وأحيانا أتصور وأنا أحاول أن أستعيد تلك الذكريات ، أن يكون ذلك قد حدث عندما تلقت "مس كنتون" نبأ وفاة عمتها ، وعندما تركتها وحيدة لحزنها ، وعندما أدركت أننى لم أقدم لها العزاء . ولكننى حين أفكر الآن بعمق أجد أننى ربما كنت مرتبكا بعض الشىء ، وأن ذلك الجزء من الذكرى ربما يكون قد استيقظ بسبب الأحداث التى وقعت ذات مساء بعد أشهر قليلة من وفاة عمتها ، ذلك المساء الذى ظهر فيه "مستر كاردينال" الأصغر فى "دارلنجتون هول" بشكل مفاجىء.

والد "مستر كاردينال" أو "السير ديفيد كاردينال" كان على امتداد عدة سنوات أقرب أصدقاء وزملاء سيادة "اللورد"، ولكنه كان قد مات فى حادث سيارة قبل ثلاث أو أربع سنوات من ذلك المساء الذى يحضرنى الآن . فى الوقت نفسه ، فإن "مستر كاردينال الأصغر" كان يصنع

لنفسه اسما ككاتب رأى تخصص فى التعليقات الساخرة التى تتهكم على الشئون الدولية . وواضح أن "مستر دارلنجتون" لم يكن مستريحا لتلك المقالات لأننى أتذكره عندما كان يترك الجريدة ويقول مثلا : "ها هو ذا "ريجى" الصغير يعود إلى كتابة مثل هذا الهراء مرة أخرى. الحمد لله أن والده ليس على قيد الحياة ليقرأ ذلك". لكن مقالات "مستر كاردينال" لم تمنعه من أن يكون زائرا دائما للقصر ، والحقيقة أن سيادة "اللورد" لم ينس أبدا أن الشاب كان ابنه الروحى، وكان يعامله دائما كأحد أقربائه . فى الوقت نفسه ، لم يكن من عادة "مستر كاردينال" أن يحضر على العشاء دون إخطار سابق . لذلك دهشت فى ذلك المساء ، عندما فتحت الباب لأجده أمامى يضم إليه محفظته الجلدية بكلتا يديه .

قال : "مرحبا ياستيفنس! كيف حالك . " حدث أن تعطلت الليلة بسبب كثافة المرور وفكرت أن أقضى الليلة هنا فى ضيافة "لورد دارلنجتون" .

"جميل أن نراك مرة أخرى ياسيدى ! سأبلغ سيادته بوجودك".

"الحقيقة أننى فكرت فى أن أقضى الليلة عند "مستر رولاند" لكن يبدو أن سوء فهم قد حدث ، اكتشفت أنهم خرجوا . كما أرجو ألا يكون هذا وقتا غير ملائم لحضورى. أقصد هل لديكم مناسبة خاصة مثلا هذه الليلة؟"

"أعتقد ياسيدى أن سيادة "اللورد" ينتظر ضيوفا بعد العشاء".

"هذا حظ سيِّيء! يبدو أننى لم أوفق فى اختيار الليلة، ولابد من أن أخجل من نفسى. على أية حال ، لدى أشياء أريد أن أكتبها هذه الليلة"،

قال وهو يشير إلى محفظته الجلدية.

"سأخبر سيادته بوجودك ياسيدى، وعلى أية حال فأنت قدجئت فى الوقت المناسب لكى تتناول العشاء معه".

"حسن ! لقد تمنيت ذلك فعلا ، وإن كنت أعتقد أن "مسز مورتيمر" لن تكون مستريحة لوجودى" .

وتركت "مستر كاردينال" فى غرفة الاستقبال وتوجهت إلى المكتبة حيث كان سيادة "اللورد" مشغولا ببعض الأوراق ... وبتركيز شديد. عندما أخبرته بوجود "مستر كاردينال" علت وجهه نظرة ضيق مفاجئة. ثم اتكأ فى مقعده، وكأنه يحاول أن يحل لغزا بالتفكير العميق فيه. ثم قال : "أبلغ "مستر كاردينال" أننى سوف أنزل بعد قليل ، يمكن أن يسلى نفسه بعض الوقت".

وعندما عدت إلى الدور الأرضى، وجدت "مستر كاردينال" يتنقل قلقا فى غرفة الاستقبال ويتفحص الأشياء التى كان لابد من أن تكون مألوفة له منذ زمن بعيد. نقلت إليه رسالة سيادة "اللورد" وسألته عن المشروب الذى يريد . "شاى .. الآن يا ستيفنس ، ولكن سيادة "اللورد" ينتظر من هذا المساء؟"

"عفوا يا سيدى ، لا أستطيع أن أكون مفيدا فى هذا الأمر"

"ليس لديك أية فكرة بالمرة؟"

"للأسف يا سيدى!"

"غريب ! حسن ! يبدو من الأفضل أن أبقى بعيدا هذه الليلة"

أذكر أننى نزلت إلى غرفة "مس كنتون" بعد ذلك بقليل . كانت جالسة على الطاولة رغم عدم وجود شيء أمامها ، وكانت يداها فارغتين ، والحقيقة أن شيئا فى تصرفاتها كان يدل على أنها كانت جالسة هكذا لفترة طويلة قبل أن أدق بابها.

قلت : "مستر كاردينال" هنا يا "مس كنتون" وسوف يحتاج غرفته المعتادة هذه الليلة".

"حسن يا "مستر ستيفنس". سوف أرى ذلك قبل أن أخرج"

"أنت خارجة هذا المساء إذن يا مس كنتون؟"

"نعم يا مستر ستيفنس"

ربما تكون قد بدت على وجهى الدهشة لأنها قالت : "تذكر يا "مستر ستيفنس" أننا تناقشنا فى ذلك منذ أسبوعين"

"نعم يا مس كنتون ... معذرة ! كنت قد نسيت ذلك"

"هل هناك شيء مايا مستر ستيفنس؟"

"لا يا "مس كنتون"، نحن فقط فى انتظار بعض الضيوف هذا المساء.. لكن ليس هناك ضرورة لوجودك"

"لقد اتفقنا على أننى سأكون فى إجازة هذا المساء ، كان ذلك

منذ أســبوعين يا مستر ستيڤنس"

"طبعا طبعا يا "مس كنتون"، ومعذرة لأننى نسيت". واستدرت متجها صوب الباب، لكن "مس كنتون" أوقفتنى قائلة: "مستر ستيڤنس .. أريد أن أقول شيئا"

"نعم يا مس كنتون"

"وهو بخصوص الشخص الذى أعرفه، والذى سأذهب للقائه هذه الليلة"

"نعم يا مس كنتون"

"لقد طلب منى أن أتزوجه .. وأعتقد أن من حقك أن تعرف ذلك"

"بالفعل يا"مس كنتون" ، هذا أمر مهمُ جدا"

"وأنا مازلت أفكر فى الموضوع"

"فعلا يامس كنتون"

"أقول إننى مازلت أفكر يا "مستر ستيڤنس"، لكننى قررت أنك لابد من أن تحاط علما بالموقف"

"أشكرك يا "مس كنتون" ، وأتمنى لك مساء جميلا .. والآن أستأذنك فى الانصراف"

بعد عشرين دقيقة تقريبا قابلت "مس كنتون" مرة أخرى ، وكنت مشغولا هذه المرة بالتحضير للعشاء . وأنا فى منتصف الطريق إلى

السلم الخلفى أحمل صينية محملة بالمشروبات ، سمعت وقع أقدام غاضبة تدق الأرض ورائى. التفت فوجدت "مس كنتون" تحملق فىَّ غاضبة وهى أسفل السلم.

"مستر ستيفنس ... هل أفهم أنك تريد منى أن أبقى فى العمل هذا المساء؟"

"لا ! ليس صحيحا يا "مس كنتون". وكما قلت فإنك قد أبلغتنى بذلك منذ مدة"

"لكننى أرى أنك لست سعيدا لخروجى هذا المساء"

"لا ! بالعكس يا "مس كنتون".

"هل تتصور أنك بافتعالك لكل هذا الهرج فى المطبخ، وبالحركة الدائبة جيئة وذهابا هكذا أمام غرفتى ، ستجعلنى أغير رأيى؟"

"مس كنتون .. هذه الجلبة البسيطة فى المطبخ سببها فقط هو وصول "مستر كاردينال" المفاجئ على العشاء فى اللحظة الأخيرة ، ولا يوجد أى سبب بالمرة يمنعك من الخروج هذا المساء".

"أنا أنوى الخروج سواء أكان ذلك برضاك أم بدونه يا "مستر ستيفنس" ، وأرجو أن يكون ذلك واضحا بالنسبة لك .

لقد رتبت أمورى على ذلك منذ أسبوعين"

"صحيح يا "مس كنتون" ، ومرة أخرى .. أتمنى لك مساء سعيدا".

على العشاء كان الجو السائد بين الرجلين غريبا. كانا يتناولان طعامهما في صمت يستمر فترات طويلة. وكان سيادة "اللورد" بالذات يبدو شارد الذهن. وفجأة قال "مستر كاردينال" : هل هناك شيء خاص هذه الليلة يا سيدى؟"

"هه؟!"

"ضيوفك هذا المساء ... هل هو أمر خاص؟"

"لا أستطيع أن أقول شيئا يا بنى ، هذا أمر سرى للغاية"

"يا إلهى ! أعتقد أننى لا ينبغى أن أكون موجودا إذن!"

"موجود .. فى ماذا يابنى؟"

"فيما سيحدث هذه الليلة"

"لا ... إنه لن يكون مهما بالنسبة لك، وعلى أية حال فإن درجة السرية عالية جدا . ولا يجب أن يكون شخص مثلك هنا ... لن يكون ذلك مناسبا بالمرة".

"يا إلهى ! يبدو أنه أمر شديد الخصوصية"

كان "مستر كاردينال" يراقب "اللورد" بشدة، ولكن الأخير عاد إلى طعامه دون أن يقول شيئا أكثر مما قال . ثم انتقلا إلى غرفة التدخين لتناول الشراب وتدخين السيجار .

وأثناء إعادة ترتيب غرفة الطعام ، وكذلك أثناء إعداد غرفة الاستقبال

لقدوم الضيوف ، كان عليّ أن أمر أكثر من مرة أمام أبواب غرفة التدخين . كان يمكن ملاحظة أن الرجلين قد بدآ يتكلمان معا بقوة وتحفز على عكس حالتهما الهادئة أثناء العشاء. وبعد ربع الساعة ارتفعت الأصوات غاضبة . لم أتوقف بالطبع لكى أتسمع ، ولكننى سمعت رغما عنى سيادة "اللورد" وهو يصرخ :

"لكن ذلك ليس من شأنك يا بنى، هذا ليس شغلك"

وعندما خرجا كنت فى غرفة الطعام ، ويبدو أنهما كانا قد هدآ . كانت الكلمات الوحيدة التى تبادلاها وهما فى الردهة هى قول سيادة اللورد : "والآن تذكر يا بنى أننى أثق بك"، وتمتمة "مستر كاردينال" ببعض الضيق : "نعم .. نعم .. لقد وعدتك".

ثم تفرقت الخطى فذهب سيادة "اللورد" إلى مكتبه و "مستر كاردينال" إلى المكتبة. بعد ذلك ، وبالتحديد فى الثامنة والنصف سمعنا صوت سيارات تقف فى الفناء. فتحت الباب لأحد السائقين ولمحت من فوق كتفه بعض "كونستبلات" الشرطة ينتشرون فى أماكن مختلفة .وبعد لحظة كنت أتقدم رجلين مهيبين ، استقبلهما سيادة "اللورد" فى الردهة، ودخلوا غرفة الاستقبال بسرعة . بعد نحو عشر دقائق سمعنا صوت سيارة أخرى وفتحت الباب لـ "الهر ريبنتروب" السفير الألمانى الذى لم يكن غريبا على "دارلنجتون هول". خرج سيادة "اللورد" ليكون فى

استقباله وتبادل الرجلان نظرات المودة والرضا قبل أن يدخلا معا إلى غرفة الاستقبال .

بعد دقائق قليلة ، عندما استُدعِيتُ لتقديم المشروبات ، كان الرجال الأربعة يتناقشون عن المزايا النسبية لأنواع السجق المختلفة ، وكان الجو السائد بينهم يبدو هادئا .

بعد ذلك لزمت موقعى فى الردهة - وهو بالقرب من المدخل الذى أقف فيه عادة أثناء الاجتماعات المهمة - ولم يكن هناك ما يجعلنى أبرحه مرة أخرى قبل ساعتين عندما سمعت طرقات على الباب الخلفى. نزلت فوجدت أحد "كونستبلات" الشرطة يقف مع "مس كنتون" ويطلب منى أن أتحقق من شخصيتها . تمتم الضابط وهو منصرف يجول فى الساحة : "هذا من باب الاحتياط الأمنى فقط يا آنسة ... ولا أكثر من ذلك"

وعندما كنت أغلق الباب بالمزلاج وجدت "مس كنتون" فى انتظارى فقلت : "أنا واثق من أنك قد أمضيت مساء سعيدا يا "مس كنتون". لم ترد . ولذلك قلت ثانية ونحن نسير فى المنطقة المظلمة من المطبخ : "أعتقد أنك أمضيت مساء جميلا يا "مس كنتون".

"بالفعل . شكرا يامستر ستيڤنس".

ثم سمعت وقع أقدامها ورائى وقد توقف فجأة لتقول : "أليس لديك

أدنى اهتمام بما حدث الليلة بينى وبين الشخص الذى أعرفه يا "مستر ستيڤنس؟"

"لا أريد أن أكون قليل الذوق يا "مس كنتون" ، فأنا لابد من أن أعود إلى الطابق الأعلى دون تأخير . الواقع أن أحداثا بالغة الأهمية تجرى هنا فى هذا القصر .. فى هذه اللحظة"

"ومتى كان الأمر غير ذلك يا مستر ستيڤنس؟ حسن! إذا كنت فى عجلة ، علىَّ إذن أن أبلغك بأننى قد قبلت العرض الذى تقدم به إلىَّ ذلك الشخص"

"عذرا يا مس كنتون!"

"عرض الزواج"

"أوه ! هكذا ! اسمحى لى إذن أن أهنئك من كل قلبى" .

"شكرا يا "مستر ستيڤنس". يسعدنى بالطبع أن أستمر فى العمل فى فترة الإنذار ، لكن إن استطعت أن تأذن لى بالرحيل قبل ذلك أكون شاكرة لك . الشخص الذى أعرفه سيبدأ عمله الجديد فى الريف الشرقى بعد أسبوعين"

"سأبذل كل جهدى لتدبير بديل في أقرب فرصة يا "مس كنتون" والآن، أستأذنك لأننى لابد من أن أصعد إلى الطابق العلوى". وهممت بالانصراف مرة أخرى، ولكن بمجرد أن وصلت إلى الباب خارج الممر

سمعت "مس كنتون" تقول : "مستر ستيفنس" فالتفت إليها . لم تكن قد تحركت من مكانها، ولذلك كان لابد من أن ترفع صوتها قليلا وهى تخاطبنى فكان صداه يتردد فى فضاء المطبخ المظلم. قالت : "هل أفهم أنك بعد كل هذه السنوات من خدمتى فى هذا القصر ، لا تجد كلمات مناسبة تعليقا على خبر تركى لهذا المكان أكثر مما قلت؟"

"مس كنتون ، لك خالص تهنئتى ... ومن كل قلبى ، لكننى أكرر لك أن هناك أمورا بالغة الأهمية تدور الآن فى الطابق العلوى ولابد من أن أكون فى مكانى"

"هل تعلم يا "مستر ستيفنس" أنك كنت شخصا مهما بالنسبة للرجل الذى أعرفه .. وبالنسبة لى أيضا؟"

"حقا يا مس كنتون؟"

"نعم يا مستر ستيفنس . كثيرا ما نقضى الوقت فى رواية النوادر عنك. الرجل يريد دائما أن أصف له الطريقة التى تضغط بها فتحتى أنفك وأنت تضع الفلفل على طعامك، وذلك يجعله يضحك كثيرا"

"حقا؟"

"وهو كذلك مغرم بالقيل والقال بين العاملين لديك. ولابد من أن أقول إننى قد أصبحت خبيرة فى تقليدهم .. كل ما هنالك أننى أضيف بعض العبارات من عندى..."

"صحيح يا مس كنتون !؟ ... أرجو أن تأذنى لى ..." صعدت إلى الردهة فى الطابق العلوى واتخذت موقعى . إلا أنه قبل أن تمر خمس دقائق ، ظهر "مستر كاردينال" أمام المكتبة وأشار إلىّ : لا أريد أن أزعجك بأن تحضر لى المزيد من "البراندى" ... هل يمكن؟ القنينة التى أحضرتها قبل ذلك يبدو أنها فرغت.."

"تحت أمرك ياسيدى .. كل الشراب الذى تريد . ولكننى أتساءل إن كان من الحكمة أن تشرب أكثر من ذلك وأنت تنوى الانتهاء من المقال الذى تكتبه".

"مقالى سيكون رائعا يا ستيفنس . اذهب وأحضر البراندى".

"حسن ياسيدى!"

بعد لحظة ، وبعد أن عدت إلى المكتبة وجدت "مستر كاردينال" يجول بين الأرفف ويتفحص عناوين الكتب. رأيت أوراقا مبعثرة على مكتب قريب، وعندما اقتربت تنبه "مستر كاردينال" وجلس فى مقعد جلدى . ذهبت إليه وصببت له بعض "البراندى" وقدمته له.

"تعلم يا "ستيفنس" .. نحن أصدقاء من مدة ... أليس كذلك؟"

"بلى يا سيدى"

"وكلما جئت إلى هنا كنت أتطلع دائما لتجاذب أطراف الحديث معك!"

"نعم يا سيدى"

"هل يمكن أن تشاركنى كأسا ؟"

"هذا لطف منك ياسيدى ، لكن ... عذرا !.. لا أستطيع!"

"أقول يا "ستيفنس" .. هل أنت سعيد هنا؟"

"سعيد جدا يا سيدى . شكرا" قلت وأنا أبتسم .

"لا تشعر بالضجر ... أليس كذلك؟"

"ربما أكون مرهقا بعض الشىء ، لكننى بخير .. شكرا ياسيدى"

"حسن ! عليك أن تجلس إذن . على أية حال نحن أصدقاء من زمن كما قلت . ولذلك لابد من أن أكون صادقا معك . تماما مثلما خمنت ، أنا لم آت إلى هنا الليلة بالمصادفة . لقد حصلت على معلومات كما ترى. "معلومات عما يحدث . هناك فى الناحية الأخرى من الردهة ... وفى هذه اللحظة"

"نعم يا سيدى؟"

"أرجو أن تجلس يا "ستيفنس" .. أريد أن نتحدث كأصدقاء بينما أنت تقف بعيدا حاملا تلك الصينية البغيضة وكأنك على وشك أن تنصرف فى أى لحظة" .

"أنا آسف يا سيدى"

وضعت الصينية من يدى وجلست فى وضع مناسب فى المقعد الذى

أشار إليه "مستر كاردينال" . قال : "هذا أفضل يا ستيفنس ، أعتقد أن رئيس الوزراء ليس فى غرفة الاستقبال الآن .. أليس كذلك؟"

"تقول رئيس الوزراء يا سيدى؟"

"حسن . لست مجبرا على أن تخبرنى . أفهم أنك فى موقف حرج" ، وابتسم متنهدا وهو ينظر بقلق إلى الأوراق المبعثرة على المكتب . ثم قال:

"لست فى حاجة لأن أصف لك يا "ستيفنس" مشاعرى نحو سيادة "اللورد". أريد أن أقول إنه كان بمثابة أب ثان بالنسبة لى. لست فى حاجة لتأكيد ذلك يا "ستيفنس" .

"نعم يا سيدى"

"أنا شديد الاهتمام به .. شديد الحرص عليه"

"فعلا يا سيدى!"

"حسن ! كلانا إذن يعرف أين يقف . لكن دعنا نواجه الواقع . سيادة "اللورد" فى ورطة . يسبح فى مياه عميقة.. عميقة .. وأراه يذهب بعيدا بعيدا ، دعنى أقول إننى قلق عليه .. فى غاية القلق .. إنه موشك على الغرق !"

"هكذا يا سيدى؟!"

"هل تعرف يا "ستيفنس" ماذا يجرى هذه اللحظة ونحن جالسان هنا

نتكلم ؟ هل تعرف ما يدور على بعد ياردات قليلة منا؟ فى "هذه الغرفة التى أمامنا ، ولا أريدك أن تؤكد لى ذلك ، وفى هذه اللحظة، هناك اجتماع بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية والسفير الألمانى . لقد صنع سيادة "اللورد" المعجزات لتحقيق هذا الاجتماع وهو يعتقد- يعتقد بإخلاص - أنه يقوم بعمل جيد وشريف . هل تعرف لماذا جاء بأولئك الناس إلى هنا هذه الليلة ؟ هل تعرف يا"ستيفنس" ما يدور هنا؟"

"لا أعرف يا سيدى!"

"لا تعرف ! قل لى يا "ستيفنس" .. ألا تهتم بأى شىء بالمرة؟ أليس لديك فضول ؟ يا إلهى ! شىء حاسم وبالغ الأهمية يحدث هنا فى هذا القصر ولا يكون لديك أية درجة من حب الاستطلاع!"

"ليس من واجبى أن أكون فضوليا بالنسبة لمثل تلك الأمور ياسيدى"

"ولكنك فضولى بالنسبة لسيادته . قلق عليه . لقد قلت ذلك الآن . فإذا كنت قلقا على سيادته ، أفلا ينبغى أن تهتم؟ أن تكون محبا للاستطلاع بعض الشىء ؟ رئيس الوزراء البريطانى والسفير الألمانى جاءا إلى هنا عن طريق الرجل الذى تعمل لديه من أجل محادثات سرية فى الليل ... كل ذلك وأنت غير مهتم بالمرة!!"

"لا أقول إننى لست مهتما يا سيدى ، إلا أنه ليس من واجبى أن أظهر حب استطلاعى وشغفى بمثل هذه الأمور"

"ليس من واجبك ! هه! أعتقد أنك تظن ذلك نوعا من الإخلاص . أليس كذلك؟ هل تعتقد أنه إخلاص؟ لسيادة "اللورد"؟ للتاج؟ هل يصل الأمر إلى هذا الحد؟"

"عفوا يا سيدى ! أنا لا أستطيع أن أفهم ما ترمى إليه"

تنهد "مستر كاردينال" ثانية وهز رأسه، "أنا لا أرمى إلى أىَ شىء يا "ستيفنس". بصراحة شديدة أنا لا أعرف ما يجب أن نفعله . لكنك على الأقل كان يجب أن تكون محبا للاستطلاع". وصمت لحظة وهو يحدق مذهولا فى مساحة السجادة تحت قدمى. ثم قال : "هل أنت متأكد أنك لا تريد أن تشاركنى كأسا يا ستيفنس؟"

"شكرا يا سيدى ! لا أريد!"

"دعنى أقول هذا لك يا "ستيفنس" . سيادة "اللورد" قد خُدع. غَشْوه. قمت بتحرياتى الخاصة وأعرف الوضع فى "ألمانيا" الآن مثل أى واحد فى هذا البلد. وأقول لك إن سيادته قد خُدِعَ تماما ... ضحكوا عليه !!"

لم أعلق . أما هو فاستمر فى تحديقه فى الأرضية . وبعد فترة قصيرة قال : "سيادته رجل عزيز جدا .. جدا .. لكن الواقع أنه وصل إلى المياه المغرقة .. ضحكوا عليه . النازيون يناورون به مثل عسكرى الشطرنج. هل لاحظت ذلك يا "ستيفنس"؟ هل لاحظت أن ذلك هو الذى كان يدور على مدى السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة على الأقل؟"

"أنا آسف يا سيدى. لم أشعر بشىء من ذلك التغيير"

"ألم تشك حتى مجرد الشك ؟ أقل شك؟ وهو أن "الهر هتلر" – وعن طريق صديقنا العزيز "الهر ريبنتروب" كان يناور بسيادة "اللورد" مثل عسكرى الشطرنج ، ومثلما يناور بكل سهولة بأى من العسكر الآخرين فى "برلين"؟

"آسف يا سيدى ! لم ألحظ شيئا من ذلك"

"أعتقد أنك ما كان يمكن أن تلاحظ يا "ستيفنس" لأنك لست فضوليا. أنت تترك الأشياء تسير أمامك ولا تفكر أبدا فى أن تنظر إليها أو أن تفهم سببا لأى شىء"

عدَّل "مستر كاردينال" وضعه فى المقعد وأصبح منتصب الظهر فى جلسته وبدا يفكر فى عمله الذى لم يكن قد انتهى منه والموجود أمامه على المكتب القريب. ثم قال: "سيادته رجل محترم . چنتلمان . هذا هو جوهره الحقيقى. چنتلمان خاض حربا مع الألمان وبطبيعته يريد أن يمنح كرمه وصداقته المخلصة لعدو مهزوم . تلك هى طبيعته ، ولابد من أن تكون قد رأيت ذلك يا "ستيفنس". هل من المعقول ألا تكون قد لاحظت ذلك؟ الطريقة التى استغلوه بها ، ابتزوه، حولوا شيئا نبيلا إلى شىء آخر .. مختلف .. لخدمة أهدافهم الخبيثة. لابد من أن تكون قد رأيت ذلك يا "ستيفنس". ومرة أخرى راح "مستر كاردينال" يحملق فى

الأرضية ، وبعد لحظات صمت قال:

"أذكر أننى جئت إلى هنا منذ عدة سنوات وكان ذلك الشاب الأمريكى موجودا. كنا فى اجتماع كبير شارك فى تنظيمه والدى وأتذكر كيف كان ذلك الشاب الأمريكى فى حالة سكر بيّن أكثر مما أنا عليه الآن، عندما وقف أمام الجميع على طاولة العشاء وأشار إلى سيادة "اللورد" وقال إنه مجرد هاو . قال عنه إنه هاو أخرق وعلى وشك أن يغرق فى المياه العميقة.

حسن ! أنا أريد أن أقول يا "ستيڤنس" إن ذلك الشاب الأمريكى كان محقا. هذه حقيقة. عالم اليوم مكان ردىء جدا بالنسبة للعواطف والطباع النبيلة والأخلاق الراقية. لقد رأيت ذلك بنفسك يا "ستيڤنس" .. أليس كذلك؟ الطريقة التى ابتزوا بها شيئا جميلا ونبيلا . لقد رأيت ذلك بنفسك ... أليس كذلك؟"

"أنا آسف يا سيدى ! لكننى لا أستطيع أن أقول إننى قد رأيت شيئا من ذلك!"

"لا تستطيع أن تقول إنك رأيت. حسن!. أنا لا أعرف شيئا عنك لكننى سأفعل شيئا بهذا الخصوص . لو كان والدى على قيد الحياة لفعل شيئا لإيقاف ذلك".

صمت "مستر كاردينال" بعد ذلك ، ربما بسبب إثارة ذكرى والده ،

وكان يبدو عليه الحزن الشديد . ثم قال : "هل يرضيك يا "ستيڤنس" أن ترى سيادته وهو منجرف إلى الكارثة على هذا النحو؟!"

"أنا آسف يا سيدى ، لا أستطيع أن أفهم تماما ما تشير إليه"

"أنت لاتفهم يا "ستيڤنس" . حسن . نحن جميعا أصدقاء وسأقولها لك بكل صراحة. على مدى السنوات القليلة الماضية كان سيادته أفضل "عسكرى" لدى "هتلر" فى هذا البلد من أجل حيله الدعائية . وكل ذلك لأنه مخلص وشريف ولا يستطيع أن يدرك الطبيعة الحقيقية لما يقوم به . وعلى مدى السنوات الثلاث الأخيرة فقط كان سيادة "اللورد" وسيلة مفيدة وأداة مهمة فى عقد صفقات بين "برلين" وأكثر من ستين شخصا من مواطنى هذا البلد .. من ذوى النفوذ . كان ذلك مفيدا جدا لهم.

وقد استطاع الهر "ريبنتروب" أن يتجاهل وزارة خارجيتنا تماما ويسلك طريقا خاصة. وكأن اجتماعهم الحاشد القذر وألعابهم الأولمبية لم تكن كافية ! هل تعرف ماذا جعلوا سيادته يفعل الآن؟ هل لديك أية فكرة عما يناقشونه الآن؟"

"لا يا سيدى"

"سيادة اللورد يحاول أن يقنع رئيس الوزراء نفسه بقبول دعوة لزيارة "الهر هتلر". يعتقد أن هناك سوء تفاهم رهيب من جانب رئيس الوزراء بخصوص النظام الألمانى الحالى"

"لا أستطيع أن أرى ما يستحق الاعتراض عليه فى ذلك يا سيدى ! سيادة "اللورد" كان يسعى دائما من أجل تحقيق التفاهم الأفضل بين الدول".

"وهذا ليس كل شىء يا "ستيڤنس" ! فى هذه اللحظة بالتحديد ، إن لم أكن مخطئا ، فى هذه اللحظة بالضبط ، سيادة "اللورد" يناقش فكرة زيارة جلالة الملك نفسه لـ "الهر هتلر". ليس سرا أن يكون ملكنا الجديد متحمسا للنازية كما كان دائما. حسن ! والآن يبدو أنه حريص على قبول دعوة "هتلر". فى هذه اللحظة يا "ستيڤنس" سيادته يبذل كل ما فى وسعه لإزالة اعتراضات وزراة الداخلية على هذه الفكرة المروعة".

"أنا آسف يا سيدى ، لكننى لا أرى أن سيادته يفعل شيئا سوى ما هو سام ونبيل، يبذل قصارى جهده ليضمن أن يسود السلام أرجاء أوروبا".

"قل لى يا ستيڤنس . أليس لديك أى احتمال أن أكون محقا فيما أقول؟ ألست على الأقل شغوفا بما أقول؟"

"أنا آسف يا سيدى، لابد من أن أقول إننى أثق كل الثقة فى أحكام سيادته".

"لا يوجد عاقل يمكن أن يصدق أى شىء يقوله "الهر هتلر" بعد "الراينلاند" يا "ستيڤنس". سيادة "اللورد" وصل إلى المياه العميقة ..

المغرقة ... يا إلهى ! لقد أزعجتك يا ستيڤنس!"

قلت : "لا يا سيدى ! أبدا !"، وسمعت جرسا من غرفة الاستقبال فقمت من مكانى. "يبدو أننى مطلوب هناك ياسيدى .. فلتأذن لى.."

فى غرفة الاستقبال كان الهواء كثيفا ومثقلا بدخان التبغ. والحقيقة أن السادة كانوا مستمرين فى تدخين السيجار وعلى وجوههم تعبيرات الجدية والصرامة . لا أحد يتكلم . طلب منى سيادة "اللورد" أن أحضر قنينة من النبيذ الفاخر من القبو .

فى مثل هذا الوقت من الليل ، يبدو وقع أقدام المرء وهو نازل على السلم الخلفى شيئا منافيا للذوق ، وحدث أن كان ذلك سببا فى إيقاظ "مس كنتون". إذ بينما كنت أشق طريقى فى ظلام الممر ، رأيت باب غرفتها يُفتح وظهرت أمامى على العتبة فى وضوح الضوء المنبعث من الداخل. قلت عندما اقتربت :

أنا مندهش لأنك مازلت هنا فى الطابق الأرضى يا "مس كنتون"

"مستر ستيڤنس ... لقد كنت إنسانة غبية قبل ذلك"

"عفوا يا مس كنتون ... لكننى ليس لدى وقت للكلام الآن".

"مستر ستيڤنس ! لا يجب أن تأخذ شيئا مما قلته لك قبل ذلك على محمل الجد . لقد كنت غبية .. حمقاء!"

"أنا لم آخذ شيئا مما قلت على محمل الجد يا "مس كنتون"..

والحقيقة أننى لا أستطيع أن أفهم ما تشيرين إليه .. هناك أحداث بالغة الأهمية تتوالى فى الطابق العلوى ، ولا يمكننى الوقوف لتبادل عبارات المجاملة ... معك .. وأقترح عليك أن تذهبى لتنامى"

قلت ذلك بسرعة وهممت بالانصراف، ولم أكد أصل إلى باب المطبخ ، حتى اكتشفت من الظلام المفاجئ أن "مس كنتون" أغلقت بابها .

لم أبدر وقتا طويلا فى البحث عن القنينة المطلوبة أو التحضيرات المطلوبة لتقديمها للضيوف . بعد دقائق محدودة من المواجهة مع "مس كنتون" وجدت نفسى أسير فى الممر ثانية ، وفى هذه المرة كنت أحمل صينية . عندما اقتربت من باب "مس كنتون" رأيت من الضوء المتسرب حول حوافه ، أنها كانت لا تزال فى الداخل . وكانت تلك هى اللحظة – وأنا متأكد من ذلك الآن – التى ظلت حية فى ذاكرتى .

تلك اللحظة. عندما توقفت فى عتمة الممر والصينية فى يدى عندما كنت أشعر تماما أن "مس كنتون" هناك خلف ذلك الباب ... وكانت تبكى..

وعلى ما أذكر لم يكن هناك تفسير حقيقى لهذا الشعور، لم أسمع صوت بكاء، وأذكر أيضا أننى كنت واثقاً تماما ... بأننى لو طرقت الباب ودخلت لوجدتها تبكى. لا أتذكر كم من الوقت بقيت واقفا فى مكانى . تصورت حينداك أنها فترة طويلة ... مع أنها لم تتجاوز ثوانىَ قليلة. كان مطلوبا منى أن أسرع إلى الطابق العلوى لخدمة بعض السادة ولا

أتصور أننى كان يمكننى أن أتأخر. عندما عدت إلى غرفة الاستقبال رأيت أنهم كانوا لا يزالون فى جديتهم الصارمة. ولم تكن هناك فرصة لمعرفة أى شىء عن الجو العام ، إذ بمجرد دخولى تناول سيادته الصينية من يدى قائلا :

"شكرا يا ستيفنس ! سأقوم أنا باللازم ... شكرا!"

عبرت الردهة ثانية واتخذت موقعى المعتاد تحت قنطرة المدخل، وبقيت هكذا لمدة ساعة تقريبا . حتى مغادرتهم، لم يحدث أى شىء يجعلنى أتحرك من مكانى .

إلا أن الساعة التى أمضيتها واقفا فى ذلك المكان فى تلك الليلة ، بقيت منقوشة فى ذاكرتى على مر السنوات . لابد من أن أعترف بأن معنوياتى كانت منخفضة فى البداية. ولكن عندما استمرت وقفتى بدأ شىء غريب يحدث . كان شعور عميق بالانتصار يستيقظ بداخلى. لا أتذكر قدر تحليلى لهذا الشعور فى ذلك الوقت ، لكننى عندما أنظر إليه اليوم لايبدو صعب التفسير. لقد مررت بمساء مرهق غاية الإرهاق ، استطعت أن أحتفظ فيه "بكرامة تليق بوظيفتى". والأهم من كل شىء أننى فعلت ذلك على النحو الذى كان يمكن أن يجعل أبى فخورا بى . وهناك عبر الردهة ، وخلف الأبواب ذاتها التى كانت نظرتى مثبتة عليها، داخل الغرفة ذاتها

التى قمت فيها بواجباتى ، كان أقوى رجال أوروبا يعقدون مؤتمرا لتقرير مصير قارتنا . فمن ذا الذى يشك فى أننى فى تلك اللحظة قد اقتربت بالفعل من قلب الأشياء كما يود أى رئيس خدم؟ أعتقد أننى وأنا واقف هناك أفكر فى أحداث ذلك المساء ، تلك التى ظهرت وتلك التى فى سبيلها للتكشف ... أعتقد أن تلك اللحظة كانت تلخيصا لكل ماحققت فى حياتى . ربما أمكننى أن أجد تفسيرات أخرى قليلة لذلك الشعور بالانتصار ، الشعور الذى كان يملؤنى فى تلك الليلة !

اليوم السادس - مساء

"وايمـوث"

هذه المدينة الساحلية من الأماكن التى أفكر فى زيارتها منذ سنوات طويلة. سمعت كثيرين يتحدثون عن قضاء إجازات جميلة هنا ، كما أن "مسز سيمونز" تقول عنها فى كتابها "سحر إنجلترا"، إنها "مدينة يمكن أن تقضى بها أياما كاملة من البهجة والسعادة".

والحقيقة أن "مسز سيمونز" تذكر على نحو خاص ذلك اللسان البحرى الذى كنت أتنزه عليه فى نصف الساعة الماضية، كما توصى بزيارته فى المساء عندما تضيئه الأنوار مختلفة الألوان .

منذ لحظة ، سمعت من أحد المسئولين أن الأنوار ستضاء "بعد قليل"، ولذا قررت أن أجلس هنا على هذا المقعد فى الانتظار . المنظر من هنا رائع .. منظر الشمس الغاربة فوق البحر. وبالرغم من وجود الكثير من ضوء النهار - كان يوما رائعا - إلا أننى أستطيع أن أشاهد بعض الأضواء التى بدأت تلمع بحذاء الشاطئ . وفى الوقت نفسه مازال اللسان مزدحما بالناس ، حيث أسمع خلفى وقع الأقدام المتواصل فوق الألواح الخشبية .

وصلت إلى هذه المدينة بعد ظهيرة الأمس ، وقررت أن أبقى هنا ليلة ثانية لكى أقضى يوما كاملا مستمتعا بالوقت . لابد من أن أقول إننى استرحت من قيادة السيارة لأن المرء يمل بعد فترة ، بالرغم مما فى ذلك من متعة. على أية حال ، لدى متسع من الوقت لأبقى هنا يوما آخر

، ولو أنني بدأت رحلتي غدا من الصباح الباكر، يمكن أن أكون في "دارلنجتون هول" في موعد الشاي.

يومان مرا على لقائي بـ "مس كنتون" في قاعة الشاي في فندق "روز جاردن" في ليتل كومتون" حيث فوجئت بمجيئها إلى هناك. كنت جالسا أحدق في المطر من النافذة المجاورة لطاولتي في محاولة لقتل الوقت ، عندما جاء أحد العاملين بالفندق ليخبرني أن هناك سيدة في بهو الاستقبال تريد مقابلتي. قمت وذهبت إلى هناك ولم أجد أحدا أعرفه . ولكن إحدى الموظفات قالت من وراء مكتبها : "السيدة موجودة في قاعة الشاي ياسيدي". دخلت من الباب الذي أشارت إليه فوجدت قاعة مليئة بالمقاعد غير الملائمة، كانت الطاولات موضوعة بشكل غير منظم . ولم يكن هناك غير "مس كنتون" التي وقفت عندما دخلت ، ابتسمت ومدت يدها إليّ .

"آه يا مستر ستيفنس ! جميل أن نلتقي مرة أخرى!"

"مسز بن ! شيء رائع حقا!"

كان ضوء القاعة كئيبا بسبب المطر ولذا حركنا مقعدينا لنقترب من النافذة . وهكذا جلست أنا و "مس كنتون" نتحدث على مدى ساعتين في ذلك الضوء الشحيح، بينما المطر يتساقط بغزارة في الخارج.

كان تقدم العمر قد بدا عليها بالطبع ، ولكنها كانت لا تزال جميلة

فى عينى . ممشوقة القوام كما كانت دائما وما زالت تحتفظ بطريقتها فى رفع رأسها عندما تتكلم كأنها فى حالة تحد. وبالرغم من الضوء القليل الساقط على وجهها كانت بعض الخطوط واضحة عليه فى أماكن متفرقة. إلا أن "مس كنتون" التى كانت أمامى ، وبشكل عام ، كانت تبدو مماثلة للشخص الذى عاش بذاكرتى على مدى السنوات . ويمكن القول إن رؤيتها مرة أخرى كانت شيئا جميلا .. جميلا جدا !

تبادلنا فى العشرين دقيقة الأولى تقريبا العبارات التى يمكن أن يتبادلها الغرباء . سألتنى بتهذيب شديد عن رحلتى وكيف أقضى إجازتى والمدن والأماكن التى زرتها. وعندما استمر حديثنا ، لابد من أن أقول ، إننى بدأت ألاحظ التغيرات التى أحدثتها بها السنين. فقد بدت أبطأ قليلا على سبيل المثال ، ولكن لعله الهدوء الذى يجىء مع تقدم العمر ، وقد حاولت بالفعل أن أراه كذلك . لكننى لم أنجح فى الهرب من الشعور بأن ما أراه كان سَأَماً من الحياة. يبدو أن الشرارة التى كانت تبعث فيها الحيوية وتجعلها أحيانا شخصية متفجرة قد تلاشت . وعندما كانت تصمت أحيانا ، أو يكون وجهها فى حالة سكون واسترخاء، كنت ألمح شيئا من الحزن فى ملامحها . ولكن ... لعلنى كنت مخطئا !

بعد فترة قصيرة زال الحرج الذى ساد الدقائق الأول من اللقاء

تماما ، وبدأ حديثنا ينحو منحى شخصيا. أمضينا بعض الوقت فى تذكر أشخاص من الماضى أو تبادل ما نعرف من أخبار عنهم ، وكان ذلك شيئا ممتعا. بيد أنه لم يكن المضمون العام لحديثنا....

الابتسامات المقتضبة بعد كل عبارة ، تعليقاتها الساخرة ، إيماءات كتفيها أو يديها... بدا كل ذلك يستدعى إيقاعات وعادات حواراتنا منذ تلك السنوات الماضية. وهنا أيضا استطعت أن أستخلص بعض الحقائق عن ظروفها الحالية. عرفت مثلا أن زواجها لم يكن محفوفا بالمخاطر كما أوحت بذلك رسالتها، وعرفت أنها بالرغم من ترك بيتها لمدة أربعة أيام أو خمسة ، وهى الفترة التى كتبت فيها الرسالة – قد عادت إلى البيت وأن "مستر بن" كان سعيدا بعودتها .

قالت وهى تبتسم : "جميل أن يكون أحدنا عاقلا فى مثل تلك الأمور".

وأنا أعلم بالطبع أن "مثل تلك الأمور" لم يكن شأنا يخصنى ، ولابد من أن أوضح أننى لم أحاول، ولم أحلم بالتطفل على مثل هذه الأمور إلا إذا كانت هناك أسباب مهنية صرفة، أو بمعنى آخر ... مشكلة عدد العاملين فى "دارلنجتون هول".

على أية حال ، فإن "مس كنتون" لم يكن لديها ما يمنع بالمرة من أن تفضفض لى عن مثل تلك الأمور ، ومن جانبى وجدت ذلك دليلا جيدا على عمق ومتانة علاقات العمل التى كانت بيننا ذات يوم. أتذكر أن "مس

كنتون" راحت بعد ذلك تتحدث بشكل أكثر عمومية عن زوجها الذى سيتقاعد قريبا وقبل الموعد المحدد لذلك بسبب ظروف صحية، وعن ابنتها المتزوجة وتنتظر مولودا فى الخريف . والحقيقة أن "مس كنتون" أعطتنى عنوان ابنتها فى "تور سيت" ، ولابد من القول إننى كنت سعيدا لحرصها على أن أمر عليها فى طريق عودتى. وبالرغم من قولى إننى قد لا أمر بـ"تورسيت"، راحت تلح علىَّ بقولها : "كاترين سمعت كل شىء عنك "يا مستر ستيفنس" ، وستكون سعيدة جدا بلقائك". ومن جانبى حاولت قدر استطاعتى أن أصف لها حال "دارلنجتون هول" الآن. حاولت أن أنقل إليها كيف أن "مستر فاراداى" صاحب عمل لطيف ومحترم ، كما وصفت لها التغيرات التى طرأت على القصر نفسه وكذلك الترتيبات الخاصة بالعاملين، وأعتقد أن "مس كنتون" كانت سعيدة عندما تحدثت عن القصر ، وعلى الفور ، كنا نسترجع بعض الذكريات القديمة ونضحك عليها .

أتذكر أننا عرضنا لاسم "لورد دارلنجتون" مرة واحدة . كنا نتذكر شيئا عن "مستر كاردينال الأصغر" فكان لابد من أن أخبرها بأن الرجل قُتِلَ فى "بلچيكا" أثناء الحرب. وواصلت كلامى :

"كان سيادة "اللورد" بالطبع شديد الإعجاب بـ "مستر كاردينال"، وكان لخبر موته وقع سيئ عليه". لم أرد أن أفسد الجو الجميل بحديث

كئيب كهذا ، ولذلك غيرت الموضوع على الفور . لكن ، وكما كنت أخشى، كانت "مس كنتون" قد قرأت عن دعوى التشهير الفاشلة وكان لابد من أن تجد فرصة لكى تجس نبضى على نحو ما . قاومت استدراجها لى وإن كنت قد قلت لها فى النهاية :

"الحقيقة يا "مسز بن" أن أقوالا رهيبة كانت تتردد أثناء الحرب عن سيادة "اللورد" وخاصة عن طريق تلك الجريدة. وقد تحمل سيادته ذلك عندما كانت البلاد فى حالة خطر ، وبمجرد انتهاء الحرب ومع استمرار التعريض به وبسمعته لم يكن هناك أى مبرر لاستمرار معاناته فى صمت. من السهل الآن أن نرى مخاطر الذهاب إلى المحكمة فى ذلك الوقت، وفى ذلك المناخ الذى كان سائدا . ولكن سيادته كان يعتقد أنه لابد من أن يُنْصَف . ولكن الجريدة زاد توزيعها بدلا من ذلك. تحطمت سمعته الطيبة إلى الأبد . بعد ذلك مرض يا "مسز بن" وأصبح القصر هادئا تماما. كنت أحمل إليه الشاى فى غرفة الاستقبال وكان منظره مأساويا".

معذرة "يا مستر ستيفنس" ، لم يكن لدى أية فكرة عن تردى الأمور إلى هذه الدرجة".

"نعم يا "مسز بن" . لكن .. كفى كلاما فى هذا الموضوع. أعرف أنك تتذكرين "دارلنجتون هول" عندما كانت تعج بالضيوف والزائرين من

علية القوم. سيادته يستحق أن نتذكره الآن في مثل تلك الظروف".

وكما سبق أن قلت ، كانت تلك هي المرة الوحيدة التي عرضنا فيها لذكر اسم سيادة "اللورد". كنا نستدعي الذكريات السعيدة، وكانت الساعتان اللتان قضيناهما في قاعة الشاي من أجمل الأوقات. أتذكر أنه كان هناك نزلاء آخرون يتوافدون على القاعة ونحن نتكلم ، يجلسون لدقائق معدودة ثم ينصرفون ، لكنهم لم يشتتوا انتباهنا بالمرة. لم أستطع أن أصدق أن ساعتين قد مرتا إلا عندما نَظَرَتْ "مس كنتون" إلى الساعة المعلقة على الحائط أمامنا وقالت : إنها لابد من أن تعود إلى المنزل . وعندما وجدت أنها سوف تسير تحت المطر إلى محطة "الباص" خارج القرية ، صممت على توصيلها بالسيارة "الفورد" . وقد كان . أخذنا مظلة من مكتب الاستقبال في الفندق وخرجنا . كانت برك صغيرة من الماء قد تجمعت في المكان الذي تركت فيه السيارة ، مما جعلني أساعد "مس كنتون" حتى وصلنا إلى باب "الفورد". وبعد قليل كنا نسير على الطريق الرئيسي للقرية ، بعد ذلك اختفت المحلات لنجد أنفسنا في الريف المفتوح . استدارت "مس كنتون" التي كانت جالسة صامتة بجواري ترقب المنظر من حولنا ، وقالت :

"لماذا تبتسم لنفسك هكذا يا مستر ستيفنس ؟"

"عفوا يا "مس كنتون" ، فقد تذكرت أشياء معينة كتبتها في رسالتك،

أصابتني بالقلق إلى حد ما عندما قرأتها، ولكنني اكتشفت الآن أنه لم يكن هناك ما يدعو للقلق".

"أى أشياء بالتحديد تقصد يا "مستر ستيفنس"؟

"لاشيء على وجه الخصوص"

"لكنك لابد من أن تخبرني يا مستر ستيفنس"

قلت وأنا أبتسم :

"حسن ! على سبيل المثال يا "مسز بن" ، قلت فى رسالتك "بقية حياتى ممتدة مثل فضاء أمامى "... كلمات بهذا المعنى..."

قالت وهى تضحك أيضا : "حقا يا مستر ستيفنس؟ لايمكن أن أكون قد كتبت شيئا كهذا"

"أؤكد لك ذلك يا "مسز بن" وأنا أتذكر ذلك جيدا"

"يا إلهى ! ربما مرت على أيام كنت أشعر فيها بأننى كذلك. لكنها تمر بسرعة شديدة على أية حال. دعنى أؤكد لك "يا مستر ستيفنس" أن حياتى ليست ممتدة فارغة أمامى وذلك لسبب واحد ، فنحن ننتظر حفيدا... الأول من عدد قليل منهم .... ربما!"

"نعم ! سيكون ذلك رائعا بالنسبة لك"

واصلنا سيرنا بالسيارة بهدوء ، وبعد لحظات قالت "مس كنتون" :

"وماذا عنك يا "مستر ستيفنس"؟ ماذا يخبئ لك المستقبل بعد عودتك إلى "دارلنجتون هول"؟

"حسن ! أياً ما كان ما ينتظرني يا "مسز بن" ، أعرف أنني لا ينتظرني فراغ . ليته كان! لكن لا ! هناك عمل .. عمل كثير .. كثير جدا"

ضحكت لذلك. ثم أشارت "مس كنتون" إلى محطة "الباص" القريبة ، قالت عندما وصلنا إليها : "هل تنتظر معي يا "مستر ستيفنس"؟ "الباص" سيصل بعد قليل".

كان المطر مازال يهطل عندما نزلنا من السيارة فأسرعنا للاحتماء بمظلة المحطة. المحطة مبنية بالحجر والمظلة مسقوفة بالبلاط وتبدو قوية، وخلفها حقول فسيحة. من الداخل كان الطلاء قد بدأ يتقشر ولكن المحطة كانت نظيفة بشكل عام. جلست "مس كنتون" على المقعد بينما بقيت أنا واقفا لكي أرى "الباص" عند قدومه . على الجانب الآخر من الطريق لم يكن هناك غير الحقول وأعمدة التلغراف التي تقود بصري إلى مسافة بعيدة. وبعد أن انتظرنا صامتين بضع دقائق ، كنت مضطرا لأن أقول :

"عفوا يا "مسز بن" ، يبدو أننا لن نلتقي ثانية قبل وقت طويل. لذا أرجو أن تسمحي لي بسؤال حول موضوع شخصي. موضوع ظل يشغلني لفترة".

"بالتأكيد يا "مستر ستيفنس" ، فنحن أصدقاء منذ زمن"

"كما تقولين ، نحن بالفعل أصدقاء قدامى ، أريد فقط أن أسألك يا "مسز بن" ويمكنك ألا تجيبى عن السؤال إن شئت. الحقيقة أن الرسائل التى كانت تصلنى منك على مدى تلك السنوات ، والرسالة الأخيرة بخاصة كانت توحى بأنك ... لا أعرف كيف أقولها ... كانت توحى بأنك لست سعيدة إلى حد ما . كنت أخشى أن تكونى تتعرضين لمعاملة سيئة من أى نوع . عفوا ! أقول إن ذلك أقلقنى فترة. وقد تكون حماقة منى أن أقطع كل هذه المسافة لأراك دون أن أسألك على الأقل".

"مستر ستيفنس" ، ليس هناك ما يدعو للقلق أو للشعور بالحرج على الإطلاق . نحن أصدقاء قدامى. أليس كذلك؟ الحقيقة أننى ممتنة جدا لاهتمامك ، ويمكن أن تطمئن تماما من هذه الناحية. زوجى لا يعاملنى معاملة سيئة أبدا . وهو ليس إنسانا قاسيا ولا نَكد المزاج".

"لابد من أن أقولك لك إن ذلك يريحنى كثيرا"، ثم ملت بجسمى إلى الأمام لأرى أى أثر لـ "الباص" .

قالت : أرى أنك لم تقتنع تماما يا "مستر ستيفنس" ، ألا تصدقنى؟"

"الأمر ليس كذلك يا مس كنتون . ليس هكذا بالمرة! الحقيقة تبقى وهى أنه لا يبدو عليك أنك كنت سعيدة على مدى تلك السنوات. أقول ، ومعذرة فى ذلك ، لقد تركت زوجك أكثر من مرة. فإذا كان لا يعاملك

معاملة سيئة .. فالمرء يسأل متحيرا ... ما هو سبب تعاستك إذن؟"

نظرت إلى المطر مرة أخرى ، سمعت "مس كنتون" تقول وراني : "كيف أشرح لك يا"مستر ستيفنس"؟ أنا نفسي لا أعرف لماذا أفعل أشياء من هذا القبيل ! والحقيقة أنني تركته ثلاث مرات حتى الآن "وسكتت لحظة بينما أنا أنظر في الناحية الأخرى من الطريق . ثم قالت: "أعتقد يا "مستر ستيفنس" أنك تريد أن تسأل إن كنت أحب زوجي أم لا!"

"فعلا يا "مسز بن" .. أنا أعتقد ...."

"أشعر أن عليَّ أن أجيب عن تساؤلك يا "مستر ستيفنس" . وكما تقول فنحن قد لا نلتقي قبل سنوات. نعم! أنا أحب زوجي بالفعل . في البداية لم يكن الأمر كذلك . ولبعض الوقت كنت لا أحبه. عندما تركت "دارلنجتون هول" كل تلك السنوات لم أشعر أبدا بأنني سوف أتركها .. أعتقد أنني فكرت في ذلك كحيلة أخرى يا مستر ستيفنس لكي أغيظك. كانت صدمة لي أن آتي إلى هنا وأجد نفسي وقد تزوجت. بقيت غير سعيدة فترة طويلة .. لم أكن سعيدة بالمرة في الحقيقة. بعد ذلك مرت السنوات ، وكانت الحرب، وكبرت "كاترين"، وذات يوم اكتشفت أنني أحب زوجي. تقضي بعض الوقت مع شـــخص ما فتجد نفسـك وقد اعتدت عليه. هو إنســان طيب، رجل مـسـتـقـيم ، نعم يا "مـسـتـر

ستيفنس" ... لقد نما حبي له".

بعد ذلك سكتت "مس كنتون" لحظة ثم واصلت كلامها: "لكن هذا لايعني بالطبع أن المرء لا تمر به أحيانا لحظات كئيبة ، عندما يجلس ويفكر ويقول لنفسه يالها من غلطة مرعبة تلك التي ارتكبتها في حق حياتي، ثم يفكر بحياة أخرى ، حياة أفضل كان يمكن أن يحياها. فأنا مثلا أفكر في حياة كان يجب أن أعيشها معك يا "مستر ستيفنس". وأعتقد أن ذلك يحدث عندما أغضب لشيء تافه .. وأترك البيت . ولكن في كل مرة أفعل فيها ذلك أدرك قبل وقت طويل أن مكاني الحقيقي هو أن أكون مع زوجي. على أية حال عقارب الساعة لا تدور إلى الوراء ولا يمكن أن يظل المرء دائما يفكر فيما كان ينبغي أن يكون. لابد من أن يدرك أنه أفضل من كثيرين ... وأن يكون شاكرا لذلك".

لا أظن أنني قلت شيئا على الفور بعد سماع ذلك ، لأنني للحظة أو لحظتين لم أستوعب ما قالته "مس كنتون". وكما تتوقع فإن مضمونه أثار قدرا من الشجن بداخلي- ولماذا لا أعترف بذلك؟ - كان قلبي يتحطم في تلك اللحظة ، وقبل أن يمر وقت طويل التفت إليها وقلت :

"أنت محقة تماما يا "مسز بن" ، وكما تقولين فإن الوقت قد فات ... ولا يمكن إعادة عقارب الساعة إلى الوراء . والحقيقة أنني لن أعرف سبيلي إلى الراحة لو علمت أن تلك الأفكار كانت هي سبب تعاستك أنت